عطر خلف الستار

رواية

عباس مدحت البياتي

أحيانًا، لا يكون الستار سوى مرآة...
والعطر، بقايا اعتراف لم يُقال

عطر خلف الستار

رواية

عطر خلف الستار

عباس مدحت البياتي

إهداء

إلى كل محب وصديق ورفيق وإلى

القارئ

العزيز

الفصل الأول

1- سنة 1978

قبل أن تطأ قدماي أرضية الحرم الجامعي، كنت قد عهدت نفسي عهدًا لا يقبل المساومة ولا الانحناء أمام نزوات المراهقة أو إغراءات الطريق. كنت أرى نفسي ككيانٍ مستقل لا ينحرف عن الحد المطلق للسلوك القويم، ولا يساوم على كرامته في سبيل عاطفةٍ عابرة. قررت أن أكون ذاتي، أن أُضفي على شخصيتي هالةً من القدسية والاحترام، أن أكون ذلك الطالب الذي لا يُغامر بكرامته مهما كانت الإغراءات مطروحة أمامه.

لقد تشربت المبادئ منذ نعومة أظفاري، وارتويت من نبع الأنفة وعزة النفس، فأنا ابن فضاءٍ ريفي، حيث لا تُباع الكرامة ولا تُشترى، حيث يُقاس الإنسان بصدقه وعفته، لا بما يملك من مالٍ أو جاه. تعلمت أن لا أرهق ذاتي في مواقف الضعف، أن لا أُذل نفسي أمام الأزمات، أن أحفظ هيبتي في أعين الآخرين، لأن الصورة التي يراني بها الناس ليست مجرد انعكاسٍ لشخصيتي، بل هي عمادها وجزءٌ من كياني الذي بنيته بجهدٍ وصبر.

كان دخولي الجامعة حدثًا جليا كنت خططت له منذ الصغر، حلمًا نسجته في ليالي التأمل، ورسمته كطريقٍ مستقيم يربط بين الذات والأماني، بين الروح والفكرة، بين الوجود والبقاء، لا بد أن أسلكه كي أرفع من شأني وأقيم قدري بين أهلي وناسي والزمن. كنت أؤمن أن الإنسان بلا شهادةٍ جامعية سيظل مهزوما في داخله، مضطرب القدر، حتى لو ملك مال قارون. كنت أرى الشهادة بالنسبة لعماد الشخصية كالعمودٍ

الفقري لاستقامة منهج الحياة، كنافذةٍ تُطل على مستقبلٍ مفتوح أكثر رحابة، كقوةٍ تمنح صاحبها القدرة على إدراك اليقين وما هو أبعد من حدود المعرفة التقليدية. وهي حافز ذهني للفرد لأدراك ما هو خفي أمام أعين الآخرين، تجعله ينعم بطاقة فكرية ونفسية ومادية جياشة، تخلق له المعجزات من لا شيء وتذلل أمامه المستحيل مهما كان عصيا.

هذه القناعة لم تكن وليدة لحظة، بل كانت امتدادًا لجهد مضني لتربيتي وتدريب عملي استقيته من منهج الأرض حيث الجزاء على قدر العمل، التقدير مقابل الجهد المبذول. لتلك الأرض التي نشأت عليها أساس جذلتني بهذه الصيغة، حيث العفة والكرامة ليست مجرد كلمات، بل منهج وأسلوب حياة. فأنا ابن ريف عرف قيمة الجهد، أدرك أن العلم ليس رفاهية، بل ضرورةٌ تُوسع الحظوظ، تُذلل المستحيل.

وهكذا، حين وطأت قدماي أرض الجامعة، لم أكن مجرد طالبٍ يبحث عن شهادة، بل كنت إنسانًا يسعى لترسيخ هويته، لتأكيد وجوده، ولإثبات أن المبادئ لا تُهزم، حتى في أكثر الأماكن ازدحامًا بالمغريات.

لقد حكمتُ على نفسي، وضعتها في صندوق مغلق دون أن تكون لي دراية بماهية الجامعة والعلاقات بين الطلبة، دون أن أملك بعدًا حقيقيًا أو نظرةً شموليةً لمستقبلٍ يوشك أن يفرض عليّ معطياته. كنت أتهيأ لدخول عالمٍ جديد بكل حيثياته وصوره دون أن أُسلّح نفسي بتجاربٍ تعينني على تجاوز المواقف الحرجة، فلم أستند إلا إلى جدار الظرف الذي صاغ شخصيتي دون اعتراضٍ مني، كأنني كنت أقبل قوانينه دون أن أبحث عن بدائل.

لكن الجامعة... كانت شيئًا آخر. فضاؤها مختلفٌ عن عالمي المحدود، لها إرهاصاتٌ خاصةٌ تبيح للنفس حرية الفكر والتجربة، تفتح أبوابً حياة جديدة ومنوعة لم أطلع عليها ولم أدخلها، وتمنح الفرد فرصًا لتجديد ذاته، لتوسيع مداركه وخياراته، ليختار فاكهته من بستانٍ ثري تتجدد وجوهه كل عامٍ بأطيافٍ وثقافاتٍ متنوعة.

هناك، في ذلك العالم الجديد، كانت العلاقات تُصاغ وفق قواعدٍ لم أعتدها، وكان السلوك يتشكل تحت سلطانٍ لا يشبه ما نشأت عليه. قد تخالف تلك الإرهاصات طبيعة الريف التي تربيت فيها، لكنها توافق ظني، تدغدغ مشاعري، تفتح لي أبوابًا لم أكن أجرؤ على طرقها، رغم أنها تتعارض مع القيم التي أدركتُ أبعادها وفهمتُ مغزاها.

حكم قد لا يوافق منهج الفرد وثقافته، وبالذات لهؤلاء المنحدرين من تجمعات محدودة، تحكمها الأعراف والتقاليد من أمثالي وعلى شاكلتي، تخلو جعبهم من تجارب حقيقية في ميدان الحياة الواسعة المليئة بالعقد، عاشوا جل أيامهم على البساطة وهم منزوون خلف ظلف العيش في قواقع معزولة عن المجتمع المدني المنفتح. منشغلون في أعمالهم اليومية ومقاومة جلد الحياة في تجمعات مغلقة تحكمها الظروف، كأبناء الريف والقرى الصغيرة وأصحاب الأعمال الشاقة الذين ليس لديهم وقت فراغ يصرفونه على التسلية والترفيه، لا يستوعبون فكرة النزق والتحرر من قيود العرف والعادات التي تفرضها الحيوات عليهم، كحياة المدن الكبيرة. تلك التي تجد فيها من يستهوي المسارح والسينمات والنوادي العامة والمتنزهات والحدائق والمقاهي والملاهي الليلية والحفلات والمغامرات العاطفية.... الخ،

هؤلاء الذين يعيشون تقلبات مستمرة في منهج حياتهم، تزيد ثقافاتهم تراكمات التجارب المختلفة التي ترص قوامهم عبر السنين.

تلك التقلبات في حياة الفرد تكاد تفل عقد الفرد كالمطارق الحديدية، تغير من تراكيب المخ والتفكير، تزيد الفرد إدراكا وسعة في الحياة، تجعله بمصاف الآخرين وبثقة القادر على ضب أموره. هكذا فهمت الحياة وهكذا لمست التغيير بعد فترة وجيزة من دخولي الجامعة. هجست بتراخٍ قد أصاب سعيي وعناءِ حف قدمي، وذلك بعد أن غصتُ رويداً رويدا في وحل الجاذبية المشاعة بين قامات تلك الفاتنات من حواري الجنة السائحات في مرافق الجامعة، العابثات بمشاعر الذكور بقصدٍ أو دون قصد منهن، بحيث أصبحتُ لا استطيع أن أغض الطرف عن سحرهنَّ وفتنهنَّ المراقة وهنَّ يبهجن الحياة الجافة بلدانتهن وبنمير من تلك النشوى من تَنْدِيَةً قوامهن... تلك الحسناوات اللاتي تجاوز شَدَهْنَّ الحالة المألوفة؛ كن قد شددن انتباهي وهن يسرحن في الحرم الجامعي وحدائقه، كلآلئ براقة منثورة تحت خيوط شمس الصباح ونسائم العاطفة المشاعة في وجوههنَّ، فيبدون كالورود الزاهية المنوعة، البهيجة، يفضنَّ بهجة في وجه الصباح.

مع ابتداء ولوجي بأجواء الجامعة، شيئا فشيئا رحتُ أنسلخ عن جلد شخصيتي القروية التي أعرفها وأعزها، أنساقُ خلف وهج تلك المباهج والتجمعات الرهيفة من باب الاستطلاع والاستكشاف والإعجاب، متبعا أنساق المعالم الغريبة وهي تجذبني إليها بشوق، محاولا اكتشاف أسرار تلك الفتن المدفونة في أجساد تلك الفاتنات اللاتي أغرنني بسحرهن وجذبنني لواحتهن، أغوينني بعصفهن. هجست بذاتي منقادة

كفراشة غُرت بألوان أروقة تلك المباهج وبشيء من التسرع والغشم والرعونة، بحثا عن خليلة أستهويها وتستهويني.

يقينا كنت أهجس بذاتي عنصرا دخيلا، هفهافا، قشة تتلاعب بها الأمواج المتلاطمة في ذاك المد الواسع من الحرية والتجني، لا أعرف استقرارا لفيض عواطفي التي انفجرت في أعماقي على حين غفلة كينابيع شوق ومجانة، وأنا اجد ذاتي متمرغة، متقلبة، متهورة، كشارب الخمر وهو يخطل بين مجموعة أصحاء حين اغوص في رواق تلك الفاتنات.

بقيت أراوح في ذلك الوسط دون يقين، بحيث ما أن استلطف فاتنة حتى تُزق وتتعشق الرغبة بفتنة جديدة، كأنني سجينٌ لرغباتٍ لا تستقر، ما إن تستهويني فاتنة حتى أغرم بأخرى، وما إن أجد نفسي منجذبًا إلى إحداهن حتى أميل ميل الغصن مع الريح لجانب آخر، بحثًا عن جاذبيةٍ أكثر إغراءً، وسحرٍ يتجاوز قدر ما عرفته من قبل.

صرتُ أتأمل التفاصيل، أغرق في تقاسيم الوجه، أبحث عن مزيجٍ مثالي من الرشاقة والطول ونضارة البشرة، عن تلك التي تأسر فؤادي وتوائم فكري، تتماهى مع أهوائي، كأنني كنت أسعى خلف صورةٍ خياليةٍ رسمها ذهني ولم تكن يومًا واقعية.

كانت كل واحدةٍ منهن تمتلك سحرًا خاصًا بها، جاذبيةً تشدني بغل إلى مفاتنها ولونها وعالمها الواسع بالسحر المدفون في قوامها ومفاتنها ولون البشرة، سحر أعرس، يفوق جاذبية الكون قوة، تهجس بها مغناطيسٌ جاذبية خفي، تملك مفتاحًا يرهم على كل الأبواب في عالمي المزدحم بالرغبات

المتداخلة. وأنا أسوق نفسي بين مفاتنهن؛ كنت أتأرجح بينهن كبندولٍ يتحرك بلا توقف، يترنح بين العقل والقلب، بين الحيرة والانجذاب، بين الرغبة والضياع.

بصراحة؛ وسط هذا اللهاث المستمر، كنت أشعر بنفسي دميما، هجينا، تائهاً كطيرٍ مهاجرٍ في شوارع النشوة، يحاول أن يحدد وجهته لكنه يفشل في كل مرة، متنقلًا بين ضفاف المروج، مُنهكًا في محاولة إقناع ذاته بلون ذلك الوله، كأنني كنت أسير خلف سرابٍ يتلاشى كلما اقتربت منه أكثر.

دائما ما كنت أسير برفقة صديقي شاكر، ذلك الشاب الذي انجذبت إليه مثلما انجذب إليّ، كأننا كنا انعكاسًا لبعضنا البعض، نتشارك الأفكار، المبادئ، وحتى الهواجس التي لم نكن نبوح بها إلا لبعضنا. شاكر الوسيم ذات السحنة السمراء والطول البهي، كان أكثر من مجرد زميل، كان رفيقًا دائمًا، مستودعًا لأسراري، ومرآةً تعكس اضطرابي في مواجهة عالمٍ جديدٍ لم أكن أستوعب أبعاده بعد.

كنت أفضفض له عن كل ما يغز الفؤاد ويستلب راحة البال، عن تلك المشاعر التي تسللت إليّ بصمت، دون أن أشعر، عن ذلك الجنون الذي سرى في فكري وفؤادي، والذي بلل كل جوارحي دون إرادة مني، أوقد فتيل الشبق في داخلي دون أن أعي كيف ولماذا.

لم أكن قد حسبت حسابًا لهذه المشاعر في قاموس العلاقات التي كنت أؤمن بها. لم أخطط لاقتحامها، ولم أتوقع أن يكون لها هذا التأثير الجارف في شخصي... فيما سبق، لم أفكر في تلك العلاقات قط، لذا لم أكن أشعر بقيمتها وتأثيرها، لم أجرب

حيثياتها كحالةٍ عابرةٍ خلال حياتي السابقة، لم أستمتع بفيض صداها ونور غواها قط.

كنت أهجس بها كعلاقاتٍ داجنة، كظلمة الليل، كبئرٍ مغمورٍ لا يسعف عابر السبيل، كأنها شيءٌ بعيدٌ عني، لا يمت لي بصلة، حتى وجدت نفسي غارقًا فيها، متورطًا بها، دون أن أدرك كيف أصبحت جزءًا من هذا العالم الجديد.

وجدتُ ظرف العلاقات في الحرم الجامعي أشبه بصندوقٍ محكمٍ، تتداخل فيه الأهواء بالجواهر بالفوضى، حيث تختلط الرغبة بالاكتشاف، ويتقاطع الانجذاب مع الحيرة. كنتُ أقف أمامه كمن يواجه اختبارًا غير معلن، عليّ أن أختار منه ما يناسبني، ما يفرضه القلب على الذات، ما تُسحر به العين وما تسرح به الروح.

كان عليّ أن أهيئ نفسي لهذه التجربة، أن أفتح لها منافذا لم أكن أجرؤ على كشف ستائرها من قبل، أن أصغي للقلب قبل العين، حيث القلب لا يكذب، أما العين فهي مسكينة، تقع في مطبات الفتن، لا تدرك الخفايا المؤلمة التي تختبئ في ثنايا الفاتنات.

كان عليّ أن أسمح للذات بأن تتلمس شؤونها، وتستكشف شجون تلك العلاقات، أن أغوص في حيثياتها، وأفهم دوافعها، وأدرك إغراءاتها، وألاحق صداها المدفون في عيون الجانحات، وأتحسس جاذبيتها التي تشهق بها الأرواح على صرح العذابات. كان عليّ أن أواجه ذواتًا تحمل في أعينها بريقًا لا يُقاوم يأسُر الفتيات البريئات، ويطوّقهن بسحرٍ لا يُفلت، كأنهن نجومٌ تتلألأ في سماءٍ لا تعرف إلا المغريات.

كنتُ أقف على حافة هذا العالم الجديد، أراقب تفاصيله، أبحث عن معنىً يليق بي، عن تجربةٍ لا تكون مجردة، عابرة، بل تُعيد تشكيل رؤيتي، تُعيد تعريف ذاتي في فضاءٍ من الألق والحب لم أكن أعرفه إلا من بعيد. كنتُ جديد العهد بالجامعة، أتنقل بين أروقتها كمن يبحث عن ذاته في عالمٍ لم يألفه بعد. لم تكتمل تكهناتي، ولم تصطبغ غاياتي بألوان الفسيفساء التي ترسم ملامح التجربة الجامعية. كنتُ أقف على عتبة هذا العالم دون رؤيا واضحة، دون إدراكٍ لحلقات المسلسل الذي قد أكون أحد أبطاله.

لم أندمج كما يجب، كنتُ أعيش تحت برج الخجل، كمن لا يفقه لغة الحب، كمن يراقب المشهد عن بعد دون أن يجرؤ على المشاركة فيه. لم تكتمل دورة الحياة في ذهني، لم يستقر خلجان القلب. كانت الأهواء تتحكم بي كيفما تشاء، تتقاذفني بين موجةٍ وأخرى، دون أن أملك الخبرة الكافية في التعامل وفي المجاملة وفي المراوغة وفي العناية والملاطفة وإدارة الشقاء، في كل ما يخص الجنس الناعم من صبحٍ ومساء.

ومع ذلك، وجدتُ نفسي مصدومًا بتلك العوارض المجانة، أولئك اللاتي جذبنني إلى واقع إغراءاتهن ومفاتنهن برواء، كأنهن كنّ مرآةً تعكس اضطرابي، كأنهن كنّ يضعنني أمام اختبارٍ لم أكن مستعدًا له بعد.

وقفتُ على عتبة الحياة دون سلاحٍ يعيننني على مجاراة الزمن، لا خبرةٍ تسندني، لا مادةٍ تذلل المصاعب أمام طموحاتي التي اتسعت آفاقها أكثر مما تحتمل قدرتي. كنتُ أبحث عن موطئ قدمٍ في وسطٍ لا يعرف المجاملة، وسطٍ يتطلب ثباتًا لا أملكه، وقوةً لم أكتسبها بعد.

في أغلب الأحيان، كنتُ أشعر بالتطفل يغلب على سلوكي، كأنني دخيلٌ على هذا العالم، أهجس بذاتي سليلة لحظةٍ مارقة، منقادة خلف إرهاصات القلب إلى حيث تشاء، دون تخطيطٍ أو إدراكٍ لما ينتظرني. فإذا ما أخذنا الحالة الاقتصادية المزرية بعين الاعتبار، تلك التي تعصف بقدراتي كلما شط الذهن وزاغ في فيض المتاهة والمجهولية، فإنني لم أكن سوى عابرٍ في طريقٍ لا يعرف الاستقرار، تتقاذفني الأهواء، وتُحاصرني الأسئلة التي لا أملك لها إجابة.

صرتُ أتبع عصف أهوائي بشيءٍ من اللهو والرغبة والبله، كأنني أختبر حدود ذاتي دون إدراكٍ واضحٍ لما أبحث عنه. كنتُ أدور في دوامة الإغراء، أتنقل بين اللحظات، أنقاد بسلاسة خلف شتات النفس، مقيدًا بهيامٍ لا أعرف له منبعًا أو نهاية.

أحيانًا كنتُ أنجذب إلى تجمعات الفاتنات، أراقب فيض ألقهن وشياكتهن دون أن أقترب من حدود النار، كأنَّ حضورهن ينساب في كياني كضوءٍ يتسلل عبر نافذةٍ غامضة. أحيانًا أميل إلى وجس الصمتِ لأعيش لحظات بين خافقهن. وأنا أراقبهن وهن منغمسات في كركرتهن وضحكاتهن، مستمعا إلى صدى البهجة يتردد في أروقة المكان وكأنه دعوةٌ خفيةٌ لي لأدخل ذلك المجال الذي لم أكن مستعدًا لمجاراته بعد.

حيث في لحظاتِ اليأس كنتُ أنزوي خلف تكهناتي، ألوذ بخجلي المفرط، أقف بعيدًا عن الأسوار التي تفصلني عنهن، أستند على مشاعر مرتبكة، أشعر بسوط العذاب يهطل على فكري، يلسع ضميري، أجد نفسي عالقٌ بين الرغبة والرهبة، بين الانجذاب والخوف من فقدان السيطرة. أصور ميدان

الشوق مستنقعًا واسعًا لا يعينني على الصمود، لا يلهمني الثبات، بل يتركني متأرجحًا بين التردد واللهفة، بين ما أريد وما أخشى.

كنتُ في حالةٍ من التجاذبات التي لا أملك لها تفسيرًا، كأنَّ ثورةً خفيةً تتأجج في داخلي، تحيل عاطفتي إلى طيفٍ هائمٍ بين الوجوه الفاتنة، بين السيقان البضة، بين تفاصيل الجمال التي تتراقص أمامي بشيءٍ من الرغبة والرعونة والخيلاء.

كنتُ أتابع انجذابي دون يقين، كأنني كنتُ أتشبث بما تهوى النفس، أبحث عن معنىً لا أجد له اسمًا، عن إحساسٍ يتجاوز الإدراك، عن لحظةٍ تتشكل ثم تتلاشى قبل أن أقبض عليها.

كان ذلك الانجراف أشبه بتيارٍ جارف، يقتادني بلا مقاومة، يضعني أمام اختبارٍ لم أختره، يتركني عالقًا بين الرغبة والرهبة، بين الانجذاب والخوف من فقدان السيطرة، بين ما أشاء وما يصيبني من وهم.

في تلك الفترة الحرجة من واقعي المتقلب كنتُ قد استهويت الوحدة على فكرة التجمع، أو هي التي استهوتني فقيدتني كسجين في قفصها، لأنفرد بذاتي خلف إرهاصات الوجد وهي تدلف بي إلى يقين العجز، فأنغمس بحالات استمناء مؤقتة ترهق ذاتي. وما أن أجد ذاتي في ضيق؛ حتى أبحر في الساحات والحدائق والشوارع وأروقة الجامعة بشيء من التيه خلف الوله، ودا اشباع رغبات النفس بتلك المفاتن الساحرة.

صرتُ أتبع هواجسي، أترك لها حرية التغلغل في أعماقي، حيث استمال الفكر بواقع تركيبة ذاتي إلى تلك التجمعات الصغيرة المنفصلة، أراها أكثر سعةً ومجالًا لفض صرة

الشوق في مساربها، كأنها فسحةٌ تمنحني فرصة الانغماس في عالمٍ لم أكن أجرؤ على اقتحامه من قبل. حيثُ أجد في تلك الفاتنات هَبّات شوقٍ متدفقة، كأنهن يحملن في حضورهن نداءً خفيًا لا يُقاوم، كنتُ أتأملهن بشغف، أتابع تفاصيلهن، أبحث عن ذلك السحر المُعِل الذي يتجلى في المحاسن، في النظرات، في الحركات التي تنساب بسلاسةٍ كأنها رقصةٌ لا تنتهي.

كان انجذابي إليهن أشبه بتيارٍ جارف، يقتادني بلا مقاومة، يضعني أمام اختبارٍ لم أختره، يتركني عالقًا بين الرغبة والرهبة، بين الانجذاب والخوف من فقدان السيطرة، بين ما أريده وما أخشى أن أقترب منه أكثر.

لذلك زاغ فكري وجنحت رغباتي بشيء من التطفل والعفوية لواحاتهن، تنعمت بشيء من الاستلطاف والتبصر بأشكالهن الجذابة، ربما كان للحرمان الذي كنت أعاني منه سابقا دافع باستتباب الفكرة واستكمال شكل الغواية في جوارحي، مما سوغ لي حالة الاندفاع الأعمى دون أن أحسب انعكاسات نتائج ذلك التطفل على شخصيتي ومستقبلي وتقديري لذاتي.

في إحدى النزوات وأنا ماضٍ خلف سحر المفاتن، مستسلمٌ لعفوية اللحظة وبهجتها، دون أن يكون لإرادتي رأيٌ في سياقي،، وجدتُ نفسي أنساق بشيءٍ من القداسة نحو رهطٍ متجمعٍ في الساحة العامة، يختلف عما ألفته من قبل. زمرةً من طيور الجنة كنَّ لفتن نظري وهنَّ يزقزقن بجذبٍ في زاويةٍ من الباحة المفتوحة أمام نادي الجامعة، كأنهن لوحةٌ نابضةٌ بالحياة، تتراقص فيها الألوان والأصوات بتناغمٍ ساحر. هجستُهنَّ باقة وردٍ ملونةٍ من الحسناوات، اجتمعن على سفرة

الألفة والمرح، اتخذن من الطرفة والضحكة والابتسامة منهجًا وسراطًا لتقوية الآصرة فيما بينهن، لتقوقعهن في عالمٍ أختصر مساحة العلاقات الاجتماعية بعناوين المصالح الشخصية.

حينها، ودون إرادةٍ مني، بقيتُ أنصت لهن بشغف، مستمتعًا بصخب تلك الأصوات النغمة، وهي تطرب ذهني، كأنها سيمفونيةٌ خفيةٌ تعزف على أوتار الروح، تفتح لي نافذةً على صباح مشق يفيض بالأمل.

بقيت أصغي لهن في الوقت الذي به كنت أتمعن بأناقتهنَّ وعفويتهنَّ وهن يشذبن فكري وعاطفتي بغنج لتلك المباهج، بالتناغم الدائر بينهن، بالروح الهائمة، بالفتن العائمة. بإطلالتهن تحسستُ ذاتي تجلد بعصا الرقة والأنوثة، بغل الحرمان والوحدة، لقد عبثن بشراشف الفكر والحدق، أصبنَّ الفؤاد بسهام الحسرة والشجن، أوجرنَّ سكون الحالة الرتيبة بعصف هستيري من حركاتهن ولعلعهن أطربنَّ بها الفؤاد والنظر.

وهن يتجاذبن الحديث فيما بينهن؛ ارتعدتُ هواجسي بصخبهنَّ وعصفهنَّ وأنا أبحث بينهن عن ذاتي، بقيتُ أسف النظر بلوحة المفاتن وبشيء من التطفل والمتعة وأنا ألوم نفسي على انعزالها، متبعا هوس الألفة دون أن أفقه شيئا مما يدور في خلدهنَّ من حديث، كنت مجرد استمتع بنغمة الأنوثة تطرق صيوان أذنيَّ.

لقد تمكنَّ من ضفر مشاعري بخيط الأنوثة، طفقت الروح تسبح بشواطئ الفتن بشيء من الرهبة والتأمل. رغم بعد المسافة الفاصلة بيننا، شممت طيب ذلك العبق الأنثوي يغري انفاسي. قررت تحدي الموقف فشكمت ذاتي بإسراف النظر، لذعت الروح بمجانة الموقف وهي تطّوف مرابع السَحر، التعتْ بنار الأنوثة وسجدة الخيال،

تسامت الأشياء فوق تلك الأجساد البضة، الرشيقة، الراقصة تحت أضواء الأنوثة المرهفة.

أضحى الموج العاتي يهدد كياني، يستبيح عواطفي، يطفق بمركب الخيال بين ملامح الوجه والجسد وسحر البشرة.. هكذا انبثقت خيوط الشوق تشد أزري ونظري بأسافين أنوثة تلكم الفاتنات..

كانت قد تراخت الروح تماما بين زفرة الآهات وشطط النار الملتهبة في داخلي، لامست رغاء الجسد ونعومة الشعر، هامت في الغراء السائح على البشرة، لمست الجاذبية، غصت في بحور مفاتن الوجوه النضرة.

أنه الظمأ المتأجج في داخلي، ذلك الأوار الذي يشتعل في أعماقي، ينهشني فكري بلا رحمة، يتركني أسيرًا لرغباتٍ لا أملك لها ردعًا. لم أكن قد خزلت ذلك الضعف المشاع في ذاتي الأسيرة، لم أكن قد اختبرت قسوته من قبل، لذا حين اصطدم كياني بحاجزٍ جلمود، انهار صرحي كجبلٍ ثلجي، تأثر بحرارة السموم المثارة من حولي، كأنني كنتُ هشًّا أمام ذلك الطوفان الذي اجتاحني بلا إنذار.

استسلمتُ لقيود تلك الفتن دون إرادةٍ أو وعي، كأنني كنتُ أُقاد إلى مصيرٍ لم أختره، كأنني كنتُ أُسلم ذاتي لرياحٍ لا أعرف إلى أين ستأخذني، لكنني كنتُ عاجزًا عن المقاومة، كنتُ أراقب انهياري بصمت، كأنني كنتُ شاهدًا على سقوطي دون أن أملك القدرة على إيقاف ذلك المد أو ترميم قوامي.

تدفق ذلك الشوق إلى داخلي بشيء من العبط؛ بان تأثيره واضح على سلوكي وطباعي، اختلَّ الفكر وتبدلت قيافتي كليا عما كنت عليه، كأني تعثرت بحجر الحظ فظللتُ الطريق، كأنَّي وجدتْ في رواق

ذلك المجتمع صرة صبر تؤدي إلى النجاة، وجدت مدفنا لدفن تراكمات العجز والنقص الذي كنت أعاني منه في سري، لذا تركتْ الروح تفلت من قبضة اليد دون مراقبة، لتلتاع في متاهة تلك المباهج الغرة من الوهلة الأولى، من الصدمة الأولى التي هزهزت قوامي، تركتها تبحث عن شجونها في ظلمة العسر، علها تعلق في شباك فاتنة تبتغيها، علها تتوافق معها في الخطوة والمبدأ.

وهو يحاول أن يهم بي بعيدا عن واقع فكري المكبل بأسوار تلك المجموعة من الفتيات الساحرات، رجوت صديقي شاكر بالتريث قليلا، حتى تهدأ الروح بألوان شفق تلك الزهور المتناثرة.. حينها كنت قد أيقنت من هواني، استسلمت تماما لضعفي أمام جلجلة تلك المفاتن. رجوته التأني حتى تشيخ غرائزي في مكامنها.

لا ادري كيف حلتْ تلك العزيمة في داخلي، ربما هي طاقة مخزونة في اعماق كل إنسان تطفو في أوقات الأزمات، طاقة لم أعد أحتمل طائلها، تزيدني هيجانا وطيشا لأستعيد بها مفقودات القلب التي أضعتها عبر سنيني عمري الماضية دون أن أبهجه بها.

هجست بأني بحاجة لاستدراك رغباتي وعواطفي قبل أن تفض وتغور تلك الشحنة من الود في أدراج الغوط والنسيان... كأنَّ تلك الطاقة كانت تستمد حيويتها من إشعاعات تنبعث من جوف تلك المفاتن التي لم تجد لعصفها فتائل تتقد بها، فأثارتها في مواجعي حتى استلب مآربي وقيافتي.

في الحقيقية الأمر تَمَكّنَّ من تقييدي، شذبنَّ مشاعري نحو مصب فتنتهن بسلاسة، قلمن أظافر عزمي وغروري، شددن انتباهي لصرح الأنوثة المزدان بها أجسادهن.

كنَّ قد تمكنَّ من صفد فيض مشاعري بشيء من العبودية، جذبن كل شيء فيَّ إلا جسدي الأجدب! بقيَّ هامدا في مكانه لا يحرك ساكنا، لم يتزعزع قيد شعرة عن رقعته، منعته فرامل العفة والخجل من أن ينزلق إلى وهدتهن ويتحد بجبروت فتنتهنّ المشاعة!...

هكذا بقيت أعيش لحظات تأمل؛ حيث طاف الخيال بين منابع تلك الفتن المسجورة باللين والرقة، حيث كنَّ منشغلات بأمور المنهج والدراسة وبأحاديث أخرى جانبية، كنَّ يزقزقن بأصواتهن النغامة لتصل عذوبتهن لأذهان الصقور الدارجة والدائرة حولهن. كنت أحاول أن أسترق ذلك السمع والصدى دون أن أبالي بشجون الحديث الدائر بينهن ومن حولي. لم يشغلني مغزاه قدر أن أغيث روحي الظامئة بقبس الأنوثة الرائجة كالزبد.

أهجس بتلك الأصوات وهي تعبر حواجز سمعي كأنها تعزف على وتر القلب، تحرك زغب المشاعر لمجرد أن يهف أثيرها بطبلة الأذن، تهز غصن رجولتي وأن لم يطفق ثمر الود بيننا.

لا إله إلا الله، كم أنت عظيم يا الله...

يا لجمال خلق الإنسان! تكوينٌ معجزٌ يجمع بين المادة والروح، بين العقل والقلب، بين الغريزة والإدراك. خُلق الإنسان من عناصرٍ متداخلة، جُمعت بحكمةٍ إلهيةٍ، ليكون مزيجًا من المعادن والطاقة والمشاعر، كأن كل ذرةٍ فيه تحمل سرًّا من أسرار الكون.

كُوّنت صفاته الإنسانية والعاطفية والحسية بتقنيةٍ عاليةٍ، صُقلت روحه في بوتقةٍ من التجربة والسعي، فكانت رحلته في الحياة انعكاسًا لهذا الإتقان. تحكمت إرادة الخلق في مسيرته، في حظوظه، في مشاعره وأحاسيسه، في هواه

وهواجسه، في بصره وتبصره، في تفكيره ويقينه، في حبه وكرهه، في حيرته وخوفه، في أمانه وقلقه، في سعادته وشقائه.

كل هذه الأبعاد، رغم تباينها، اجتمعت في كيانٍ واحد، متناسقةً في تفاعلٍ دائمٍ مع الكون. إن الإنسان ليس مجرد جسدٍ يتحرك، بل هو قصةٌ متكاملةٌ من الإدراك والبحث والتأمل، رحلةٌ لا تنتهي في فهم ذاته واكتشاف العالم من حوله، وكل هذا لم يكن إلا تجلّيًا لعظمة الخالق!.

كل تلك العناصر، رغم كونها خارجية، تتسلل إلى أعماق الإنسان، نحسها، نتوجس بها، نتوكأ عليها، لا نلتمس منها شيء إلا بما نتحسس، ولا تصبح جزءًا منا إلا حين نشعر بها. إنها دخيلة على هيكل الجسد، لكنها تتفاعل معه، تقدح من لفائف المخ والقلب، تؤثر في تكوينه النفسي والشخصي بحرفيةٍ دقيقة، كأنها خيوطٌ غير مرئية تنسج هويته، تصوغ مشاعره، وتعيد تشكيل رؤيته للعالم.

إنها ليست مجرد مؤثراتٍ عابرة، بل هي جزءٌ من نسيج التجربة الإنسانية، تترك أثرها في الفكر، في الإدراك، في الوعي، حتى تصبح جزءًا من الكيان، رغم أنها لم تكن يومًا من صلبه.

تلك العناصر، بمجموعها، تشكّل نسيج الإنسان، ترسم سلوكه، تكوّر شخصيته، تحدد توجهه وإنسانيته، تصوغ له أقداره وحظوظه ومستقبله، كأنها شبكةٌ معلوماتيةٌ دقيقةٌ، تجذب له الخير والشر في آنٍ واحد، تضعه أمام اختياراتٍ لا مفر منها، وتمنحه القدرة على تشكيل ذاته وفق ما يستوعبه من تجارب.

مـن يـتمكن مـن ضـبط تلـك العناصـر، مـن ترتيبهـا فـي حقيبـة سـفره، يكـون فـي مـأمنٍ مـن الانحـراف، يسـتطيع تطويعهـا وترويضـها تحـت إرادتـه وإمكاناتـه، يملـك زمـام الـتحكم فـي ملامـح شخصـيته، يوجّهها كيفمـا يشـاء، لكنـه لا يملـك السـيطرة المطلقـة، لأن الإنسـان، فـي جـوهره، لا يملـك القـدرة الكاملـة على ضبط تلك القوى التي تحكمه.

فـي حقيقـة الأمـر، نحـن لا نملـك سـوى جـزءٍ يسـيرٍ مـن الـتحكم فـي تلـك العناصـر، نـؤثر فيهـا بقـدرٍ محـدود، لكنهـا تبقـى أقـوى منـا، تتفاعـل معنـا، تـتحكم بنـا، تضـعنا أمـام اختبـاراتٍ لا نملـك لهـا إجابـةً كاملـة. هكـذا خلقنـا الله، دون كمـال، محكـومين بغرائزنـا، محـاطين بضـعفنا، نبحـث عـن التـوازن بـين مـا نريـد ومـا يُفـرض علينا.

وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا... صدق الله العظيم.

بمجـرد أن تُسـحب الـروح مـن الجسـد، تتلاشـى كـل تلـك الـنعم، تتحـول إلـى هبـاءٍ فـي جـوف العـدم، ويصـبح الجسـد مجـرد هيكـلٍ بـلا قيمـة، كأنـه صـفحةٌ طُويـت مـن كتـاب الحيـاة. ومـا شـدني إلـى تلـك النخبـة مـن الفاتنـات لـم يكـن سـوى انجـذاب الـروح لعناصـر الفـتن البـارزة فـي أجسـادهن، دون أن أغـوص فـي تلـك العناصـر الضـبابية الأخـرى، كـأن الجمـال الظـاهر كـان كافيًـا ليُحـرك فـي داخلـي رغبـةً لا تفسـير لهـا، انجـذابًا لا يخضـع للمنطـق، بـل يتبـع نداءً خفيًا ينبعث من أعماق النفس.

كـم أنـت عظـيمٌ يـا الله، حـين وضـعت السـر فـي تلـك الـروح، وغرسـت العاطفـة فـي الجسـد، ولونـت حياتنـا بتلـك الغرائـز التـي

تتحكم بنا، مثلما جعلت الخضرة في ورق الشجر، كأنك أردت أن يكون الإنسان مزيجًا من الإدراك والغريزة، من العقل والرغبة، من السمو والانجذاب، ليظل في رحلةٍ دائمةٍ بين التوازن والانجراف.

هؤلاء الفتيات تجمعنّ كرفقة، ويظهر على تجمعهنَّ ألفة حميمية، ربما هنَّ أكثر قِدما منا في أنتسابهن للجامعة، ربما هن في مراحل متقدمة من الدراسة.. ومن بين تلك الجوقة شدت انتباهي إحداهن بشكل ملفت للنظر، وكأنها كبلت أنفاسي بخيوط فتنتها، بحيث لم أستطع أن أحرف بصري عن مفاتن وجهها والسحر المنثور على حسدها، سحر أخاذ متلألأ في الشعر والقوام والبشرة، سائح على بساط الجسد كقطرات المطر، غائر في قداس قدها المياس كالشفق، كأنها بكيانها شمس تدور بين الكواكب والنجوم الساطعة، بحيث غطت بنورها على أنوار زميلاتها.

أول ما شده انتباهي هو طولها الفارع، تلك القامة المستقيمة أشبه بغصن البان في اعتداده.. ثم دارت عيني على تفاصيل الوجه والشعر؛ بانت كعنصر الكهرب تفيض حسنا ونظارة، تنزف بهاء من الوجه والجسد. ما أن انتبهتُ إليها؛ حتى لسعت بالنور المنبعث من العين الحوراء والشفة الملظة، الوجنتان متوردتان، الأنف مبرم بالسحر والجاذبية. ولشدة ولهي بها؛ وددت أن أنبئ صاحبي عن تلك الوردة المشعة التي الهفت بصري بأثير عصفها.

ما أن التفت على صاحبي لأشرح له عن ما وقعت عليه عيناي، والذي بدوره كان سارحا في عقله وفكره في نقطة أخرى، بعيدة جدا عن مآربي وغايتي، حيث كل لاهثٍ خلف ظنه؛ حتى وجدته غارقا في شجونه وحساباته....

- انظر يا شاكر.. انظر لجمال تلك الفاتنة...

في اللحظة التي درتُ بها إلى صاحبي؛ كانت قد أختفت من المشهد، كأنها لم تكن من البشر، بل جنية تلبست ظني فتراءت لي حورية بين رفيقاتها. كأنها بالتفاتتي تركت زميلاتها لجهة ما، أو ربما دلفت في وسط الجموع المتحركة والعابرة دون أن أنتبه عليها، أو ربما تنبهت للجاجتي وبجاحتي وصلافتي، فودت أن تظلل جاحظتي لتختفي كأثر بعد عين. هكذا هجست بها كأنها لمست أثر اهتمامي بها فودت أن تختفي قبل أن يشعرنَّ بذلك زميلاتها.

- شاكر.. شاكر ...أنتبه، أنظر لتلك الجميلة!!
- يا أخي أركز مكانك.. ما بك؟ عن أية جميلة تتكلم؟
- ألا ترى؟...أليس لك قلب وعينين؟.. ألم تلفت نظرك؟.. أنظر أنها آية من الجمال، كاملة الاوصاف، لقد أذهلتني بسحرها.
- أيه – أيه، أرينها.... أين هيَّ؟ أية جميلة تقصد؟
- يا إلاهي.. أين اختفت؟... كانت واقفة هنا بين هذه الشلة، جنية توارت عن الأنظار بمجرد أن شعرت باهتمامي بها، زاغت كخيط دخان في سدم الفتن، ماهت في زحمة العيون الشبقة التي تلاحقها.
- هههههههه لا تعمم، هذا أنت وليس الجميع مثلما تتخيل، لا تهتم يا صديقي.. غدا ستراها مرات ومرات.. ثم أنت لازلت طفلا صغيرا، أو بالأحرى وبمعنى أصح، جديدا، غشيما، أترك هذه المسائل للسنوات القادمة حتى تنضج بك القيم، حينها تفهم ما يدور حولك.
- يا رفيقي المسألة ليس حبا، أنه أعجاب وانبهار فقط، لو لم تكن جميلة ما كانت قط جذبتني، ما اهتممت بها، لم أرى جمالا بهذا الفيض، فوددتك ترى سطوع النور المنبعث من

ملامح الوجه وثنايا الجسد، كأنها ليست من البشر. وددتك أن تشاطرني الرأي، وتغرف من منهل الحسن عطفة تريح بها نظرك وعقلك العفن، أنها بلسم جروح، علها تزيح القرف المتجهم من على وجهك، العفن المترسب في صدرك وفمك، كأنك كورة دخان لا تهدأ، وددت أن يروق مزاجك المتعكر لترمي السيجارة من فمك للحظة....

- صبرك يا صاحبي، أنا متزن ولست مثلك طائر كريشة الحمام، اراك كعلكة التوفي تلتصق بالأشياء من أول لمسة.
- قصدك تلتصق بالأحذية... ها، قولها ولا تخجل... لم هذا الاستحياء؟. أعرفك وقح منذ أن تعرفت عليك، وأعرفك ضريرا لا تشعر بالأشياء من حولك... لو رأيت ذلك السحر الذي يلتف على قوام الجسد كثعبان وهو يرشق سمه على الملأ؛ ما كنت تلومني قط، لأصابك ما اصابني....

السؤال الذي يحيرني: أيمكن أن تكون من البشر؟... أشعر بها بمثابة أنانا أو عشتار أو أفروديت، أنها آلهة..

- أجننت؟ هيا بنا نتحرك لداخل النادي نشرب الشاي قبل أن تصاب بعاهة في مخك ومن ثم أبتلي بك.هههههه. هيا..
- يا شاكر هل تستطيع أن تفسر لي ما يدور في بالي... أن كان آدم جميلا، وحواء آية من الجمال بحكم أن الله قد خلقهما، من أين جاء هذا القبح والتصق بك؟
- من مصاحبتي لك ولأمثالك، هههههههه.
- صدقت...

اتجهنا للنادي نرتشف الشاي وأنا أشعر بذاتي قد اجترت عنائها من فتنة تلك الصبية، أضحت تأن في وحدتها على غير عادتها، كأنها أصيبت بشر سهام عينيها وبسم الأفعى المصاحبة لها...

بدأنا نعد الخطى بوقع رتيب متجهين للنادي، تاركين تلك الشلة خلفنا. كنا نمشي ونتمعن في الوجوه العابرة التي تلاقينا، نستحسن البعض ونستهجن أخرى، كأننا نتجول في معرض صور تتجدد فيه لوحاته بالدقيقة...

ولكن بقي فكري منشغلا بجمال تلك الفتاة، وكأنها دقت مسمار فتنتها بنعش قدري، فبات خيالها يتأرجح بمعالق الذهن، لا يود أن ينفك عن بالي، ولا أستطيع أن أنفك عن شرودي بمفاتنها.

2- شخصية الفتاة

بصراحة، حين دخلت الجامعة، كنتُ أحمل في داخلي سلة فارغة، خالية من التجارب التي تصقل الروح وتشكّل الهوية. لم يكن الزمن قد أتاح لي فرصًا كثيرةً، ولم تسايرني الظروف كما كنتُ أرغب، فوجدتُ نفسي كعجينةٍ طريةٍ بين أنامل القدر، يتشكّل كياني وفق ما يُمليه الواقع، لا وفق ما كنتُ أطمح إليه.

ربما كنتُ كما وصفني صاحبي، "علكة التوفي"، ألتصق بالأشياء سريعًا، أنجذب إليها بلهفةٍ لا تُقاوم، عطشانٌ للارتباط بأنثى تحملني خارج هذا الفراغ، أجلها وتجلني، ربما كان ذلك انعكاسًا لحالة الرجولة التي بدأت تتفاقم في بدني، تبحث عن شكلها، عن معناها، عن تحققها.

كانت تنقصني أمورٌ كثيرةٌ، جسديةٌ وماديةٌ وفكريةٌ، كنتُ أشعر بذاتي قائمةً فارغة المحتوى، لا تحمل سوى ثقافةٍ منقوصةٍ، وتجاربٍ هزيلةٍ، وعلاقاتٍ اجتماعيةٍ مبعثرةٍ، وعزة نفسٍ كنتُ أتمسك بها كأنها آخر ما تبقى لي وسط هذا التشكّل المستمر.

لقد كانت تجاربي عبثية، ليست دسمة مقارنة بنضوج العمر، لم تصل إلى مستوى العمق الذي يوازي متطلبات الرغبة، لم تحمل في طياتها ذلك الاتزان الذي يشكّل العلاقات الحقيقية كي تدوم. مجمل صداقاتي كانت سطحية، عابرة، تنتهي بانتهاء مسبباتها، لم تتجاوز حدود العلاقات المؤقتة مع زملاء قلائل، لا يزيد عددهم عن أصابع اليد، بينما ظلت علاقاتي

بـالجنس اللطيـف ضـبابية، مشـوبة بالشـك، لا ترتقـي إلـى الحالـة الجدية.

لكـن وسـط هـذا الفـراغ، وسـط التجـارب التـي لـم تتـرك أثـرًا عميقًـا، كانـت هنـاك إسـراء ـ الفتـاة الناعمـة الجميلـة، التـي كـان كـل الشـباب يتمنـون خاطرهـا ويسـعون لرضـاها. لا أعـرف سـر جنونهـا وتعلقهـا بـي، كانـت الأجمـل، الأرشـق، الأصـفى روحًـا، لكنهـا لـم تـدم فـي أزر فـؤادي طـويلًا، ولـم يمنحنـي القـدر فرصـةً انتشـالها مـن مأزقهـا كـي أتشـبّع بسـحرها كمـا أردت وتمنيـت. مـا إن تعلقتُ بهـا، حتـى اختفـت فـي ديجـور الظلمـة، تماهـت فـي سـدم العتمـة، مـا أن تعلقتُ بهـا وصـافحت عينـاي رغبتهـا؛ حتـى هـوت فـي وهـدة الآخـرة اختفـت خلـف حـاجز أبيهـا، حـين قـررت أن تخـالف صـيغة الحيـاة فأقبلـت علـى الانتحـار، قبـل أن أتمكـن مـن إنقاذهـا مـن جهامتـه وعجرفتـه. انتحـرت... لتـتخلص مـن عـذابات الليـل وعقوبـات أبيهـا الخمـار الـذي كـان يمارسـه ضـدها كـل ليلـةٍ إذا ما قصّرت في إدامة مُدَامه وتحضير مزته.

ربمـا كـان الفقـر هـو الجـدار الـذي أطبـق عليهـا، ودفعهـا إلـى وهـدة المـوت، ربمـا كـان اليـأس أقـوى مـن كـل محاولاتهـا للخـلاص، والله أعلـم بتضـارب الأقاويـل، لكنهـا ذهبـت، تاركـةً فـي قلبـي فجوةً لن تُملأ، وفي عقلي سؤالًا لا إجابة عليه:...

- كيـف يمكـن أن ينتهـي كـل ذاك الجمـال بهـذه القسـوة المحيقة؟

الحياة التي عشتها كانت أشبه بدحرجة عجلة في منحدر، لسرعة جريهـا لـم أفقـه منهـا شـيء، خلالهـا كانـت تنقصـني عوامـل قـوام الشخصية وأهمها الثقة بـالنفس، كنت أهجس بشخصيتي مهزوزة،

ضعيفة، حين أقحمها في محك المجتمع والحريم، تنقصها اللياقة البدنية واللباقة، لضعف عام في قاعدة استنادي المادية والثقافية والنفسية والفكرية على مداولة الأمور والنقاش بها. أهجس الفكر مهلهل، رهيف، لا يثبت على حجر، دون قاعدة بيانات عريضة استند عليها... البدن لدنٌ، ربل، لم تخضه التجارب، لم أشرئب من عسر الشدائد، لا أحتمل أعباء المواجهات الطارئة. لا أذكر بأني قدت ذاتي في محك يعمق الثقة بالنفس، لم أتقن صفة الكمال في مجالات الحياة والعلاقات الاجتماعية، دائما ما كنت أتجنبها، فهيَّ لازالت فتية تراوح في قاعدة الصمت وبروكه...

أوعزْ ذلك لعامل الفقر الموروث، ولعامل الخوف من المجهول الذي دائما ما نخشاه، ربما يرجع ذلك لكم الأخطاء التي مورستْ ضدنا من سياسات عبثية ضيقت على نفوسنا، أحكمت على ضعف قواعد الثقة بالنفس والأسس التي تربط تلك العلاقات الاجتماعية ببعضها، إضافة للانتكاسات المادية المتتالية التي زادت من عجزي الثقافي والفكري، جراء الواقع المهزوز والمستتب الذي كنت أعيش تحت ظله...

تلك الوقائع والعوامل رافقت مشاوير حياتي، حوطت ذاتي بشباك أعسر أمام اللحظات الحرجة، رغم همزات السكينة التي كنت أسبغُ ذاتي بها، إلا اني لم أتجاوز حاجز العقد المتجذرة في أعماقي.

وعلى نقيض الظرف، كنت أعيش أحيانا خارج حدود المنطق، بواقع صاخب متجدد، خيال وجدل دائم وقرار مموه، وبيان غير ملموس في تحديد معالم شخصيتي، متجنبا الاحتكاك والاختلاط والانخراط بفصائل المجتمع، متخذا من العزلة منفذا لأفكاري ومن الاعتكاف ملجأ لأحلامي. كنت أهجس بالخوف شيطان يمنعني من المواجهة، وقد أضحت تلك الرهبة المبالغ بها حارسا شخصيا يجنبني شطط

الاحتكاك، يحيطني بلفائف الوساوس، لا يأبى أن يكون لي شأنا لامعا في المجتمع..

أحيانا أوعز ذلك لما كان يمارس ضدنا من قمع من قبل الوالدين، بسبب محدودية العمق الثقافي والبيئي بمقدراتنا، حيث كنت أعيش في قرية نائية مكبل بالوحدة، القرية لا تحوي على مجالات ترفيه وتثقيف بما يوازي التطور الحاصل خارج حدودها.. لذا كنت أعتمد بتعميد شخصيتي على ذاتي الفقيرة، بدوافع لا أعرف لها مصادر، قد تكون دوافع داخلية مشحونة بقيم دينية وتربوية وحياتية، وتثقيف ذاتي وبمطالعة خجولة تحزني لأتحاشى عوامل الخوف والخجل من الغد المجهول، والمواجهة المقرونة بطابعي المكبل بطابع الخوف والخجل الملازمان لي.. لكل ذاك تجنبت الاحتكاكات والمجازفات في مسيرة حياتي.

أشعر بذاتي لم ترتدِ بدلات أناقة تليق بمواسم الفصول، أشعر بها تقف على حافة الانكسار، تبحث عن الصِدفة في أطر الظرف والفقر والأدب الخجول، مما جعلني أبتعد قليلا عن سكة الوالدين، بحيث أصبحت أشبه بالغريق الذي يتأمل قشة تنقذه من تيار العاطفة.

لم تكن لي تجارب حبٍ تُشكلني، ولا نزواتٍ تُهذبني، تزيدني ثقةً بالنفس، ولم أخُض مغامراتٍ تُلقي بي في قلب المجتمع المنفتح، حيث البيع والشراء، حيث الإبداع الذي يُرمّم الرغبة ويمنحها معنى جديدًا.

لم تصهرنِ الحياة كما فعلت مع رفقائي، لم تدفعنِ إلى اختبار قوتي في مواجهة المجهول، بل أبقتني على الهامش، أراقب دون مشاركة، أعيش دون أن أتجاوز حدودي. كنتُ بحاجةٍ

إلـى الاحتكـاك، إلـى المجازفـة، إلـى خطـوةٍ خـارج دائرتـي الآمنـة، لكنني لـم أبحث عن طريقٍ يقودني إلى تلك التجربـة، لـم أكتشـف الأسـرار التـي تصـنع النجـاح أو تعيـد ترتيـب الحلـم. بقيـتُ فـي منطقـةٍ رماديـةٍ، بـين الإدراك والفعـل، بـين الرغبـة والتـردد، فـي انتظـار فرصـةٍ لا أعـرف شـكلها، ولا كيـف سأصـل إليها.

كنـتُ أشـبه بغـلامٍ يتهجّـى حـروف تعاملـه مـن الآخـرين، لا خبـرة لديـه ولا تجربـة تصـقله فـي فهـم الحيـاة. طفـلٌ خـام، غشـيمٌ لـم يـتعلّم فـن المصـاحبة والمجاملـة، لـم يعتـد مراقبـة الواقـع الحـزين أو التفاعل معه كما يجب.

لـم يكـن هنـاك طـارئٌ يـوجّهني، ولا مـنهجٍ يحتضـنني ويصـقلني سـوى كتـاب المدرسـة، ذاك الصـديق الوحيـد الـذي تشـبثتُ بـه، كـأنني أخشـى أن أفقـده فـي زحمـة الحيـاة. جعلنـي ذلـك أتنـاول الأمـور بجديـةٍ تامـة، أتعامـل مـع كـل موقـفٍ كاختبـارٍ يجـب أن أجتازه دون التفافٍ أو مناورة.

لـم أعـرف التلمـيح والتلميـع، لـم أفهـم التزييـف والترقيـع، كنـتُ صـريحًا حـدَّ الجمـود، واضـحًا حـدَّ القسـوة، وبـين هـذا وذاك كنـتُ أتحمـل ثقـل همـومٍ ومبـادئٍ تربّيـتُ عليهـا، كأنهـا رفعتنـي فـوق محيطـي، منحتنـي مسـارًا ثابتًـا لا أحيـد عنـه، أبقتنـي علـى خـطٍ مسـتقيمٍ لا مجـال فيـه للالتـواء. كانـت الجديـة هـي الصـفة الأعـم والأشـمل التـي أتحلـى بهـا، والتـي لا أتنـازل عنهـا، مثلمـا أضـحى الصدق ربيب ذاتي وحياتي.

في الحقيقة كان يجب علي أن أحصن ذاتي بما يجب، كان عليَّ أن أدعك ذاتي بتجارب حية ترفع من شأني، كممارسة العمل في المواقع

العامة الشعبية والأسواق وغيرها من بيع وشراء أو عمل ما أشغل ذهني به لأرتقي بنواة إحساسي. كان عليَّ أن أجهز ذاتي لمفاجآت الظرف وتقلبات الأوضاع، أن أتكهن بعبث الريح بسفن احلامي العائمة قبل أن تبدأ صفيرها، أن أرفق الروح بمغريات الدنيا في بداياتها. كان علي تحمل جلد تلك المراحل الصعبة من الزمن، لأكون على قدر المسؤولية، جاهزا لمواجهة التحديات، لأكون إنسانا في نظر نفسي قبل الآخرين، قادرا على عبور حواجز المستقبل دون عناء.

ما كان يدعوني أن أشعر بشيء من النشوى وبشواظ من نار اليقين؛ هو عامل الصدق ونظافة الفكر وسلامة النية تجاه كافة البشر، تلك الأمور التي أترفع بها، أنماز بها عن الآخرين، تضفي عليَّ صفة المقبولية والاحترام، فعلاقاتي ليست بها شوائب مزيفة ولا تحتمل تزوير يخل بقيم الفرد، مبنية على أسس حب الذات ومصلحة الأنا. فالتناقضات التي أحس بها والتي التمسها في داخلي طبيعية جدا، موجودة في داخل كل إنسان بنسب متفاوتة، لكنها في أعماقي تكاد تزيد عن الآخرين قدر حبة خردل، حيث لا أعرف كيف أداري ثورة رجولتي الداخلية ولا قادر على تجاوز أحكام الطبيعة البشرية ولا مفرقعات القدر، ولا أستطيع تقييم ذاتي بالتي هي أحسن.

لذا وجدت نزوة الحب التي حلت بقلبي على حين غفلة طبيعية، مواكبة لمنهج البشر، حلت دون إنذار، بركان تفجر بلحظة غفلة، شده البال، هزَّ كياني، نفض غبرة الشك عن أشلائي... فأنا لا أرى الحب نزوة كما يشاع عند البعض، بل ثورة داخلية تلوي الخجل بأذرع الرغبة والظمأ النفسي، فالحب يغسل الروح من أعبائها، يطهّرها من العذاب والعيوب، يحيط الفطنة بجاذبيةٍ ساحرة، يمنح

القلب نسمةً من فسيفساء البهجة، يفتح أمامه أبواب الراحة والأمل، ليعبر إلى فضاءٍ يتجاوز حدود كياني.

النشوة لا أعرف كيف أوصفها، أنها شيء من الخيال، النشوة لا تُقاس، لا تُمسَك، إنها حالة تتخطى الإدراك، تأتي كوميضٍ مفاجئ، كفوران الصودا حين تمتزج بالماء، تنساب مثل ضباب الفجر في أروقة الفؤاد، خاطفةً كالشهب، جارفةً كعاصفةٍ محمّلةٍ برغبةٍ لا حدود لها.

أيقظتني على حقيقة الطبيعة، دفعتني لإيثار الحسّ والعاطفة على العقل والمنطق، فسحت لي المجال لإطلاق العنان للخيال، لتوسيع أعماق الجنون، للتماهي مع اللحظة بلا قيود. كانت لحظة تحوّل، كسرت قيود البرود والعجز، بدّدت صلابتي، جعلتني أشعر بانسياب الحياة في داخلي كتدفق الأمواج، تمضي بالود والحنين إلى حيث لا أعلم، إلى حيث كل شيءٍ ممكن.

مع أني شعرت بها في أول وهلة بشيء من القسوة وعذاب النفس، وحيرة في مواجهة عصا التأقلم، وهزل في تنظير شكل الماضي بالحاضر الجديد؛ مخافة من أن تسوف تلك المخلفات التي حملتها معي بعلاقاتي الجامعية القادمة، مخافة من أن تسفر تصرفاتي عن شذوذ عام في السلوك تهين ذاتي الجديدة، تشعرني بالنقص والانزواء بعيدا عن مواكبة الثقافات المختلفة التي عليَّ أن أحتك بها. مخافة أن تجعلني منبوذٍ أمام زملائي والأنا البريئة الخائرة في دروب الأمل. لذا تريثت قليلا في تأوهاتي على الرغم من أنَّ ذلك الإحساس كان يؤرقني كثيرا ويضعف عزمي.

ذاك ما كنت أعاني منه ودعاني أشكك في قدراتي وأعرج بإمكاناتي البسيطة بين فقهاء وقيادمة العشق من الذين قومتهم

التجارب في مجال الغرام. كنت أتساءل عن قدراتي، وأتردد في تقييم إمكانياتي البسيطة أمام أولئك الذين تخطوا مرحلة التجربة. بالحقيقة لم أكن بعيدًا عن ثقافات زملائي الجدد في الجامعة، أولئك الذين جاؤوا من كل حدبٍ وصوب، يحملون معهم تجاربهم وأحلامهم، لم يكونوا بأفضل حالٍ مني. كانت مقاييس التربية وحالة الفقر تكاد تشمل الجميع، إلا ما ندر، كأنها قاعدةٌ موحدةٌ فرضتها السياسات الخاطئة، حيث انشغلت السلطة بكرسيها وأهملت بناء الإنسان، تركته يتخبط في واقعٍ لم يمنحه فرصةً حقيقيةً للنمو والتطور. كنتُ أشعر أنني جزءٌ من هذا التيار، أبحث عن ذاتي وسط مجتمعٍ يعاني، وسط أحلامٍ تتشكل في ظل قيودٍ لا تُرى، لكنها تُحس.

لذا لم أكن أشعر بذاتي قد شطحت وشذت بسلوكها عن سلوك كوكبة الزملاء، هؤلاء الذين جمعتهم الظروف صدفة تحت سقف الجامعة باختلاف انتماءاتهم وتوجهاتهم واختصاصاتهم وأشكالهم وتربيتهم، في الحقيقة لم يكن ذلك سوى شعور داخلي زائف نتيجة الحرص الزائد والذي لا يزيدني سوى خوفٍ وفشلٍ في مجالات الحياة.

حينها كنت أشكك بذاتي المسكينة، فكنت أقول:.....

- لو سألتُ نفسي العبثية؛ من هو صديقك؟ ...

بلا تردد... ستقول القدر.

لأن القدر لا يفك أنشوطة قسره عن معصم الحظ، مثلما لا أنفك عنه بعد تلك الصحبة الطويلة، كأنني معطفٌ يرتديه القدر، كما أرتديه أنا، يزاورني دون إرادتي، يفرض حضوره كما أفعل أنا، يأتي بشكل مغاير لما أتمنى وأبتغي، يختار لي

طرقًا لم أطلبها، يضعني في مواقف لم أكن أتمناها، أهجس به كالحرباء، يتقلب أمامي بلون الظرف، بحيث يبزغ لي من حيث أدري ولا أدري. كأنه يختبر صبري، يراقب خطواتي، يعبث بي كما يشاء، بينما أظل أنا في دائرةٍ لا نهاية لها، أبحث عن إجابةٍ لا تأتي.

ولو سألتُ نفسي:...

- من هو غريمك؟

ستقول الحظ!...

لأن الحظ متذبذب، متقلبٌ كالموج، لا يستقر على حال، يتبدل مع الظرف، يراوغني حين أقترب منه، يقف أمامي كخصمٍ عنيد، يحجب عني رغباتي، يضع أحلامي في مدى بعيدٍ لا يُطال، في أطر لا توائم الهدف. يتركني في حالة حرج واضطرابٍ مع ذاتي، يجعلني أشكك في صداقته ومصداقيته، في وعوده التي لم تتحقق. أبتعد عنه كما يبتعد عني، أتحاشى الوقوع في فخ تكرار الفشل، أهرب من الخوف الذي يلازمني، كأنني في صراعٍ دائمٍ معه، لا غالب فيه ولا مغلوب.

ولو سألت نفسي:....

- من الذي يبغضك؟

ستقول التيه...

التيه... وما أدراك ما التيه؟ حين تتوه الأفكار في متاهات الظن، حين تموت الرغبة في مهدها؛ يصبح الحكم أعسر، ويطرق اليأس أبواب عالمي القديم والجديد بمطارق الفشل.

حيث بعد كل صراعٍ، بعد كل محنةٍ، أجد نفسي في مواجهةٍ جديدة، كأن الفكرة التي أبحث عنها تنسلت من بين أصابعي كسراب الفلاة، تتلاشى بغمضة عين في غبار الغسق، تذوب بسلاسة في أفق الشفق، ثم تختفي كحلم في بيداء التيه، تاركةً وراءها فراغًا لا يُملأ، وغايةً لا تُدرك.

والحقيقة المرة هيَّ أنا من يبغض ذاتي، لأني أخاطر بها وأقحمها بأحكام وقرارات مصيرية وبشيء من المجازفة تعبر عن قلة تجاربي وخبرتي في إدارة مصالها، لذا تدفعني المحاولة لتكرار المآسي هنا وهناك بذات الصورة، فأعيش غريبا في داخل نفسي، تلك التي أدلقها بتجارب ليس لها مردود نجاح.

هو كذلك مثلما أسلفت، أضحى القدر بكل أشكاله رفيق حياتي، أينما أحل يبزغ أمامي كشيطان بصورة من الصور، يحل كشبح وسط الظلمة يجزل تأملي، يردع ظني، ينغص حياتي بالصمت والعجز والتيه، فأصاب بالحرد والغضب، وبالفشل النابت كالشعرة بجلد شخصيتي.

ومع ولوج فكري في عالم تلك الفاتنة، شعرت بالقدر قد تجنى على ذاتي، صار يلاحق خطواتي، بات يقحمني في تجربة هي الأكثر عسرة في مجرى حياتي، ليفرز من خلالها صورة شخصيتي الحقيقية أمام مجموعة الصور التي كنت أتخيلها، ليبين لي عناصر الضعف والقوى المغروزة فيها.

ذلك المارد كان قد تسلل لمآربي بشيء من العبث، راج في تفاصيل الفكرة الدائرة في ذهني، ماج في دهاليز القلب، راغ في صحف الرغبة بلون من الشك، أنبأ الذات بكرب النزال القادم.

3- انكسار الجرة

بعد مرور أسبوع على تلك المصادفة، تكررت الواقعة الصدفة مرة أخرى وبلون جديد براق، هذه المرة اختلف ردائها ففاضت بجاذبية ساحرة بللت المظهر، وكأنَّ القدر أراد أن يلقي بي في دوامة أخرى من الذهول. تراءت لي كفتاة جديدة تحمل ذات النكهة والصفات، كأنها انعكاس حلم شغل بالي وأسَرَ تفكيري دون أن يتوضح غموضه. كانت ساحرة بكل ما لها من فتنة، تحاصرني بحيرتي، فلا أدري إن كانت هي ذات فتاة أمس أم مجرد شبيهة لها؟

قوامها البديع لم يطرأ عليه أي اختلاف، وجسدها المثير بقي كما هو، لكن هذه المرة أضفت عليها الأقدار ثوبًا جديدًا من الألق؛ تنورة سوداء تلف جسدها بانسيابية، وقميص نصف كم بلون الليمون يضفي إشراقة على وجهها الفاتن. كانت أشبه بوميض من نور يتراقص تحت أشعة الشمس، فتتناثر من ساقيها البيضاء إشعاعات تجذب الأبصار وتأسر الأرواح.

كأنها أعادت تجسيد دور تلك الفتاة التي سكنت ذاكرتي، ولكن بلمسات جديدة، بألوان أكثر إشراقًا وأناقة، تشع فتنة لا تضاهيها أخرى... وأنا المسجور بمفاتنها أضحيتُ كالمسحور بها، أجد نفسي غارقًا في تفاصيل جمالها، مأخوذًا ببريقها الذي يأبى أن يختفي.

ذلك ما جعلني أتبع ظني وأغرق في تفاصيل الحسن. كأنها جاءت تجلد الذات بالفتنة الجذابة، وبالأناقة البراقة، كأنها لم تحضر إلا لتأديبي وتجريدي عن طابعي الحقيقي..

بردائها المختلف عن الزي الموحد، بدت كنجمة مشعة وسط الفتيات، كأنها خُلقت لتكون محط الأنظار، تجذب العيون إليها بلا استئذان. ألوان ملابسها انسجمت مع بشرتها الخمرية بفتنة لا تقاوم، كأنها تعمدت أن تشذ عن المألوف لتبعثر القواعد وتترك أثرًا لا يُمحى في الأذهان.

كان المشهد يحمل شيئًا أشبه بالسحر؛ توهج ينبض في ثنايا جسدها، ينساب ألقه من الرأس حتى القدم، برق الحضور بعيون متتبعيها، وكأنها لوحة فنية صيغت بريشة ماهرٍ يعرف أسرار الجاذبية. فلولا رفيقتها الكورية التي ترافقها أينما حلت، لكانت الصورة أكثر غموضًا، ولكنت أجزم أنها فتاة أخرى تحمل ذات الملامح النادرة، كأنها تجسد حلمًا متجددًا بلباس أكثر جرأة وأناقة، وفتنة تُعيد صياغة المعايير في كل خطوة تخطوها..... لأني في المرة الاولى لم أكن قد شكمت بيقين تحديد ملامح وجهها، لذا لم تكن قد ترسخت ملامحها بدقة في ذهني، فلم أحفظ تلك الملامح في ذاكرتي كما يجب، حينها كانت المصادفة خاطفة، فلم أتذكر منها سوى البرواز الخارجي للشكل والجسد، أما تفاصيل الدقيقة لمحتوى اللوحة فكانت غائرة بفيض الألوان والسحر المشع في مفاتنها، وذلك لبعد المسافة بيني وبينها، كأنها غطت ذاتها بملأة الجاذبية والفتنة فأنتشى السحر على كل الجسد.

كما أن الحالة التي جمعتني بها كانت آنية، دون تخطيط، عبارة عن صرة تفجرت بصدفة الحدث، عبارة عن صفقة خيالية تقاسمنا فيها النصيب، المسافة والخجل كانا عاملا ممانعة وتأمل بالنسبة لي، لذا لم ينصب تركيزي على ملامح الوجه بالدقة التي شاهدتها في المرة الثانية.

تلك الحالة انتهت بانزوائها بين موجات الطلبة المتدفقة، فلتت عن عدسة النظر، أنزوت خلف مدى الخيال، تماهت في سدم الشك كخيط دخان.. تلك الحالة مرت على شبكة الذهن بسرعة البرق، حيث أنقطع التواصل الروحي كانقطاع إشارة المورس بفعل الريح أو الكهرباء، ما أن اخطرت ذاكرتي بفيض تلك المفاتن، حتى تماهت خلف الذاكرة. فتفاصيل المشهد لم تتجاوز سوى ثوانٍ فقط، بها تعشقت بجذورها الذاكرة، لتزرع الشك في قلبي..

كأنها لم تكن فتاة عادية، بل تجسيدٌ لخرافةٍ نسجها الزمن، أسطورة حلت من جوف القصص ألف ليلة وليلة القديمة، تحمل بين طيات جمالها نفحات السحر القديم المتجدد. حيث لون بشرتها الخمرية هو امتدادًا لهالةٍ منسوجة من خيوط الشفق والغسق، يتلاشى غره بابتسامتها، لتبدو اكثر إشراقة وأناقة. ردائها تراشق صور بين العتمة والأمل، بين الحلم والواقع، تهجس بها حالة غريبة تسرق الأنظار، كانفجار غامض.

خطواتها كانت ناعمة كنسيم الفجر، تترك خلفها أثرًا كأثر الرمل، فتخالها ككائن خرافي هارب من إحدى الحكايات القديمة، يتجلى للحظات ثم يتوارى عن الأنظار، يترك قلب المتابعين معلقًا بين الحقيقة والوهم. ولولا رفيقتها التي ترافقها، لربما ظننت أنها تجسيدٌ آخر للفاتنة التي استوطنت مخيلتي.

بإطلالتها الجديدة شرعت تتحدى مشاعري، كأنها جاءت تتقصدني، تود أن تكمل مشوار لعبتها معي، ساعية خلف طرق الذات بمطارق الهوى. هجست خلف طلتها يكمن يقينا

يحاول أن يجردني عن عبثي. بظهورها الجديدة كأنها فعلت فعل الشعرة التي قصمت ظهر البعير، جاءت تؤكد لي رغبتها في تكملة مشوار سعيي معها، سقت الروح من نسائم مفاتنها فجددت أحاسيسي ومشاعري في أعماقي، أرقت الذات بتناغمها المرهفٍ الدائر بين شعبي وشعبها بشيء من الوله والتحدي. حركت المياه الساكنة ما بيني وما بينها.

بإطلالتها الجديدة، كأنها كسرت جرة عفويتي وتحفظي، فتبدى زلال الظن ليشكم اصابع القدم بيقين دفئها وحرارة عذوبتها وعدوانيتها. كأنها تقصدت أثارة حفيظتي وجزم هيافتي واسفاف ضعف طاقتي، وبالذات حين أزفت بنظراتها تثير أمواج الشبق والرغبة، فأنعكس ذاك الفيض المشع على عاطفتي، فأوقدت فتائل الحب واسرت الحدق.

بإشراقتها الجديدة كانه قد أكتمل القمر، تهادى سليلا في سماء الظن، رفق الشوق باليقين، لاس العفوية بالمظهر. ادركت المشاعر ملاذها ورقة ابتسامتها، وهيَّ تصب قطران الود في كأس الفؤاد، صرتُ أتبع ذلك الهباء كمهاجر بلا عودة.

ما أن اجتازتْ مفازة الروضة الوسطية، حتى شاغلتني بعطرها وضياء وجهها، كأنها شعاع شمس يتسلل برفق بين أغصان الأشجار. لمحتها تنزوي بين نواهد الورود المسترسلة كقنديل يجذب الفراشات لأنواره، هكذا تراقصت العيون على أنغام سحرها. بقيت التجاذبات بيننا على اشدها، ما أن تغفل عني لحظة حتى تعاود النظر، وكأنها تبحث عن سر اهتمامي بها، عن ذلك الخيط الخفي الذي يربط أفكارنا ويجعلها تتخاطر بلا كلمات. تلك النظرات كأنها موجات بحر تتردد بين المد والجزر، لا تهدأ ولا تستكين. هكذا حقنت مشاعري بإبر

مشـاعرها حتـى تيقنـتْ مـن إعجـابي بهـا، وتيقنـتُ مـن تخـاطر أفكارنـا، وكأننـا كنـا نكتـب سـطورًا مـن قصـة لـم تكتمـل بعـد، لكنهـا تتشكل بيننا ببطء كقدرٌ لا مفر منه.

... كانت أكثر هنَّ إشراقة ونفحة وعذوبة. رغم بروق شعل زميلاتها، إلا انها بسطوعها وألقها غطت على جمالهن، الوحيدة التي شدت انتباهي وسورت حلامي بمفاتنها، تمكنت من شذب شعيرات الود بسهام نظراتها.. بالأحرى؛ الوحيدة التي أنثل سحر مفاتنها على حدقي كرذاذ المطر، أمتد عصف البهاء لآفاقي، استحوذت على تخوم الفؤاد وشعب الذهن ومغانمه، هجست بها قمرٌ يدور في فلكي.

لم أدرك لحلمي قرار قط، عشت أياما في سكرة من أمري، ذاوٍ في بوتقة السحر المستتب في قوام الجسد، ذاو كاللون في شكي وتكهناتي، مشتت الذهن، ازحف نحوها كسيل الماء دون يقين من مجرى السيل يدرك شاطئها، غير مصدق ما جرى في مشواري من مشهد.

لم أدرك قدري المعنى لأتكئ عليه في تكملة المشوار، هجست به تراخى وانكدر في اعماقي، تلاشى كالدخان في خاطري وذلك لهاجس الفارق الواضح ما بيني وبينها، ذلك الذي قيد الرغبة بسقم المصير..

صارت الروح تتلقف سهام القدر من بروج عينيها، حتى روضتْ الرغبة بذاتي، لملمت أجزائي المتناثرة، وبسحرها أسرتْ الشوق المتسكع بحدائقها النضرة، أضحت الحالة جدلية بين القلب والفكر في ساحة الإغواء.

كأنها بكيانها فكرة تدحرجت لإرساء القدر، لتنظم كلماته المبعثرة بأسطر أوراقي. غزلت ضفائر العشق بمغزل الأنوثة، فحركت في

ذاتي الهائمة أشياءً نائمة عن أماكنها، لم اختبرها فيما سبق، أشياء مخزونة في بوتقة الظن والوجدان تمثل عناصر الرغبة والشخصية والشهوة. هكذا صاغت رغبتي الجامحة بإشارة من حدقاتها الملظة.

يبدو الأنسان في منهج حياته مسيرا أكثر مما أن يكون مخيرا بها، خاصة في ما يتخذ من قرارات مصيرية، جريئة، تخص القلب والرزق، تحدد له مسارب الحياة، وبالذات فيما يخص العاطفية منها والمصير..

قد يعيش الأنسان حياة مملة، قاطبة، لا رونق فيها، قد يمتد بوزنه بعيدا عن حدود غاياته، كالجاه والغنى دون استقرار وهدوء فكري، وقد يمتطي فرس حلمه، فيتسلل عبر كوة الفطنة لواقع الرغبة المجنونة، فتتراءى له الأشياء الراكدة أمامه أقمارا تنير دربه دون أن يدركها... هكذا يجد حظوظه تتبعه كشهب تخرق حواجز حياته، تفض سره دون أن ينتبه ودون أن تصل تلك الشهب لقاع ظنه - بذلك يبقى قدره قائما في فوضى الحياة دون أن يدرك المصير المراد.

الحقيقة الساطعة أن كل من يتبع مجرى سعادته، يهجس بها لغزا محيرا عند الآخرين، حيث يجد نفسه تركض خلف سراب من الشك والغموض، لن يلتمس ضفائر تلك السعادة إلا إذا تعففت الروح وتمسكت باليقين. وقد تكون سعادة منقوصة تترتب على حساب تعاسة الغير، حينها لا تبدو له كشمعة، سرعان ما تنطفئ نارها.

وأنا بذاتي أعشق الفتاة خفيفة الظل، اللماحة، التي تنبذ المكياج، ذات الوجه التفح كالكمأة الطرية دون مستحضرات

تجميل خارجية، ذات البشرة الخمرية الصافية الناعمة كسطح الماء، تلك أعتبرها جوهرة الحياة أهمُ بالاحتفاظ بها.

ففي كل المواقف يبقى الأنسان سيد نفسه، وقد يجد حظا بين أدراج الحياة، وقد ينام في سبات صمت طويل بين الجد والجلد، ولن يقبس نور سراطه رغم المثابرة والسعي، وقد يحط على وتد المصير كطائر مهاجر دون اختيار، وقد تطرق ذهنه فكرة تقوده لبر الأمان.

أحيانا تتحف ذاتي فكرة أظنها حقيقة، دون أن أدرك أنها طيف خيال- وأحيانا تتراءى لي كضوءٍ داجٍ يسري في دهاليز ظني، دون أن أدرك أنها الحقيقة.

والسعادة هي لغة من ودق الأماني، تتفح أوراقها في باطن الرغبة حتى تبدو كفاكهة ناضجة. تلك هي مرحلة التناغم مع سلوك الفرد وإفرازات القدر، وقد تسوق المُعنّى لحالة التوحد والضياع إذا ما أفتقد سر الجاذبية وعصف النشوة.. هكذا صارت الأفكار تنسل من بعضها البعض، أسعدُ حينا وأضجرُ حينا، حسب تأثير ترنيمة وتر الحالة على الذهن والقلب.

كنت قد عشتُ طفولتي مثل نبتة ولدت في أصيص حلم، في بيئة عذراء، تحيط بها الأضواء من كل صوب وجنب... وحين كبرتُ وجدتُ نفسي غصن أجرد في بيداء ظني، يبست منابت الفِكَر وهي براعم صغيرة، شف ريق الشوق مع ارتفاع شمس العمر، غدت الحياة في عرفي طبق مليء بالتناقضات.

لقد تهتُ بين حالة النضوج والفتنة المراقة بين سنين العمر، بين وحشية الزمن والمنة التي أهواها، صرت أرى خطوط

القدر كطيف يتماها بين وقع الصمت الدائر في ذاتي والسكون العائم من حولي، متأملا أن أرتقي بالذات لمصافي الرجاء. تلك الارهاصات جعلتني اتبع تلك الفتاة.

ما أن رأيت تلك الفتاة وهي تشهق كزهرة الصبح؛ حتى ارتعشت أوصالي، تنملت الاطراف، غصت النفس في ترجمة النظرات ونطاط الفكر، من لحظتها أدركت بأنَّ قدري سيقَ لفتنتها أو تلبس بها دون إرادة مني، قبع في سلة الشوق يسنُ لها سهام الود، وتسنُ له سهام الجنون.

من لحظة سقوط شلال سحرها على حاجز نظري وأنا أشعر بذاتي كالسمكة مزهرة، لا تعرف الاستقرار، كانت تروم الخروج من صرح الجامعة بصحبة صديقتها ذات الملامح الكورية، عندها دق جرس الإنذار في خاطري، نبهني إلى ضرورة الاهتمام بتحف تلك الفاتنة ومعانيها النادرة، والتي تخطت بها عناوين الجدل وبراويز الإعجاب، لعنوة الجذوة والجاذبية التي تتملكها.

كان قد تحرك ذاك النزق البليغ من الود مع انعكاسات ضوء مفاتنها، فحرك المشاعر عن موضع السكون لرواق الصخب والتأمل، انساقت غايتي خلف تلك القامة وهي تتمهل أمامي بخطوات رفيفة بين الوسط الأنثوي كطائر الطاووس.

شبهتها كزهرة الزعفران مبهورة بضوء الشمس، تزاحم جملة الورود المسترسلة من حولها، تهفو برقتها وبنبوغ ثري من اطلالتها بحيث بسطوتها فاقت قدراتي على التبجح والصمود.. بقميصها الليموني بانت كزهرة فاقع لونها تسر الناظرين، جذابة، مذهلة، بحيث من نظرة جانبية كانت قد أوقدت ذبالة

الجنـون فـي خـاطري، جعلـت جـوارحي تصـيخ شـوقا وتنـزف آهات بها، عتت الروح في مساربها.

كأنهـا حـين ولجـت فـي مسـراها متجهـة لبوابـة الجامعـة، رمـت بحجـر سـحرها فـي مسـتنقع أفكـاري، فصـنعت فـي ذهنـي دوائـر رغبـة وأمـواج حيـرة وفوضـى، جعلتنـي اتخـبط بمشـاعري وأحاسيسـي، صـار بعضـي يعـض بعضـي، مقيـد بـدارة ضـمت لا تنفـك عـن ذهنـي، لا تحيـد عـن نـزق الرغبـة التـي انتبـذت فـي جواها..

مـا فتئـت بـدأت تلـك الـدوائر تكبـر وتكبـر الحيـرة معهـا، حتـى طغـت علـى كـل هواجسـي بشـيء مـن العبوديـة والاسـتحواذ والاسـترخاء، بحيـث تربعـت علـى جـوارحي دون ملـل أو كلـل، ودون إرادة منـي وأنـا اتبـع تلـك المبـاهج بشـيء مـن العجـز والوله.

مـن يومهـا بـدأت أتـابع أخبـار تلـك الفاتنـة، أبحـث عنهـا فـي جـوف المسـتحيل، بـين الأنـا والغايـة، أبحـث عـن أيـة قشـة تعرفنـي بأسـرارها وتقربنـي مـن غاياتهـا، أبحـث عـن خبـر يسـتقرأ بياناتهـا، عـن نطفـة فـي جـوف القـدر تشـهق بـذكرها، عـن أسـرار تتعلق بها وبصفاتها.

بـت أسـأل ذاتـي والـذوات القريبـة منـي، والمعنيـين، وغيـرهم فـي كل مـا يخصـها، فـي سـبيل التعـرف عليهـا عـن كثـب، علنـي أركـن قـارب الشـوق فـي شـواطئ بحرهـا الطـامي، والـذي تـراءى لـي قريب جدا من قدري.

بت أبحث عن مفاتيح للغز، عن نمط ما يصفها في طريقي، عن سر النجوى والأرق وأنا أتبع ظلها، عسى أن أصل لثنايا تلك الشواهد القابعة في مرفئها.

لم أكن اشعر بهيافة أبدا، طالما صدقتْ الإشاعة التي اطلقت عني، بأني قد مسني جنون هواها؛ فلم لا أكون مجنونها ومحور غواها، لِمَ لا أكون مهاجرا في عالم أنوثتها، أبحث عن تحف المفاتن في جسدها، عن سعادة تكيل أحلامي لرغبة ملموسة لديها.

كثيرا ما كنت أسأل صديقي المقرب شاكر عن أخبار الفاتنة، فيستهزئ بي، ويقول.

- أتركها..
- لمَ يا شاكر؟
- لا تتعب نفسك، لن تصل لشاطئها، وأن وصلت ستقطع أحلامك بشفراتها الحادة. يا حبيبي؛ هذه آفة وأن كنت تحسبها جوهرة، فمداها عميق جدا، ستغرق قبل أن تصل لقاع أنوثتها. أنصحك كن بعيدا عن شفيرها....
- لِمَ تحد من عزمي، وتكسر مجاديف سعيي؟ هذه الزنبقة فتنت جوارحي، أطبقت على مهجي، سحرتني بفسيفساء ألوانها البراقة. هي أشبه بظل ترافقني، تحميني من لسعة الشمس وإغواء الشياطين. هكذا أراها، هاجس يعيش في أعماقي. لا تسيء الظن بها، ولا إليها، قد تسمعنا، تسمع حثيث شجونا، أنها ملاك بهيئة بشر تسكن فؤادي.

ربما تسمع هسيس الشوق في أعماق الروح، هل لك أن تفسر لي لِمَ تبزغ أمامي أينما أكون؟ كأنَّ طيفها يحوم حولي، رغم بعدها وعدم معرفتها بي؟

- أنت خيالي أكثر من اللازم، يتراءى لك ذلك وتوهم نفسك بمحبتها. هذه النماذج لا تَحِبْ، أنها أشبه بالزئبق، لن تستطيع أن تتحكم بمنسوبها، أنها واقعة تحت تأثير زحل والكواكب الأخرى، بعيدة جدا عن عالمنا، وهي تحت مجهر الجميع، الكل يترجى كلمة منها دون جدوى، فاذا ما اختارت فلن تختارك أنت الحافي، الوضيع، لا تضع نفسك في مأزق!.
- صدقت ولكن قلبي لا يرضى بغيرها، يا ترى من تكون؟ تلك الزهرة الفواحة، التي يرتجي شم عبقها الجميع، تلك التي بدل أن تلطف أجواء قلبي، اصطلته بنار الجوى. من تكن تلك الكورية التي تسايرها، ألا تعرف شيء عنها؟...
- يقولون أنها ليست من كوكب الرض، أنها لغز محير في عالم الأنوثة، دوخت الجميع، ذلك الذي فهمته من تحليلي وتحليل غيري.. ثم أنك ماذا تريد منها؟... قل لي يا دون جوان؛ إلى أي مدى سحيق تود أن تصل في جريك المتعثر خلف أجمل فتاة في الجامعة وأنت خالي الوفاض، خالي الجيوب؟ هذه الساحرة لو أحبت؛ ستحب لمصلحة دفينة، لا لرغبة حقيقية. هذه امرأة من حديد، لن تهزها عواطف شفافة، لن ترضى إلا بشخص ثقيل الوزن، وسيم، يصرف عليها دم قلبه.. لا أن تصرف عليه دم قلبها.... ألا ترى كشختها وأناقتها، أنها في كل يوم تتأنق بلباس جديد. هل أنت قادر على

تحمل مصاريفها؟ هل أنت قادر على تحمل مصاريفك الشخصية البسيطة كي تبحر في بحرها؟ حتى أنها تركت الزي الموحد.

- صدقتْ.. لكني في ورطة، لا أستطيع كبح جماح تفكيري بها ولا أمنع رغبتي عن هواها. أهجس بعصف هواها القوي اجتاح أشرعتي..... يا شاكر؛ صدقني أمر تعلقي بها قد خرج عن إرادتي.. أحيانا أشعر بنفسي ثور هائج لن أستطيع أن أكف جماحه، أو أمنعه من المضي قدما في سراطه.
- لا يا صديقي العزيز؛ أنت لست ثور بل حمار لا يعرف قدر نفسه، لا تجعل للوهم سلطان يغلبك، أنصت لنصحي، عليك أن تسعى في نسيانها، إنساها الآن، وأشغل نفسك بأمور مفيدة كالمذاكرة.

بعد تلك المحاورة تركني في غيي أصارع رغباتي الجامحة، فبقيت أعيش في دوامة الصراع، بين مؤيد لرأيه وناكرا لنصحه، حيث تختلف نظرة المراقب عن شارب ندامة كأسها كليا، كلٍ منحدرٍ في تيار يختلف وجهته. والحقيقة كلامه معقول وصادق ولكن العاطفة غبية لا تفهم الكلام، تنحدر خلف الضوء كالحشرات. يا ترى؛ ماذا أفعل، أن كانت عصبت عينيَّ عن باقي الفتيات؟؟

4- الذي لم أكن اتوقعه

بصراحة، شعرتُ أن الغيرة تتراقص بين كلمات صاحبي، كأنها ظلٌ خفي يتسلل بين الحروف، ينسج حولي هالة من الجمود، يحاول أن يثنيني عن متابعة رغبتي بتلك الفاتنة، وكأنه يسعى لإزاحتي عن مسرى طريقه. لم يكن نصحه سوى مسمار صدئ غُرز في لوح قدري، يترك على جدرانه أثرًا كظيمًا، كنقش الزمن، بلون الجزع، لامس خاطري بحدةٍ لا تهدأ.

كانت كلماته أشبه برياحٍ تعصف بأشرعتي، تحاول أن تغير مساري، أن تدفعني بعيدًا عن ذلك الضوء الذي شدني، لكنني بنباهتي كنت قد تجاوزت نصحه وتمسكت بمجازفتي، حيث دائما ما أتذكر تلك الحكمة التي تقول – فاز باللذات من كان جسورا- وكأن القدر نفسه كان يختبر عزمي وصلابتي، فيفسح لي المجال للمضي قدمًا نحو المجهول.

لم أشعر بنصحه بلسم جراح قدر ما هجست به مفتاحا لها، كأنه أصاب أحلامي البريئة بوعكة برد – عبارة حاول أن تنسى – تلك العبارة لثقلها أشعر بها كطعنة خنجر في الظهر قوضت تأملاتي، أصاب بها الصميم بالنزف، لأنها كلمات تحمل حروفها نزق العزوف عن مجرى الروح، نزق تأنيب الخواطر وتأليب الذات العاشقة عن وتين القلب. فإن كان صادقا في نيته معي؛ فنصحه لا يعد سوى بلسم جلدي لا يداوي جراح الفؤاد العميقة، لن يكن له تأثيرٌ جدي على خلايا الجسد الملتاعة بلواعج الهوى.

كـي أتمكـن مـن نسـيانها ونسـيان أمـر الحـب الـذي غـرز اسـافينه فـي حشـا الفـؤاد؛ كـان يجـب علـيَّ أن أفتقد الكثيـر مـن الـذاكرة، أن أتعـرض لصـدمة كهربائيـة جديـة تغسـل خلايـا المـخ مـن القشـور والشـخابيط الملتصـقة بجـدرانها وتعيـد نشـاطها... ألـم يقولـوا بـأن الحـب أعمـى؟ والحـب يتكـور مـن نظـرة؟ الـم يقولـوا بـأن الحـب لا سـلطان عليـه ولا حكمـة تقـوده؟.... إذا دعنـي أنغمـس بـذلك المسـتنقع مـن العـذاب والشـجن؛ حتـى أطهـر الـروح مـن رجـس الشـيطان. دعنـي أبحـر عبـر الخيـال إلـى جـزر الصـمت المتنـاثرة، لأسـتمتع بصـخب الفجـر وهـي تنفلـق فـي جـوف المتـيم بأضـواء عـابرة، دعنـي اسـتمتع بسـكون المسـاء وسـاعات السَـحَرْ السـاحِرَة. دعنـي أتحسـس القشـعريرة البشـرة، لأرسـم لـذاتي صورة من ألوان الحياة تذكرني بلحظات الجنوح الجائرة.

إذا لا يمكـن تخطـي حـاجز التكـوين الـذاتي بكـل مـا لـه مـن تجاذبـات وأصـداء بعـد أن تجـذر الحـب فـي القلـب. تلـك العاطفـة التـي تركـت أثـرٍ فـي مسـارب الشـوق، نغـزت المشـاعر بأصـداء الـود مـن حيـث أكـون أو لا أكـون. لا يمكننـي نسـيان نفسـي الآنيـة الجانحـة بحكـم تسـلط الظـرف علـى السـلوك العـام! أنهـا معادلـة تخـاطر وتواصـل أبجديـة بـين سـالب التكهنـات وموجـب الوقـائع، معادلـة تكـاد تكـون صـفرية تـؤدي إلـى اسـتقرار وتـوازن الـذات والفكـر فـي مـدارات العاطفـة. أي إذا خضـعت لنصـح صـاحبي فعلـيَّ أن أحكـم علـى نفسـي بالفنـاء، لأتخلـص مـن عـبء المشـاعر اللاذعـة، كـي أحيـد قـدري عـن سـحر وجمـال تلـك الصـبية الناصعة.

لـم يـدرك صـديقي الـوفي بـأني قـد أصـبحت جـزءا مـن صـيرورة حالـة ميـؤوس منهـا، موضـوعة تحـت المجهـر والأضـواء

الكاشفة، كالمدمن على الخمر الغاطسُ في غيه، لا يدرك جادة الرجوع، وإلى أين يمضي به ذلك المسرب في هذه المتاهة الشاسعة..

افتقدتُ التركيز، كأنني أغرق في متاهة لا جدران لها، أسير فوق خطوط غير مرئية، تتداخل بين صفحات الغد دون أن ترسم لي ملامحه. أهجس أنني نقطة معلقة في فضاء المعاني، لا أجد موضعي، فلا تكتمل الجملة ولا يتضح المغزى. أضحت الأيام شائكة، مبعثرة بين النقط وفواصل الكلمات، كأنني أبحث عن كيانٍ يثبتني وسط هذا التيه المتناسل.

لا أثر لبصمة القلب على خرائط الغد، لا نقطة ضوء ترشدني نحو يقين واضح. بل أكاد لا أرى في الصفحات سوى ظلال سوداء تتراقص في الأفق، كطلاسم غامضة تحذرني من متاهات لا تُكشف، من خطوات تأخذني إلى مصائر لا أعرف إن كنت سأحتويها أم ستبتلعني.

وفي وسط هذا الغموض، حين أتذكرها، تتبدّل الرؤى، وتهمس لي الخطوط بأسرار مكنونة، كأنها نافذة تفتح لي أبواب المجهول. تحكي لي قصصًا عن نزوات متشابكة، عن طرق ملتوية، عن معابر محفوفة بالغموض. لفرط التفكير بها، أجدها شذرةً لامعة في كل صفحة، نقشًا على هامش العمر، أو جملة غزل تتوهج على منسوب الذاكرة.

كأنها تخفي بين السطور مفاتيح قدرٍ لا أجرؤ على كشفه، تتوارى بين الشك واليقين كمارد يراقبني من وراء الحروف، يهمس بما في خاطرها دون أن يُبدي عطاءه.

أحيانا أشعر بها تعاتبني، تأنبني، لأني لم أتبع سرها كصفة السحر المغروس في ثناياها، أنما كمن يحاول أن يجني الورد من بستانها. حين يمر بيَّ طيفها، يمر كلحظة مارقة، تتسامى في ملكوت الخيال الذي ينطوي على صور من الدهشة والأبداع. هكذا تبرق في أفق الخيال كاللحظة، تتماها في سدم الأعماق، لا اتمكن من تتبع أثرها وسرها.

أحيانا أهجس بها تختبئ في ظل الحكايات كما تختبئ اللحظة في جوف الزمن، ذلك الهاجس يراودني، يهاتف قلبي، يحرك المشاعر نحوها، يوافق ظني، كأني الموصوف بها وهيَّ الموصوفة بي بمجمل حكاياتي، فأتمسك بها تمسك العاشق المجنون بمحبوبته..

النقطة السوداء التي أود أن أمحيها من لوحة تأملاتي هي الغموض الذي اتصف به حين أقابلها والتقيها، حين أكون كالشاخص، كالجماد أمامها؛ لا أستطع أن أبوح لها وأصرح لها عما يجيش في خاطري. تلك النقطة معلقة في أردية سلوكي بقوة غراء القرية.

لم أجهد ذاتي في مجاراة سعيي بشكل جدي، أو بالأحرى أشعر بذاتي مكبلة بقيود لا أعرف ما هي، ومن أين تحل ببدني وفكري، بحيث تقيدني في مسعاي كلما أتحرى عنها، تلك التي تمنعني من تتبع خطواتها ومعرفة مطارحها، كأن الخجل لون لابد في شخصيتي، وهو سبب كل العراقيل الدامغة، هو الحاجز المنيع الذي يحيدني عن مواصلتها.

لم أسعى على كشف خفايا الصمت المطبق الدائرة بيننا، فتلك النبضة الخافقة من سحر الدهشة، والمثارة بيننا، ما عادت تفي

بـالغرض، حيـث لـم أجـد لثرثـرة الـنفس شـطط وفـيض فـي الجانـب المقابـل لترفـد عشـقي بالأمـل، لأتمكـن مـن مطاردتهـا وإغوائهـا. بـل أنـي لـم أسـعى للحصـول علـى مـا يجـب الحصـول عليـه.. نعـم لقـد مـررت بمطبـات فشـل ومـرار وحـزن، لكنـه لـم يكسـرني ذلـك ابـدا، لـم يكـن كهفـا أعتكـف فيـه، بـل جسـرا أعبـر عليـه إلـى مـآربي. إذا كنـتُ قـد أخفقـت يومـا؛ فـذاك لا يعنـي أن الشـغف فـي داخلـي قـد طفئ، فالفشل ليس نقيضاً للحياة بل جزء منها.

الحـب لا يحتـاج لمثـابرة وعنـاء كـي يسـطع، فهـو ينحـدر لمعنـاه دون كلـف. فمنـذ أن لمحتهـا أول مـرة بـدا شاخصـه يتـراقص أمـامي ويتكـور فـي ذهنـي مـن تلقـاء نفسـه، مـن النظـرة الخاطفـة، مـن اللمحـة المارقـة، مـن الأحاديـث التـي أسـمعها عنهـا هنـا وهنـاك، مـن وصـف سـحر جمالهـا وألقهـا. هكـذا ابتـدأ يغـزل خيوطـه فـي جـوف القلـب ويرسـم صـورته فـي الـذاكرة، هكـذا صـرت أسـمع لـه نغمـة ككـروان يصـدح. وهكـذا ايضـا صـار مسـتنقع عـذاب ولوعـة يحـيط بـي. بقيـت أعـاني مـن تلـك التناقضات حتى حين.

كثيـرًا مـا كنـت أهجـس بصـور العتـاب مرسـومة فـي ملامـح وجههـا، كأنهـا لوحـة تتغيـر مـع انعكـاس الضـوء، تتشـكل مـن مـزج الظـلال، تحمـل فـي طياتهـا أسـرارًا لا تُكشـف إلا لمـن يجيـد قـراءة الصـمت. كانـت نظراتهـا تحمـل شـيئًا مـن الغمـوض، كأنهـا مـرآة تعكس صراعًا داخليًا، يدور في داخلها كدوامة لا تهدأ.

كنـت أشـعر بهـا كحالـة عـابرة، كعـذابات الـنفس حـين تتـأرجح بـين الرغبـة والتـردد، كشـرود يتنـاثر علـى حبـل الهـوى، يفسـر لـي صـراعها الـداخلي، ذلـك التشـابك الـذي ينسـج حولهـا هالـة مـن التـردد، كأنهـا تقـف علـى حافـة قـرار لا تسـتطيع اتخـاذه. حيـث

ملامحها تحمل لغةً لا تُنطق، لكنها تُقرأ، كأنها رسالة مبهمة، تنتظر إلى من يفك رموزها ليكشف ما تخفيه بين طياتها.

كثيرًا ما كنت أقرأ في ملامحها أثر العتاب، يتجلى أمامي كإشارات مبهمة لا تخطئها عين، أشعر بها تمر بحالات متقلبة، يتماوج الشرود في نظراتها، وتنحسر الكلمات خلف صمتها الحائر. كنتُ أراها غارقةً في صراع داخلي، تتأرجح بين الهواجس والرغبات المترددة، وكأنها تحمل بين ثناياها معركةً لا تهدأ بين يقين هشّ وشكٍّ متأصل.

كنتُ أراقب هذا الصراع يتجسد في تعابيرها، ينساب على وجهها كظلٍ يزاحم الضوء، يفسر لي اضطرابها، يرسم لي حكايةً لم تكتمل فصولها بعد، كأنها تخفي في نظراتها أسرارًا أعمق من الكلمات، تتركني أتساءل دون أن تمنحني إجابة.

وأنا على بعد المسافة الفارقة بيننا، كنت أمثلها بالنجمة السوداء أو ما تسمى بالثقب الأسود في سماء عشقي، حيث تمتص اضواء المحيط دون أن تبرق بها ومضة، لشدة جاذبيتها. لم أعتاد على تلك الظلمة السادرة، لم أكن قد أعددت نفسي أعدادا جيدا لإنارة قناديل فكرها وإبهاج حياتها بالسعادة المرجوة. كما لم أعد أحتمل تكدس تلك النفايات من العذابات على متن صدري وقوام صمتها. كأني بها والملاذ الذي يأويني أصبحنا متناحرين بذكر صداها، نختلف على الجد والجلد والصبر والعناء، ونتفق على الصمت والسكوت والقلق والنجوى، دون أن نرتقي لحل المعضلة.

أحيانا أراها قمرا يتأرجح في مدار شكوكي، يبعث ضوءًا خافتًا لا يُكشف إلا حين أبحث عنه بين ثنايا الليل. وأحيانًا تبدو

لـي كزهـرة فاقعـة، تهـادن صـبري دون أن تمنحنـي يقينًـا. وأحيانـا أجـدها عبقًـا يـوقظ رغبـاتي، ثـم يتلاشـى فـي مسـاحات الفكـر قبـل أن أقـبض عليـه. وفـي مـرات تتحـول إلـى شـوكة غامضـة، تختـرق إدراكـي، تجبرنـي علـى التراجـع وإعـادة النظـر فـي كـل شـيء... هكـذا أجـد نفسـي منسـاقًا خلـف ظلهـا، متشـبثًا بقرارهـا، أبحـث عـن المعنـى وسـط التيـه الـذي يلفهـا ويغشـيني، وأتسـاءل إن كنـت أسـيرًا لحضـورها أم حبيسًـا لأفكـاري التـي تصـوغ صـورها بـلا توقف.

لست أنـا مَنْ تباطـأ فـي سـعيه نحـو قـبس الحلـم، أنمـا ذلـك السـعي لـم يتحـرر مـن قيـده، كُبـل بسلاسـل الخـوف والقنـوط والخجـل، فجـزل عنـي عوامـل العـزم والإصـرار، منعنـي مـن أبسـط يـدي لها، منعني من طرق أبواب المجازفة والمغامرة.

يـا تـرى! مـن تكـون تلـك الفتـاة التـي ألهبـت المشـاعر والأحاسـيس فـي بوتقـة فتنتهـا؟ مـن تكـون بحيـث أجبرتنـي علـى ربـط سـري بسـرها؟.. يـا تـرى؛ بـم تتميـز تلـك الشـعلة المتقـدة عـن بـاقي الفتيات، لقد جذبتني كفراشة لشُعلِ قناديلها.....

يـا تـرى؛ مـن تكـون تلـك الشـقية البهيـة، الهيفـاء؟ لتـذل شخصـي وتزيـدني صـمتا ووعثـا وعنـاء؟ تـرى مـا عمقهـا؟ مـا سـرها؟ مـا علاقاتهـا وأبعادهـا؟ وهـل ترانـي مثلمـا أراهـا؟ هـل تتصـف بالنرجسـية فـي غواهـا؟ ..... أحينـا أراهـا فراشـة بريئـة واحيانـا أهجـس بهـا بعوضـة تتبـع غرائزهـا، واحيانـا اراهـا لغـز يكمـن فـي مضامينها.

لابـد مـن حركـة أقـوم بهـا، لأعْلـم طبيعـة فسيفسـاء أنوثتهـا ومـدى تقبلهـا لمجازفـة عابـث يـود حـرق فتيـل قلبهـا، لأعـرف أيَّ الـرجـال

تبغي، وأيهما تود أن يكون الحوذي لقافلة أفكارها... يا ترى! لمن تحتفظ بكنزها الماسي؟ من صاحب الحظ السعيد الذي سيحظى بجواهرها؟ من سيرتدي تاج العرش على مملكة فتنتها؟...

يا ترى؛ لم لا أجازف وأدخل ذلك المعترك بشيء من الصلابة والتحدي؟ لأدخل في فضاء فكرها بحثا عن ذاتي.... في الحقيقة لا يوجد شخص مميز وآخر أقل شأنٍ، أنما المفاضلة تمنح على قدر العطاء والشجاعة والثقة والمرونة والتقوى، فالإنسان هو الذي يكون ذاته ويصنع الفرص.

يا ترى؛ من يتجرأ كسر حاجز الخمول، في الوقت الذي به تذوب الفكرة في وصف محاسنها، علمني الزمن بأني لن أبلغ حدود الغاية إلا إذا أصبحت فراشة تحترق بقنديل فتنتها.

كنت في أوقات العزوف والوحدة قد عودت ذاتي على التسبيح بمفاتنها، أن أختال ذاتي بسيف تلك المفاتن وفي داخلي أحمل لها شيئا من القدسية، صرت اذكرها أكثر من ذكري للرحمن، أستبيح شواطئ الصمت بشرود أفكاري، أبحث عن أثر الود بين رمال البحر.

حين أجلس أمام الموقد اتحسس دفء الجلد، أتخيلها موقد صبر، فأبدأ بتصفح معالمها، اقارنها بعبثية تطفلي وعنادي، هكذا اشعل فتائلها وانا مقيد بطوق السلوك والغرام، مجرد من الفعل، استقرأ الأحداث عن بعد، علها تشعر بالفؤاد وهو يخطل في مشييه في ميدان الوله. حيث الفكر لن يهدأ طالما هناك ضوء يصل من قبس عينيها. تحت تلك القوى من الجاذبية أبقى أدور كالرحة في دوامة الشوق، أبحث عن

دهاليز الأمل، عن أجوبة مقنعة تزيد من صلابتي أمامها، تثبت قدراتي أمام طاقتها، تجيب على الأسئلة الدائرة في خلدي.

يجب علي أن أتحرك قبل أن يحين المساء ضمن المسافة التي تفصل بيننا، لا أود أن أكون فراشة بريئة تستهويها الأضواء فتحترق مع أول تلامس حقيقي، فللفشل ذاكرة مرة لا يمحيها الزمن.

منذ أن بزغت شمس تلك الفاتنة في سماء حياتي، لم أعد اشعر بالهدوء كما كنت على سجيتي إطلاقا، وكأني زجاجة تفرقعت بفتنتها، فتناثر هشيم بلورها في الطرق كعذاباتٍ الصبر والعناء، بقيت أعيش تلك الحالة وأنا غائرٌ في متاهات الصمت، شارد الذهن، محاولا أن أجمع شتات نفسي المنهكة بين انعكاسات وانكسارات تلك الصور المتداخلة بين الظن واليقين، عسى أن أفق من الصدمة، أن أعين ذاتي على جلدها.

بقيت على شاكلتي مترنحا بين موجات الصبر والشجن، لا أستطيع أن أبرح موضعي دون أن أتسلح بيقين يحرسني من همجية القلق. صرت كبيادق الشطرنج لا تتحرك إلا بأمر. لأني في الوقت الذي أتغنى بها واتأملها، أهجس بها لغمٍ يتعقب مآربي، لأنها في نظري ليست امرأة عادية، أنها تختلف عن نساء المجرة بصفة الفتنة واللذاعة!

صرت أكلم نفسي بطيش، محاولا استعادة ثقتي المنفلتة، علّي أكون على قدر المحاولة..

يا إلاهي أشعر بالمسافة تتسع بيننا، امتدت إلى حيث مستحيل التلاقي، أضحت الهواجس والرغبة تغرق بفيض وجل مشاط في الذهن.. فالعلاقة من وجهة نظر أكبر من أن تكون علاقة حب عابرة، أنها حرب ضروس بين العزم والإرادة، بين قوس المحاولة وجدار الفشل- تلك العلاقة لم أطرق بابها من قبل، كلما أحاول أن أقترب من الحلم خطوة؛ تبتعد عن مبتغاي بذات الخطوة؛ فيشتد أوار الوجد والحسرة في القلب...

حين تتبدل أجواء الظرف، حين تكون في بيدائها تنتظر مطر الشوق؛ يتملكني الرعب، فأصاب بهشاشة العزم وهوان الجبن.

أنها حرب من نوع آخر لا تشوبه شائبة، صراع بين سيف الأنوثة وعصا الرغبة الجامحة في رجولتي. في ظني تنقص قائمة محبتي مسامير عشق يجب أن أثبتها في عرش الأنوثة لتثبت، تنقصني المجازفة والعبثية والمزاجية، فأنا لست بالغني المتمكن ولا بالوسيم الماجن ولا بالذي جلدته التجارب. الحرب تتطلب أسس ودعائم نستند عليها لتثبت في ميدان الصراع، لنتمكن من تجاوز المبتغى، ((وأعدو لهم ما استطعتم من قوة ورباط الخيل)) صدق الله العظيم....

تنقصني الثقة بالنفس واللياقة واللباقة في الحديث، لم أكن واثقا من قدراتي الآنية، لم أكن مدركا ماهية تلك الأفعى المتسلطة على رقاب الكثيرين من على شاكلتي، لكني كنت مستعدا أن أواجه العالم وأحارب من أجل مراضاتها. بعرفي أخاف المجازفة والفشل، أخاف من أن تحيل صبري لكومة رماد تحت قدميها، لفقاعة لا أحتمل شوكة الزمن.

مضت الأيام تلوك السحر في باكورة قدري، جزلتني لعجينة من العقد، حورت طاقتي الإيجابية لطاقة هجينة لا أستطيع السيطرة عليها، قلبت موازين القوة، بدّلت الصبر إلى تردد، والعزة إلى هشاشة، كأنها تعيد ترتيب كياني وفق معادلة لا أفهمها. عبثت بإمكاناتي، نثرت قدراتي كذرات في مهب الريح، فتّت كل شيء جميل في داخلي، كأنها تعيدني إلى نقطة البداية، حيث لا يقين ولا ثبات، فقط عبورٌ مستمر بين التحولات التي لا تهدأ.

بت أتقلب وأتغير باستمرار مع درجات الحرارة المرتفعة بيننا، مع تحمل مرارة الصبر العالقة في لساني، أضحيت أكثر انطوائيا عما كنت عليه، أكثر بعدا للنظر، تجردت من الضحكة والفرفشة العابرة، صرت كآلة الكاشير أحسب هفواتي وأحاسب الذات على نزواتي ومدى تقصيري، شغلتُ مخي، بت اتخطى حساب الزمن.

في نفس الوقت صار شكلي الخارجي أكثر أناقة ونظافة وترتيبا، لم أعد اترك ربطة العنق التي كنت أكره لبسها، لم أعد أرتدي بناطل الجنس، تعلقت بالأناقة من الزي الموحد والبدلات الرسمية، تغيرت تسريحة شعري، بت أتبع الموضة الجديدة أينما تحل، أتبجح بنظارات شمسية في الطرق...

لم أخطط لتلك الثورة التي اشتعلت في داخلي، جاءت كطوفانٍ جارف، أزاح الركائز القديمة، أعاد تشكيل الذات. بتُ أتنفس الفكر والأدب، أتسم بالشعر والفقه، كأنني أنتمي لعالمٍ تفيض فيه الكلمات بالحكمة. تحولت العفوية إلى رصانة، والمشاكسة إلى اتزان، وكأنني ألقيت بتلك الظلال التي كانت جزءًا مني في بحرٍ بلا قرار، تركت خلفي سجال الهوى وجعجعة

السياسة، أفرغت عقلي من صخب الجدل، وغسلت روحي من عنادٍ كان يثقل خطاي. كأني كنتُ نهرًا متدفقًا، ثم تحولت إلى بحيرة هادئة، تحتفظ بعمقها لكنها تفقد بعضًا من حركتها العفوية.

لكن لهذا التحول ثمنه؛ حيث فقدتُ تلقائيتي، تلك اللمسة التي كانت توقيعي في أعين الآخرين، أصبحتُ كمرآة صقلتها الحكمة، لكنها فقدت شيئًا من بريقها. وبين هذا الفقد وذلك الاكتساب، بقيتُ معلقًا بين روحٍ نضجت، وشخصيةٍ تشتاق لماضيها دون أن تستطيع العودة.

بصريح العبارة قومتني، قومت ذاتي، صرت مثاليا في تصرفاتي أكثر من اللازم، حتى وجدت ذلك في عيون زملائي وفي عيون بنات حواء حين كنَّ يلاذعنني بنظراتهن الشفافة وألسنتهن الحادة- مثلما لُذِعْتُ مرارا من صاحبي شاكر حين كان يرمي خواطري ومشاعري بسهام تطفله الحادة...

حيث كان يقول:...

- أراك اليوم منمقا، متألقا، تتبختر في مشيتك كديك رومي، عساك أن تلفت نظر الطاووس إليك، أذكرني إذا فلحت، فأخوك أصابه الظمأ..

وهكذا دواليك من عبارات فيها غز واستهزاء ولون عبث وغَثاثةً أكثر من أن تكون فيها مزح وصدق وعفوية..

لا ادري كيف أصف نفسي، اراها حمامة تسعى خلف صقر، يا ترى؛ كيف ستلتقي اللطافة بالقسوة ؟..

5- الفتاة الكورية

كي أختصر الطريق وأصل لمبتغاي؛ كنت قد فكرت الاتصال بالفتاة الكورية التي تصحبها، أقصد تلك التي لها ملامح الفتاة الكورية من ناحة الشعر وتقاسيم الوجه، أجدها انعكاسٌ آخر كظلٍ يتبعها. أو جسرٍ يقودني إلى الغاية المرادة. مفتاحٌ مخفي لفك العقد، قد تفتح لي بابًا نحو المجهول الذي أبحث عنه.

دائمًا أجدها برفقتها، كأنها نديمها، دليلها، ظلها الذي لا يفارقها، تتناغم معها في خطواتها، تسايرها في مشاويرها، بل هي جزءٌ من عالمها الذي لا يُكشف عنه إلا لمن يجرؤ على فك رموزه. قد تكون الوسيلة الأنسب لتغير مسار الرحلة بأكملها؟

لذا فكرت أن أستعن بها، أن أجعلها سلما لمبتغاي، علّي أربط محاولات فطنتي بسيقان تلك الآية التي اتمناها، علّي أصل من خلالها للغاية المرادة.....

في الحقيقة كنت أشعر بالغيرة منها، أحسدها لتماسها الدائم بتلك الأناقة والجاذبية، حتى أني لكثر ما تمنيتها تمنت ذاتي أن تكون أنثى؛ لأكون لصيقة وصديقة لتلك الجميلة، تمنيت أن أصاحبها، أن التمس بشرتها، أن استمتع بحديثها وحركة شفاهها وهي تنطق بالدرر، أن أستنشق عبق عطرها وأذوب بالرقة والين الذي يركبها..... لذلك فكرت بأن أستعين بتلك الحورية التي تتقد بجوارها كالشمعة، علّها تزيح عن صدري العناء الذي يؤرقني.

ربما تلك الفتاة ليست محظوظة إذا ما قارنت فتنتها بفتنة فاتنتي، ربما لم تكن كذلك، ولا تفكر بالمقارنة، حيث السحر والجمال ليس لها قواعد ثابتة، أنها حالة نسبية تختلف من شخص لأخر، لذا قد تكون الكورية أجمل من وجهة نظر غيري، أو من وجهة نظر صديقاتها أو من وجهة نظر صديقي شاكر. لكنها كانت كذلك من وجهة نظري الشخصية، فوجهة نظر العاشق تختلف عن وجهة نظر العالم أجمع، لأنها تغوص في أبعاد مشاعره الدقيقة حيث لا يصلها أحد، ولكن هناك حالة خاصة تجتمع عليها وجهات النظر، أقصد الخطوط العامة لقياس الجمال.

وفي الواقع الفتاة الكورية ليست قليلة شأن طالما قد أُختيرتْ كصديقة من قبل تلك الفاتنة، ربما هي الأخرى مرتبطة بشاب يعتبرها دنياه وآخرته، فلا تفكر يا هذا تفكيرا سطحيا، فتذكر بمقدار قامتها وهي تقف إلى جوارها، وذلك للتدفق الأعمى من المعجبين بهن.

كنت قد ركزت على ملامحها جيدا، على قامتها ولون شعرها الداكن المائل للسواد الفاحم والسارح بنعومة على الكتفين كشلال أدهم من الليل، تهف به نسائم الهوى. أهجس بشعرها الحريري يترقرق بالجاذبية، ذات لمعة ككرستال يبرق تحت وهج الشمس، كما لفتنة الجسد والوجه نصيب من الحسن والألق، تلك الفتن قد تعادل فتنة فاتنتي من وجهة نظر غيري. فالفتاة الكورية تتميز بنحافة الجسد الممشوقٍ وكأنَّه غصن بان طري وهي تتهادى بمشييها إلى جانب رفيقتها الممغنطة بالجاذبية، بحيث تمضي اللهفة إليها مع تأملات القدم، إلى حيث يرهف المسير.

لغرابة تقاسيم وجهها ونحافتها وطراوة شعرها، تهجس بها بتكوينها الخارجي تشبه فاتنات الجنس الكوري، ما جعلني أبعد الشك من أن لا تكون من سلالة كورية الأصل، رغم مسحة السمرة الشفيفة اللاذعة التي تغطي بشرتها، حيث الكوريات وبشكل عام وكمعظم القاطنين في جنوب شرق آسيا يتصفنَّ ببياض البشرة المائلة للصفرة وبصغر محجر العينين، لذلك تسمى آسيا بالقارة الصفراء.

ولغرض شخصي كابد في أعماقي ودون إرادة مني، حفظت تلك الملامح على ظهر القلب دون أن أقصد، علّها تكون تلك العصا التي أتكأ عليها خلال مشواري القادم.

عَلقتُ تلك الصور في ذهني وصرت أبحث عنها بين متاهات الوجوه العابرة، في نوادي الراحة ومكتبات المذاكرة وحدائق الجامعة، لم يشذ ذهني عن ذكرها وملامح وجهها حتى في شوارع المدينة، تمنيت أن ألتقيها وأفض مخزون عذاباتي بين يديها..

التصقت صورتها بمخيلتي كطيف لا يفارق هواجسي، معشقة في شبكة العين، ما جعلتني أتقلب في حيرة من أمري، حيث أني لا أعرف عنها أية معلومة أو دلائل ثانوية ممكن أن تعينني وتقودني إليها، ترشدني لمبتغاي، في الوقت الذي به أشعر بلسعة الشوق لفاتنتي قد تقرح الفؤاد، حيث أدخلتني في محراب الصبابة دون أن تفتح الباب. لكني جاورتها بعزم لا يلين، يصعب عليَّ التراجع عن الغاية التي أبتغيها، لقد تكبلتُ بكُلابِ من فولاذ في حلقات سجنها الأبدي.

فللوصول إلى الغاية الأسيرة من السعادة المرجوة، كان يجب عليَّ أن أعثر على الفتاة الكورية بشكل من الأشكال لترشدني لمصبها، لتقودني عبر طرقها السرية الوعرة إلى فردوس عرش الفاتنة. أو علني من خلالها أمهد الطريق الوعر لمصبها.

جاريت معاناتي، تحملت إرهاصات القلب والشجون المقرحة، بحثا عن تلك الفتاة بين شعب الجامعة وأسواق المدينة علني أحظى بمقابلتها، كنت عازما على العثور عليها في دهاليز الجامعة وزواياها بشكل منفردة، كي أتمكن من فض صرة معاناتي أمامها، عساها تدرك ما وصلت إليه.

لقد واجهت صعوبة في الوصول إلى تلك الفتاة، فلم أكن أعرف اسمها أو اختصاصها، ولم يكن لدي عنوان يمكنني الاستدلال به. كنت أخشى أن يؤدي السؤال عنها إلى تعليقات ساخرة أو تأويلات خاطئة بين الزملاء، مما جعلني أتردد في الاستفسار عنها مباشرة. لكن بالصبر وطول البال، ومع مرور الأيام، تمكنت أخيرًا من العثور عليها وسط زحام الجامعة، حيث كشفت لي الصدف الطريق إليها دون الحاجة إلى السؤال.

وجدتها أمام كلية الهندسة، مستظلة تحت شجرة صفصاف كبيرة، تجلس على مقعد خشبي يسع شخصين، وفي يدها كتاب تقرأ به.. تمعنت فيها جيدا، لأتأكد من أني لم أخطئ بتشخيصها، مررت أمامها ذهابا وإيابا، ثم درت حول مقعدها دورة دون أن تنتبه على وجودي، استغليت زحمة الطلبة والدوشة التي تُحدثها المناقشات بين تكتل المجموعات بما يمنع الشخص من أن يعير أهمية لما حوله.

اقتنيت قارورتي ببسي من كشك قريب مطروح في الحديقة المحيطة بكلية الهندسة، لا يبعد عن موضع جلوسها، ثم اتجهت إليها وكلي أمل أن تفتح لي صفحات عقلها وقلبها. سلمت عليها وجلست إلى جانبها:...

- صباح الخير يا سيدتي...

كانت قد تفاجأت بسلامي ووجودي الغير متوقع بالنسبة لها وهي مشغولة بعمق المذاكرة.

- صباح النور.. نعم أخي.. تفضل؟!.

ردت بهدوء وعلامات الاستفهام طاغية على محياها، تسأل ذاتها، ترى من يكون هذا الشخص؟ ماذا يريد مني؟ قد أكون في ظنها من الذين تنحدر بهم ذواتهم خلف العلاقات المزيفة المشبوهة، أو من الذين فرغت جيوبهم من عناوين الصحبة، فباتوا يبحثون عن عشيقة يسكبون في جحرها هموم الوحدة.

لم أدع حيرتها تتلون بالوان الظن، قدمت لها قارورة البيبسي وعرفتها بنفسي. فقلت لها:...

- أنا عمر سالم، طالب في كلية الآداب.. أتسمحي لي بدقيقتين من وقتك لأمر مهم يخصني.
- أهلا يا عمر، تفضل هل من خدمة؟.
- أنا بحاجة ملحة لمساعدتك.
- بخصوص؟؟

في تلك اللحظة تاه الفكر في غياهب الفكرة، لا أعرف أسم فاتنتي ولا أعرف كيف أوصفها لها لأحدد غايتي لها. لذا تلعثمت وقلت لها:...

- أود أن أسأل عن اللؤلؤة ؟

نظرت إليَّ بنظرة استغراب وفي وجهها ابتسامة عريضة. وكأنها تاهت في خضم الفكرة أو تصورتني مجنونا جاء يمازحها. ثم قالت..

- نعم!!! ماذا قلت؟...
- اسأل عن زميلتك اللؤلؤة..

دارت نصف دورة نحوي وعلامات الاستغراب استفاضت في ملامحها! حيث قالت وهي تضحك بعد أن بدت للعيان تلمع اسنانها العاجية في ثغرها، فبان وجهها أكثر فتنّة واشراقةَ كالقمر في ليلة عتمة، ثم قالت:...

- أية لؤلؤة تقصد؟ كل زميلاتي لألئ..
- عفوا عن صديقتك الجميلة ذات الشعر الكستنائي، تلك التي لا تفارقينها، فأني لا أعرف أسمها، لذا وصفتها بالؤلؤة؟

حين إذ ابتسمت ابتسامة صفراء ثم قالت....

- اللؤلؤة؟ ...شكرا لك على قارورة البيبسي وأرجو أن تتركني الآن لأني مشغولة بالمذاكرة حيث أستعد لاختبار قادم بعد هذه المحاضر. وأود أن اركز على بعض المفاهيم الخاصة والمهمة... إذا سمحت يا عمر! أجل موضوعك لفرصة سانحة، يكون أفضل لي ولك.
- وعد منك؟
- بأذنه تعالى.
- شكرا لتفهمك، إذا أستأذنك. مع السلامة..

- مع السلامة.

لا أدري من أين هبطت على ذهني فكرة اللؤلؤة، والتي تنطبق على تلك الفاتنة بأوصافها تماما، فهي بذاتها جوهرة ثمينة. لقد خطرت في بالي تلك الفكرة في لحظة إلهام، وددت بها أن أعبر لها عما يجيش بصدري من لاعج وهيام. أنها فكرة شيطانية بزغت بوقتها، فبعثرها لساني دون تخطيط مسبق، فحلت في الوسط كرعدة السحب بشكلها التعبيري الجلل واللطيف والواضح.

في قرارة نفسي كأنها قد فهمت المغزى، لذا لم تود أن تدخل في مخاض اللعبة قبل أن تستأذن صاحبة الشأن. ربما لم تفهم المقصد، فلا تود أن تُغرق ذاتها في متاهة التملق، يا ترى! من تكون اللؤلؤة المقصودة من زميلاتها؟، آلمْ أكن تافها في طرحي الموضوع أمامها؟... ربما جعلتها تقارن ذاتها باللؤلؤة، لذا طلبت مني الانصراف وتأجيل الموضوع لوقت آخر. ثم هي قالت كل زميلاتي لآلئ....

ولكن يا عمر أصحى، كيف لها أن تعرف صاحبة الشأن والتي وصفتها باللؤلؤة، فهيَّ ترى كل زميلاتها بذات القيمة، كيف ستميز غرضك والفتيات يتشابهن بأوصافهن؟ كثيرات من تملك مواصفات اللؤلؤة التي قصدتها، كثيرات منهنَّ يصبغن شعورهن بألوان زاهية كيفما يشئن، كيف ستفرد قصدك وهي بشر وليست ملاك.

بت أسأل نفسي وأجيب، محاولا أقناعها. بت أحلل وأزيد من لفائف العقدة، لتمنحني الحالة صبرا بقدر ما تربك ظني وتلبك مساعيي. صرت أعطي للحدث مبررات وألغِي من نهجه

فقرات وأستنبط منه مسوغات على قدر الحاجة التي أبتغيها، لا دستور يمنعني من أقناع ذاتي بها غير دستور نفسي أنا.... أظن أنها عرفت المغزى بالشكل المراد تفسيره وإيصال الفكرة لذات الشأن، لأنه لا يوجد جمال يفوق جمال صديقتها الساطع، ولا رقة تفوق رقتها ولا لين طباعها، ولا.....الخ.

....أيه يا هذا.. صرت أكلم نفسي:..

.... كف يا عمر تصدق هذه الترهات التي تفكر بها، فعلا أنت مجنون كمجنون ليلى.. الناس ما كانت تنظر لليلى ولا تقارن حسنها بالجميلات، لكن قيس كان يحسبها أجمل نساء الكون. أصحى يا عمر، فالجمال نسبي بين البشر وليس مطلق...فما تراه جميلا ربما يكون قبيحا في نظر الغير، وإلا... لكانوا كلَّ شباب تعلقوا بفاتنتك ونسوا بقية الفتيات..

هذا يعني بأن الفتاة الكورية - دعني اسميها كذلك لأني لا اعرف أسمها الحقيقي مثلما لا أعرف أسم صاحبتها اللؤلؤة. ربما لم تفهم المغزى وما وددت إيصاله لها، لكن إحساسي الداخلي قرأ المشهد، يقول لي بأنها قد فهمت الغرض تماما، إحساسي صادق، لا يخطئ، لذا لم تود أن تخوض معي حديثا في صلب الموضوع قبل أن تسأل ذات الشأن، فعزفت على تأجيل الفكرة. أنه مجرد إحساس مرهف استشعره، ربما الحقيقة عكس ذلك تماما، أنه مجرد تخمين ليس إلا....

ربما تَعودتْ على الملاحقة من قبل ذوات النفوس الضعيفة، كأمثالي، أو دعني أسميها معاكسات وما شابه ذلك.. لأنَّ الجاذبية التي تكمن في مفاتن صاحبتها ملفتة للنظر، أحيانا أهجس بأن معظم الشباب افتتنوا بسحرها وبجاذبيتها، فهي

تنماز عن زميلاتها بسر الجاذبية، فجاذبيتها قياسا لزميلاتها كسطوع القمر قياسا للنجوم، أمثلها بالثقب الأسود، تمتص كل ما يحيط بها؛ حتى الضوء يكاد لا يفلت من جسدها.

حيث جاذبيتها استثناءً بين زميلاتها، حضورها لا يمر دون أثر، وكأنها نقطة جذب لا يمكن تجاهلها. لم يكن افتتان الآخرين بها مجرد إعجاب عابر، بل انجذابًا لا يُقاوم، كأنها الحد الفاصل بين العادي والاستثنائي، بين الممكن والمجهول. حقيقة خلف تلك المسافة التي تفصلني عنها يوجد كنز، أشعر أن هناك عالمًا آخر، أكثر إشراقًا من واقعنا المادي، عالمًا لم يُكشف لي بعد.

كأنها كوكبٌ منفردٌ في مداره، لا يشبه غيره، يجذب القلوب إليه دون مقاومة. لها حضورٌ ينساب كضوءٍ شفاف، لا يُرى لكنه يُحس، يترك أثره في الأعماق دون أن يزول، هي بعذوبة الكلمة وعمق معانيها، بثناء الشكر ولطفه.. رقتها ليست مجرد ملمس حريري، بل إحساسٌ يتغلغل في الروح، كأنها قصيدةٌ تُحفظ دون أن تُنسى، أو لحظةٌ جنونٍ لا تخضع لقواعد الزمن.

هي اللؤلؤة التي لا يشبهها شيء، جوهرةٌ تتوهج في العيون، تُهذب النفوس، تُحرك المشاعر، كأنها وعدٌ غير معلن، أو سرٌ لا يُكشف إلا لمن يمتلك الجرأة في خطفه. فخصائص معذبتي تماثل خصائص الكواكب والنجوم، وبلون قريب للنفس، أهجس بها لها ذات التأثير والسلطان على القلوب المرهفة. هي رونق سعادة في باطن الفكرة، ونشوة محبة في عمق النظرة. يكفي أني وصفتها باللؤلؤة.

أنا معروف بطبعي العجول، وتلك الصفة لاصقة بي كشعرة الجلد، لا استطيع التخلص منها. أحيانا توقعني في مطبات وأحيانا تجلني لمراتب العُلا، لها ميزة ولها مضرة. أحيانا تحل لي معضلة أواجها، وأحيانا تزيد الطين بلة فتجلدني بهيافتها.

أذكر حادثة لم أدرسها بشكل مناسب، غدت عقدة في حياة صاحبي وطقطقة في سلوكي وتصرفاتي، بسبب العجلة في تسليك الأمر؛ وذلك حين أخبرت صديقي ومن باب حرصي على سمعته وسعادته، بأن يتخلى عن خطبة الفتاة التي ود الزواج منها، كنت قد سمعت عنها كلاما بذيئا من صديق أثق به وأعتمد عليه، لأجنبه عقد الحياة المستقبلية.... بنيت افتراضي على ما طرقت أذني من كلمات كان قد ذكرها لي ذلك الصديق، كنت قد صدقته للعلاقة الطويلة التي تجمعنا. لثقتي الزائدة بذلك الشخص الموارب، الذي صور لي الفتاة على غير حقيقتها. لقد تمكن من أن يتلاعب بمخي وتغيير رأي بها، ليتمكن هو ذاته من خطبتها وخطفها بعد أن تخلي عنها صاحبي على ما سمع مني من تظليل للحقائق...

على أثر تلك النصيحة التي اسديتها له، أصبحت شخصا مذموما ونماما في نظره ونظر عائلته، صرت أنعت نفسي بالدفش والثول، كالذي عمل عملا ويستحي أن يُفشى سره..

على أثر تلك الحادثة بت اتجنب الخوض في المسائل العائلية، تعلمت الدرس؛ صرت اجنب نفسي الاحتكاك، لا أتجرأ من فتح فمي فيما أسمع وأشاهد، لا أتدخل في أمور لا تعنيني، صرتُ أكثر حرصا وحفاظا على قوام شخصيتي من عبث الآخرين، أكثر تأنيا في المواضيع الحساسة.

وفي موقف آخر؛ كانت لنباهتي وعجلتي أثرا في إنقاذ رجل من فك الموت، حين دفقته وهو يسير بجانب جدار طينيٌ قديمٌ آيلٍ للسقوط، حين إذا ألتفت إليَّ وهو في استغراب تام بِردة فعل غاضبة أغاضني بها، حيث قال:..

- ما بك؟ أأنت مجنون؟، لم دفقتنِ؟
- أنا آسف، هجست بالجدار على وشك السقوط، فوددت اجنبك الكارثة.

حين أذ نظر إليَّ بحمق ومضى في طريقه والسخط ينفث من فاهه... وما هيَّ سوى ثوان حتى سمعنا رمة قوية على الارض جلجلت مسامعنا، كنا قد التفتنا إلى الخلف معا دون إرادة، وأذ بالجدار كان قد هوى خلفنا. حينها أمسكني معتذر وهو يحضنني، مقبلٌ رأسي متأسف على ما بدر منه....

- أعذرني يا أخي، أنا آسف، أنت ملاك طاهر، أنت سيد (أي رجل مزكى)...لكن كيف عرفت بأن الجدار سيسقط؟
- هجست بخاطر اخطر ظني حين هجست بطقطقة خرقت مسامعي، جعلتني أنتبه على اساس الجدار المتآكل جراء جريان سيل الأمطار، فأدركت سقوطه.

بعد تلك الحادثة صار يتبرك بي، يصاحبني كلما شاهدني صدفة في مسلكه...

لكن استعجالي بترك الفتاة الكورية دون أن أحدد معها موعد للقاء قادم كان خطأ جسيما بحد ذاته، اعتبرته عبثا طال مقدرات العاطفة التي تستبيح قلبي، لأني بذات السلوك كنت قد جزلت تعب أيام من البحث عنها دون نتيجة. العجلة قد

فرضت النسيان على ذاتي فنسيت أولويات اللقاء، كنت قد تخليت عنها بربكة وعجلة من أمري دون أن أمسك برأس الخيط. كأنَّ لعامل الخجل دور في بلورة حدث النسيان، كان بمثابة السيف الذي بتر ساق الحلم الذي اجري خلفه. صفة العجلة التي تطبعت بها، أدارت مقود الحظ باتجاه معاكس....

لذا تباين سلوكي بحالة سقوط الجدار ولقائي الفتاة الكورية، كان لعامل العاطفة دور في ضعف التركيز، منعني من إدارة محور اللقاء كما يجب، نسيت هدفي ورغبتي المرجوة في فض صرة تأملاتي أمامها، فهوت ورقة الغاية من شجرة أحلامي دون أن أنتبه عليها، انسلتتْ من واقع اللقاء لمهاوي الظن، بت أتأمل اللقاء القادم بحرارة دون تحديد موعدٍ للقاء.

بفقدان الكورية؛ عدت لنقطة البداية، لنقطة الصفر، صرت أدور بـ مدار الأيام أبحث عنها بين دهاليز الجامعة التي أظللتني من جديد دون أن أعثر لها على أثر. بت أراها في مخيلتي هنا وهناك كحمامة تجوب أجواء الصمت والخيال، تهدل بين جوقة الحمامات دون أن أتمكن من أن أحدد موقعها، أتبع خيالها في الأماكن دون أن أحظى بها. أضحيتُ في تيه من أمري، أقحمتني الحالة بتحد جديد للنيل منها.. بسلوكها كانت قد أضاءت جانبا من فكري وأظلَّت جانبا آخرا، لأني بدأت اتأمل أن أجني من وراها خيرا، بحثا عن سلوك يقيني شر الهزيمة.

حينها شعرت بعقارب الساعة وكأنها لا تود أن تدور بانتظام وكما يجب، لا تود فك عقدة الزمن عن عاتقي، لذا بت أبحث عن سلة إنقاذ مرجوة تعين ذاتي، عن صديقي ورفيقي شاكر في زحمة تلك الافكار والوساوس من اليأس التي اغاضتني.

*****

كان شاكر متفهما، مرنا، طيب القلب، سهل المنال، لين الطباع، مثقفا، مبدأي السلوك والتصرف، يتصف ببشرة ذات سمرة شفيفة، أملط الوجه لولا بعض الزغب المتناثر في ذقنه. يزيدني طولا بأربعة أصابع، تكاد سيجارته لا تفارق أنامله، مثلما ابتسامته لا تفارق ثغره...

بصداقته لي كان قد حمل أهوال مصائبي، كأنه قد عد نفسه ليكون الورقة البيضاء أشخبط عليها تفاهاتي. كان قد أوكل فكره لما أصبو أليه، لذلك كانت علاقتنا جدلية، حميمية، صادقة.. كأنَّه كان ينتظر لقائي بلهفة في نادي الجامعة، وجدته منزويا في ركن من اركانها، بحدسه الثاقب كان قد أدرك صبغة الفشل في لون سعيي الذي كنت عليه. وجدته جالسا لوحده قرب النافذة المطلة على ساحة الجامعة يترقب ظهوري في المشهد، كان سارحا في وحدته برفقة سيجارته المتقدة وهو يرتشف كأس من الشاي المهيل من يد نادل النادي العم **أبو علي**، وبمجرد أن شاهدني عبر الحاجز الزجاجي؛ صار يأشر إلي بيده ليعلن عن مكان تواجده.

عندها أخطل بمشيي كنت أشبه بالتائه في ظنه، مبعثرا بين متاهات الظن، غريقا بموجات الفكر، أبحث عن قشة صبر تنتشلني من تيار العبث الدائر في فكري..

ما أن لمحته؛ حتى اتجهت نحوه.

- صباح الخير..
- صباح النور والسرور... أبشر يا دون جوان، علومك، أين وصلت بمغامراتك العاطفية؟

- مـــاذا تظـــن؟ أتظننـــي تجـــاوزت العُقـــدة؟ لازلـــت أراوح بمكـــاني، لازلـــت كالصـــفيح بـــين المطرقـــة والســـندان، كـــل الطـــرق التـــي تـــؤدي إليهـــا وعـــرة، غيـــر ســـالكة، معبئـــة بمتـــاريس الخـــوف والحـــرص والتحســـب والمعانـــاة والاقـــدار... لازلـــت أعـــاني فـــي مبـــدأ الخطـــوة الأولـــى، أعـــاني مـــن فـــك شـــفرة الحيـــرة، لا أســـتطيع تجـــاوز قيـــد الوجع.
- لِمَ كل هذا التهيب والتردد، من تكون؟...
- أنها الملائكة يا صاحبي... أ

إنها الملائكة... ألا تشعر بالرهبة تجاهها إذا ما صادفتها في طريقك أو في الأحلام؟

كيـف لعبـدٍ مسـكين مثلـي أن يتجـاوز أزمتـه مـع حوريـةٍ مـن حـور الجنـة؟ فأنـا لا أجيـد المنـاورة، لا أملـك الجـرأة علـى كسـر مـرآة ضـعفي، لا زلـت أتعلـم كيـف أختـرق رقعتـي، منتظـرا الحـدث أن يميـل نحـوي، أن تجتـاحني القارعة، أن يخترق القدر حواجز كياني.

هـل تعلـم؟ أنـا بتربيتـي أقيـد نفسـي، أسـجنها داخـل مخـاوفي، لا أجـرؤ علـى فـتح نافـذة للأمـل كـي ينفـذ الضـوء منهـا. لازلـت أقـف علـى المحـك، لـم أخـض تجربـة الحـظ، ما زالت تنقصني الثقة بالنفس.

- لا تتعـب نفسـك، أتركهـا، أنهـا ليسـت ملاكـا كمـا تتصـور، بـل شـيطان أخـرس، مـارد، هـي إبلـيس بهيئـة بشـر، جنيـة تتلاعـب بقلـوب السـذج مـن أمثالـك، تمسـهم، تسـمم أبـدانهم. أنهـا مجرمـة، قاتلـة، مميتـة، أبتعـد عنهـا قبـل أن تشـل بـدنك وتأسـر ذاتـك، قبـل أن تجعلـك عبـدا لهـا وخاتمـا في إصبعها.

- أن كانت شيطانة أو جنية وتمسني يا مرحب بها... أيوجد أجمل من ذلك؟ أن تكون مُمس من قبل جنية سليلة الحسن والجمال، تعشقك وتعشقها، تنام في قلبك الذي ينبض باسمها، أن تصب جام عشقها في حنانيك، فتشعرك بوجودها كالشمس في النهار وكالقمر في الليل.
- هههههههههه، ألهذا الحد تتمناها!... أيا مسكين... أنها مجردة من الإحساس، أنها تبحث عن الجيوب كما يقولون لا على القلوب.. وهل جيبك عامر؟ ممتلئ؟ هيا أغدق علينا، نحن أولى، الأقربون أولى بالمعروف، نحن من المقربين.
- حاضر، شايك على حسابي، هههههههه.

المشكلة التي أعاني منها، هي العُقد التي أراها تعترض طرقي دون أن أجد حل لها، وقد يكون لوضعية جيبي المسكين دورا في ذلك، لا أقوى على مجاراة الظرف المحيط بي، هذا بذاته سببا قويا يقوض مسعاي، يكبلني، يمنعني من أن أتخطى حاجز العقبة، الإحساس بالضعف لا يحتمل المجازفة مع الفتاة التي أترقبها وأتأملها....

لكن.....

يقولون بأن الحب أعمى، بذلك صرت أعزف على هذا الوتر الحساس، أودها أن تحبني، تحويني، عسى أن أصل لمبتغاي عبر رسول الغرام الدائر في أجواء فكري وقلبي.

- على أية حال فأني حاولت اليوم مع صديقتها، تلك التي كانت ترافقها، تلك الفتاة الكورية.. أتتذكرها؟....

(أومأ لي برأسه)..

- أين وصلت معها؟ ماذا طلبت منها؟
- بعد بحث طويل وجدتها تقرأ في كتاب قرب كلية الهندسة، حينها اقتنيت قارورتي ببسي وتقدمت منها مسلما.. ثم استأذنتها لدقيقتين.. ثم نفضت في حجرها ما في جعبتي، ثم سألتها عن صديقتها المقصودة فقلت لها دون تفكير في الموضوع:..

يا ترى! أيمكنك أن تعينيني على اللقاء بها.... قالت: من تقصد في تلميحاتك؟.. لم أكن أعرف أسمها بالطبع، فخطرت ببالي أن أدعوها باللؤلؤة، فقلت لها:... اللؤلؤة !!!!..

قالت بعد أن فرشت ابتسامة عريضة على وجهها:....

أية لؤلؤة تقصد؟ كل زميلاتي لألئ، فوصفت لها شكلها وشعرها، فردت عليَّ بنترٍ:...

شكرا على قارورة البيبسي وأرجوا منك أن تتركني الأن، لأني أود أن أعد ذاتي لاختبار في الحصة القادمة، أجل غرضك لوقت آخر مناسب، وقد وعدت بذلك.

- هههه، يعني أنك خسرت قارورتي بيبسي، هههههه، هذا هو أول قطرات الغيث والبادي أظلم.
- المشكلة عندما تركتها يا شاكر، لم أتفق معها على موعد قادم محدد، ولا حددت لي مكان اللقاء القادم، كنت مشوش الفكر، مرتبك، فأضحى الموعد معها مفتوح الزمان والمكان تحدده الصدفة.. كنت قد بذلت جهدا مضنيا حتى عثرت عليها، وبرمشة عين فقدتها

فـي زحمـة ارتبـاكي، دون أن أسـألها عـن اسـمها وكليتهـا وموعد اللقاء ومكانه....الخ.
لـم الـتمس مـن اللقـاء أيـة نتيجـة... كـان الخجـل قـد كبـل سـعيي، قيـدني، جـزل تفكيـري، لـم أجـرء أن أفـرض نفسـي عليهـا، كمـا لـم أود أن أكـون بجِحـا، صـلدا. كنـت خائفـا مـن مجهـول ومـا يترقبنـي، مـن الكلمـة المـرة، مـن الخـذلان والصـلف، مـن أن تنقـل لصـاحبتها نظـرة سـيئة عنـي. وددتُ أن أبقـى طـاهرا فـي نظرهـا، فلـو حصـل ذلـك، أكيـد أنهـا سـتجهز علـيَّ وعلـى مرامـي وأحلامـي تمامـا. تلـك هـي المعضـلة التـي كنـت أتجببهـا وأتجنبهـا.... لكـن الجميـل فـي الأمـر؛ حـين أسـميت صـديقتها بـاللؤلؤة، ولا أدري كيـف خطـرت ببـالي تلـك الفكـرة، أكيـد أنهـا عرفـت المقصـد واستحسـنت صـنيعي، لأنهـا لا لؤلـؤة غيرها في الجامعة.

- أنّهـنَّ جميعهنَّ لآلـئ مثلمـا قالـت لـك الكوريـة، لا أظـن قـد قـرأتْ فكـرك مثلمـا تقصـد أنـت. علـى أيـة حـال فقـدت مسـعاك بسـهولة... يعنـي ضـاع الخـيط والعصـفور، هههههههههه، يـا عمـر أصـبحت فـي نظرهـا وفـي نظري فلم هندي، هههههههههه.
- طيـب يـا خبيـث اسـتهزأ بـي، وأنـا أودك أن تعيننـي علـى جلـدي، لكـن مـاذا أقـول لـك.. أأقـول – (مـن قلـة الخيـل شدوا على الكلاب سروج). هههههههههه.
- هههههههههه، أيا كلب، نعتني بالكلب!!!.
- الحقيقـة أنـي أشـعر براحـة تامـة حـين التقـي بـك يـا كلبـي الـوفي، علـى الأقـل تبعـدني عـن جـو التشـنج الـذي أقيـد نفسي به. هههههههههه.

عنـدها تركـت شـاكر فـي محلـه بعـد أن قربـت حصـة المحاضـرة الجديـدة علـى أعتـاب المـزاح الـذي دار بيننـا، والـذي دائمـا مـا يفرض وقعه علينا في لقاءاتنا.

6- محاضرة الدرس

مع بداية المحاضرة، كنت غارقًا في عالم آخر، حيث لم يكن صوت الأستاذ سوى ضجيجٍ بعيد، لم ألتقط منه شيئًا. كنت مكبلا بشرودي، أسير في متاهات التفكير، أستعيد تفاصيل لقائي بالفتاة الكورية، وأتخيل كيف ستكون المحادثة القادمة، وما الذي ستنقله عني إلى فاتنتي. كنت أرتب الصور في ذهني، أصنع سيناريوهات الاحتمالات، حتى انتشلني صوت الأستاذ وهو يتحدث عن العلاقات العاطفية، ليحكم قبضته على انتباه الجميع.

بأسلوبٍ مشوق، بدأ ينسج حديثه عن الحب والمصارحة، عن العشق الحقيقي والمزيف، عن تأثيره في النفوس، وكأنه يدرك تمامًا الشرود الذي يسيطر على الطلبة. كان يرمي بشباكه ليعيدنا إلى الدرس، مستغلًا ما يشغل أذهاننا ليجذبنا نحو كلماته قبل أن يبدأ في المحاضرة الفعلية.

بأسلوبه المشوق، طرح الأستاذ سؤاله ليكسر حالة الشرود التي كانت تسيطر على القاعة، قائلاً:

- يا ترى، ما هو الأسلوب الأمثل الذي يتبعه الشاب ليجذب فتاة أحلامه؟ كيف يحرك مشاعرها، يلفت انتباهها، يجعلها ترى فيه شيئًا مختلفًا؟ ما الصفات التي يجب أن يتحلى بها ليكون موضع جذب أمام من يحب؟

بعد أن طرح الأستاذ سؤاله، ساد صمتٌ قصير في القاعة، كان السؤال كفيلًا بإثارة الفضول، حيث بدأ الطلاب يتهامسون

ويتغـــامزون ويتبـــادلون النظـــرات، بعضـــهم ابتســـم، وآخـــرون غرقـوا فـي التفكيـر، وكـأن كـل واحـد مـنهم يبحـث عـن إجابـة تتوافق مع تجربته أو رؤيته الخاصة للحب والجاذبية.

تجرأ أحد الطلاب على الحديث، قائلاً:

- ربمـا الثقـة بـالنفس هـي المفتـاح، أن يكـون الشـاب واثقًـا مـن نفســه دون غـرور، أن يظهـر اهتمامًـا حقيقيًـا دون تصنع.

أضاف آخر، بنبرة أكثر حماسًا:...

- لا يكفـي ذلـك، يجـب أن يكـون لديـه حضـورٌ مميـز، أن يتـرك أثـرًا، أن يكـون مختلفًـا عـن الآخـرين بطريقـة تجذب الانتباه.

تدخلت إحدى الطالبات بابتسامة خفيفة:

- لكـن الأهـم مـن كـل ذلـك أن يكـون صـادقًا، فالجاذبيـة الحقيقيـة لا تـأتي مـن المظـاهر، بـل مـن المشـاعر الصادقة والتصرفات العفوية.

بـدأت المحاضـرة تأخـذ منحـى مختلفًـا، حيـث تحـول النقـاش إلـى حـوارٍ مفتـوح، كـل طالـب يعبـر عـن وجهـة نظـره، وكـأن الأسـتاذ نجـح فـي كسـر حـاجز الشـرود، وجـذب الجميـع إلـى حديثـه قبـل أن يبدأ درسه الفعلي، حيث قال:....

- السـؤال مطـروح للجميـع بنـات وأولاد، هيـا يـا شـابات، يـا شـباب، أريـد مـن الكـل أن يشـارك ويبـدي رأيـه لألـتمس

النتيجـة، مـن فـيكم جـرب ونجـح أو فشـل؟ هيـا يـا سـلام ماذا تود أن تقول في الموضوع:

- أن يكون صادقًا بمشاعره وجديًّا في طرحه، فهذا هو الأساس.

قاطعه الأستاذ سريعًا:

- هل جربت؟ وما كانت النتيجة؟

ابتسم سلام وهو يهز كتفيه بلا مبالاة:

- جربت قبل الجامعة ولم أستمر، كانت مجرد فترة مراهقة... هههههه.

انتقل الحوار إلى فريد، الذي بدا وكأنه خطط للأمر بعمق أكبر، فقال:

- على الشاب أن يخطط للأمر بإتقان، أن يعرفها أولًا، ثم يبدأ بتمهيد السبل شيئًا فشيئًا، عبر لقاءاتٍ متتالية، حتى يصل معها إلى مرحلة القناعة.
- في طور الإعداد...

لم يكن لؤي ليترك الفرصة تمر دون أن يحوّل الحديث إلى اتجاه آخر، فأضاف مازحًا وهو يوجه حديثه للأستاذ مباشرة:

- أستاذ، هل الفكرة تخصك؟ هل تود أن تصارح وتتزوج؟ أخبرنا، نحن أصحاب خبرة في هذا المجال، جاهزون للمساعدة... هههههه.

ضحك الأستاذ ورد ممازحًا:

- لا بأس.. دعونا في الجد أولا! أود سماع رأي البنات... نجلاء، ما رأيك؟

رفعت نجلاء حاجبها قليلاً وقالت بهدوء:

- البنت ترغب بالشخص الجاد.

استغل الأستاذ إجاباتها ليسألها سؤالًا مباشرًا:

- هل وجدتِ نفسك؟

أجابت بابتسامة غامضة:

- لازالت قدماي لم تبتل.

ضحك الأستاذ ومعه بقية الطلاب، قبل أن يعلق بتسلية:

- يا شقية... هههههه.

تحولت القاعة إلى جو من الضحك والنقاش، وكأن المحاضرة أصبحت جلسةً ممتعة أكثر منها درسًا أكاديميًا.

حسن بدأ الحديث قائلاً بثقة:

- أن لا يكون جلفًا وثقيل الظل، أن يكون مرحًا وطريفًا، وأهم شيء أن لا يكون بخيلًا!
- وإذا كان لا يعرف أن ينكت، هل ينبغي أن لا يعشق؟ هههههه.

سفيرة أدلت بدلوها قائلة:

- أكثر ما يجذب الفتاة هو شخصية الشاب، ثقافته وكرمه، لباقته ومرحه قبل أي شيء.

- وأين تجدين ذلك؟

أجابته بابتسامة ماكرة:

- في المزاد! هههههههههه.

انتقل الحديث إلى سعاد التي لم تتردد في قولها:

- أهم شيء... جيبه! هههههههه.

ضحك الجميع، لكن الأستاذ عقّب بجدية خفيفة ممزوجة بالمزاح:

- إذن، أنت لا تفكرين بالطلبة، بل بالأستاذة والموظفين؟ أنت واقعية جدًا، هههههه! ولكن، تذكري أن الحب الذي يتبع المادة لن يدوم طويلًا.

جاء دور سرور، الذي أضفى شيئًا من الرومانسية على النقاش قائلاً:

- أن يشعر بها وتشعر به، أن تكون الأفكار متقاربة، وأن يتمكن من التعبير بوضوح وواقعية.

هز الأستاذ رأسه موافقًا:

- ممتاز. وأنت يا أمجد؟
- أن يخاطر ويجازف من أجلها، أن يكون شخصًا يُضحّي، والأفضل أن يتميز في مجال ما، كالرسم أو الرياضة أو حتى الغناء.

ابتسم الأستاذ وقال:

- رائع! هيا يا ليلى...

ليلى أضافت لمسة أخرى قائلة:

- الوسامة وأناقة اللبس، فذلك له دور كبير في جذب انتباه الفتاة.

هزّ الأستاذ رأسه موافقًا:

ثم دنا الأستاذ من طاولتي، وأشار بأصبعه إليّ قائلاً:

وأنت يا عمر، ماذا تقول؟

ابتسمت وقلت بإيجاز:

- أن يكون ماهرًا في الغوص ليعثر على اللؤلؤة، فالحب يميل إلى الجد والعزيمة والإصرار.

ساد صمتٌ لحظةً، ثم وهز رأسه بإعجاب، وكأن الإجابة تحمل بُعدًا آخر لم يتوقعه. وبردة فعل مفاجئة صرخ بحماس:...

- الله - الله يا شاعر! ما أجمل تعبيرك! أن يكون ماهرًا في الغوص ليعثر على اللؤلؤة... تشبيهٌ بليغ يجسد الرحلة نحو الحب بكل تحدياتها.. فعلا كل ما ذكرتموه صحيح إلى جانب أن يكون مخلصا ومضحيا ولحوحا في طلبه، أن لا يهرب من أول عثرة تصادفه، مثل الغواص الذي لا يكل من فشله، ان يكون دقيق في اختيار كلماته ولبسه، أن يجمع صفات الجد والمرح والإيثار.....

ثم التفت إلى بقية الطلاب وقال بابتسامة:

- لكي يكون هناك إنصافٌ ومقبولية، لا يقع العبء فقط على الشاب! فالفتاة أيضًا عليها أن تكون جذّابة، أنيقة، لبقة، مرحة، بشوشة، مهذبة، هادئة، جميلة، مثقفة،

خلوقة، عفيفة، وخجولة، تتحلى بصفة الحياء... وأعتقد أن العفة والأخلاق هما أهم ما يبحث عنه الشاب في الفتاة.

ساد صمتٌ قصير في القاعة، ثم بدأت الابتسامات تتبادل بين الطلبة، وكأن الجميع بدأ يعيد التفكير فيما قيل، وكأن كلمات الأستاذ أيقظت شيئًا ما داخلهم.

بصراحة؛ إعجاب الأستاذ وإطرائه على عبارتي، أشعرني بنشوة فرح حركت الثقة في ذاتي، جعل رأيي متميز بين آراء الزملاء، وكأنه بتصرفه قد راهن على ثقته بنفسي، جعلني أشعر بزهو وتفاخر، وأني لا أقل شأنا عن زملائي وأن لم أكن من أميزهم. لست قليل شأن أبدا كما هو واضح من رهافة إحساسي.

كان لطرح استفساره في ذلك الوقت بالنسبة لي؛ فرصة أراجع بها تصرفاتي وسلوكي، أن أقوم ذاتي وأنتقدها في مواضع عدة، فرصة لأجمع شتات الفكر وكل تلك الآراء التي طرحت جمعتها في كوة ذهني، عملت لها جدارية لأعود لها متى احتجت إليها.

فعلا كما أسلفت، كنت بحاجة لدعم معنوي يضعني على جادة الطريق، بحاجة لآراء تمنحني الثقة في المحك وتصب الأمان في تجربتي، الغريق يحتاج إلى القشة ليتعلق بها، وأنا بعرف العاشقين غريق بمحض إرادتي، بحاجة ماسة للرأفة والنصح لأقف على قدم وساق في مشوار غايتي.

حينها كنت أرتجى من يسف وقته في جز أرقي، أن ينتشلني من عبثي ويفك شفرة عقدتي.. كنت بحاجة لمن يسألني عن

عشيقتي لأفتح عليه صنبور الهوى، أبلله بكل ما في قلبي من شطط الغزل العذري، ففي صدري خزين من الحب المعتق المُسْكِرْ؛ حتى يرى بأم عينه تيمة العشق معلقة في رقبتي والتي تحفظني من شر الحسد، تلك التي أتبع ظلها، والمرتبطة بحيثيات الأساطير، تلك التي تدور في فلكي كالقمر. فهي الجوزاء في سماء عشقي، درة بين الفتيات، تبهر من ينظر لها، البست العشاق ثوب الأرق.

ما شد انتباهي؛ هي فكرة أن أخطط لهدفي قبل الأقدام على الهدف، أن أكون على قدر المسؤولية من ثقافة وشياكة وأدب وكياسة، تلك هي مسلمات القبول والتقدير. العمل بتلك القواعد تقرب الفكرة إلى الغاية، تلك التي ماكنت أنظر لها بعين الاعتبار.

فالشاعر يقول نظرة فابتسامة فلقاء.....

فأول ما يجذب الفتاة الشياكة، ثم اللباقة ثم الأمور الأخرى...

تلك المباهج فتحت عيني وذهني عليها، جمعتها في سَلَّتي ثم انحدرت لوادي الهوى والوله بسلاسة، بتُ أقوم ذاتي بتلك الأفكار التي طرحت في الدرس، زدت من لمعان صدفيتها في تنعيم السلوك والشخصية، تلك الآراء ثبتت اليقين في ذاتي وزادت من ثقتي بنفسي على تجاوز مطبات الخوف ومهازل العشق، جعلتني أحرص على تجاوز الخطوة القادمة بقدر اهتمامي على نيل الظفر والنجاح. لا مناص من العزم والإقدام." فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ" صدق الله العظيم... فالتوكل على الله يضع القلب على طريق الإيمان، يغشيه بالسكون والتأمل الدائم.

بعد تلك المحاضرة صرت أكثر شياكة وعزيمة وتأملا بمراعات أحلامي، لا أهاب عُقد الزمن، بثُ أهيئ ذاتي لمواجهة العراقيل على اشكالها، أبحث عن الحلول الآنية والدائمة لأزماتي، أدعم ذاتي بالثقة التامة بالنفس، بروح الثقافة والأدب، صرت أهتم بهواية الشعر التي أسبح في شواطئه، أقرأ الكتب، شتى أنواع الكتب وبالذات الفلسفية والتاريخية إلى جانب الروايات الدسمة. كأن المحاضرة غسلت عني كياني رجس الشيطان وغبرة الهموم والعقد البالية التي أصطحبتها معي من القرية. صرت أكثر رزانة وقيافة وأناقة ولباقة، تغيرت في ذهني مفاهيم الحياة بشكل جذري عما كانت عليه في السابق، كأني ولدت من جديد.

بت لا أفارق البدلات وربطة العنق، أتريث بخطواتي، أشرب الشاي والقهوة برواق وتأنٍ، أأكل برواء وهدوء، حيث عرفت بأن سلوكيات الفرد محسوبة على الشخص، فهي بمثابة مرآته ودرجات تقديره بنظر المراقبين له. على الرغم من أني حديث العهد في الجامعة إلا أني حددت سلوكياتي بشكل كبير بحيث اقتصرت علاقاتي على عدد قليل من الزملاء وكان أقربهم وأميزهم لي **شاكر**، بينما حددت مواقع تواجدي في النادي أو المكتبة ذات الطابقين، ونادرا ما أكون متسكعا في حدائق الجامعة بين الأزاهير.

7- لقاء المكتبة

كان النهار قد أنهى شطره الأول، الشمس تجاوزت خط الزوال وهي تنثر ضوءها بكسلٍ على الطرقات، كأنها تهدأ بعد عنفوانها الصباحي، كما كنت هادئًا حينها، غارقًا في داخلي بصور شتى، حيث لا يسمع أحدٌ صدى أفكاري إلا روحي التي تختض بكتمانها بين الحين.

على دكة الرصيف الحجري، بين صخب الطلبة الذي لم يلامسني منه شيء، كنت غارقا بخيالي، أقلب صفحات الأيام في ذاكرتي، أبحث بين الكلمات المتطرفة والمنطوقة والصمت المختبئ عمّا سمعت من وشوشة وما يقال عني بين التلاميذ، عن تلك التجربة التي استوطنتني، عن الفاتنة التي صارت عتلة توازن معلقةً بين الأمل والتردد، بين الجرأة والخوف بتمجيد مشاعري.

الزهور المسترسلة من حولي لم تكن مجرد نباتات، كانت إشارات، علامات على طريقٍ توحي بالأمل، وكأنها مفتاح حلم مغلقة ابوابه. الكواكب التي تدور من حولي وفي أروقة الجامعة لم تكن مجرد أجسادٍ سماوية، كأنها حلت لتبجل مشاعري وتكمل قراءتي فيما أبغي، كل شيء يتحرك من حولي، إلا أنا، عالقٌ عند نقطةٍ لم أقرر بعد كيف أتجاوزها، وكيف اصحب ذاتي.

لكن الأمل بقيَّ يشع بين زحمة تلك التفاصيل، كنجمة تقترب من ظني، كأنَّ هذا اليوم يحمل في طياته فرصةً لم تُكشف بعد، لحظةً قد تغيّر كل شيء في مجرى حياتي.

كنت جالسا على غير العادة إلى جانب شلة من التلاميذ لا تربطني بهم أية صلة، عيوني غائرة في منافذ الطرق كاليمامة تبحث عن أخبار جهينة، تبحث عن بريق شرارة اللؤلؤة لأكش عن ذهني طنين الوحدة واليأس الحزين، وادا التخلص من علل الخيبة والمتاهة المزعجة..

وعلى غير العادة ودون سابق إنذار واستعداد لهول المفاجأة؛ لمحتها كطائر الشوق في الأفق وهيَّ تمشي كملكة تقتحم الصَدَفة وتطوي المسافات بهداوة وتأنٍ وسؤدد إلى جانب كوكبة من الحسناوات يحتضننها بضمنهم الفتاة الكورية. كأني بتفكيري العميق وانشغال قلبي المتيم بها قد جذبتُ سرها إلى سري وفكرها إلى فكري، كأني أسرتُ عواطفها بواقع صمتي وانشغال فكري، كأني بها قد أدركت حاجتي لها فجاءت لتطيب خاطري، حيث التخاطر بين القلوب المحبة حقيقة إلاهية، بشعورها أدركت ذلك التخاطر الحري الجاري بيننا قد فعل فعله، بقدومها عزمتْ على تخفيف معاناتي، حلتْ تلبية للشهقة الدائر بين فكري وفكرها لتطفئ شرر النار بسحر مفاتنها.

هكذا شعرت بها حين جاءت مع اللحظة المكبوتة المرتجة في داخلي، جاءت بجيش مفاتنها تقتحم حدود فكري لتستطلع على حقيقة أزمتي ومشاعري. جاءت بصبح يخفق بين منازل الغسق، تمور بفتنتها ككوب دري يصعق الأفق، النور يميزها عن أقرانها، والحسن يبجلها، والشوق يلبسها والشفق، بدت كطاووس بين زميلاتها تفتخر بأناقتها وطلتها، وهي تظل وصيفاتها كالودق، كلؤلؤة حاضرة بين الأحجار الكريمة،

مراقــة، سلســة، كالشــهب تبــرق بــالطرق. حــين رأيتهــا وجــف القلب، ما عاد شيء يشغلني سوى ومضة البرق.

فــي طلتهــا جُلجلــت الخــواطر، حركــت زغــب المشــاعر عــن موضــعها، هكــذا بــدى لــي المشــهد مــن خــلال اهتمــام التلامــذة الجالسـة إلـى جـانبي وهـي تتطلـع قـدومها، وكأنهـا الوحيـدة أنثـى بين تلكم الفاتنات.

وهـي تمشـي بتـأن واضـح، كأنهـا بركـان يلفـظ حمـم عصـفه علـى العيـون المتلصصـة مـن حولهـا، بنثـار الشـرار كانـت قـد أصـابت جمـوع المصـطفين علـى رصـيف الشـارع بـالغيض والنكـد، كـانوا قد لظوا مثلما تَلَظَّيْتُ بقبس نارها وسخط البرد.

صــار التهــامس بيــنهم يشــتط علــى أشــده، علــى وقــع الصــمت الـدائر مـن حولنـا، عُلقـت الثرثـرة بخـط الفكـرِ المأسـورِ بمفاتنهـا. التمســتُ اهتمــام الجميــع بهــا، هجســتْ بــوتين الفــؤاد يخــتض بسـحرها. بـدى المشـهد يعـم علـى الجمـع أكثـر ممـا يخـص، حيـث اشـتد التهـامس بـين أفـواه التلاميـذ، صـار المشـهد يعمـه الفوضـى، أشــبه بفوضــى زقزقــة عصــافير وقــت الغــروب قبــل أن ترنــوا لأعشاشــها، أو كتلــك المتجمعــة علــى نميــر عــين تــزف عرســا أو تجلــي الحــرارة عــن جســدها. همســاتهم باتــت تــدركني، تصــل مسمعي:...

- أنظر يا صاحبي إلى تلك الفاتنة
- يــا إلاهــي.. أنظــر لهــذه الســيقان، مــا أجملهــا! مســحوبة بإتقان من الكاحل للورك كعود الخيزران.
- أينها؟ هل حضرت؟.

- هـا هـي، أنظـر لوجههـا الناصـع، خـدودها كشـرائح زبـد طافحـة فـي الوجـه، شـعرها شـلال كرسـتال متـدفق علـى الكتفـين، مفاتنهـا جذابـة كقطـع يـاقوت وتوبـاز وفيـروز معلقـة بالسلسـلة، يـا محلاهـا وهـي تمـر بيننـا كنسـيم الصبح.
- لـم أشـاهد فتـاةً أشـيك وأرق منهـا فـي الجامعـة، أنظـر لتناسـق الألـوان التـي ترتـديها.. يـا تـرى؛ مـن تكـون؟ ومـن أين لها كل هذا؟ من الظاهر أنها أبنت عز وجاه.
- يا أبني؛ الجمال يُوَلِدْ المستحيل..
- تبهرنـي قامتهـا وجميـل مشـييها، كأنهـا مبرمجـة علـى نغمـة معينـة فـي خطواتهـا تحـرك المشـاعر، أراهـا تمشـي مشية الطير المتبختر وهي تهادن الريح برواق حسنها.
- وجههـا كطلـة الربيـع؛ دائـم الابتسـام، رائقـة المفـاتن، أنفهـا حبـة بلوطـة مفعـم بالسـحر، لهـا شـفة كرزيـة مـن أرجـوان الجلنـار، وعيـون عسـلية شـهلة نجـلاء، حـادة، كعيـون الصقر. حتى أني أرتبك حين أتمعن بوجهها..
- كـم تعيسـة الحـظ تلـك الفتـاة الكوريـة التـي ترافقهـا، وهـيَّ ترافـق هـذا الحسـن المبهـر، تشـم عبيـر الفـتن. فلـو كانـت ذكرا لكانت سعادتها حقيقة وهي إلى جانبها.
- بل قل سعيد من يتزوجها...
- أنظـر لطولهـا الفـارع ورشـاقة الجسـد الأهيـف، الصـدر بـازغ والـورك مصـون فيمـا الخصـر مضـمور كأنهـا دميـة، كاملـة الأوصـاف، لـو تشـارك فـي مسـابقة ملكـة الجمال حتما ستفوز دون منازع.
- لهـا هيبـة فـي قوامهـا ورزانـة فـي حركاتهـا، ذات شخصـية فـذة، تـرى لِـمَ لـمْ يخلـق الله جميـع النسـاء بهـذا

الوصف من السحر والجمال؟ كنّا ارتحنا من سقم العذاب والتفكير والبحث عنهن...

- لا يا صاحبي؛ لا يصح ذلك.. لولا هذا الاختلاف لما شعرنا بلذة وطعم الجمال، ربك حكيم كي لا نحيد عن السراط المستقيم، لنستطيع أن نقدر عظمة خلقه، أن نميز الجمال عن القبح السائد، ليجعلنا نتصف بنعم الأخلاق ونبحر بالأيمان، لأجل أن نلتمس رغباتنا في شواطئ ذلك المنهل المتدفق.
- صدقت، هن كذلك يجتمع فيهن التناقضات، لو كنَّ النساء بمقياس واحد من الجمال! لن تعتني بنفسك ولا بدينك ولا بجيبك، ولا تخطط للمستقبل كما يجب، لأنك بكل الأحوال ستفوز بإحداهن وبشكل روتيني ودون جهد، حينها يقل تقدير الرجل للمرأة.
- أني اهجس بأن الله خلق كل شيء في الكون من أجلها. لذا ربك يريدك أن تجتهد لتنال ما ترغب النفس، علينا أن نسعى خلف رزقنا لنفوز بجميلة توائم رغباتنا.
- اصحح كلامك بأن الله خلق كل شيء في الكون من أجل الرجل. علينا أن نقدر هذه النعمة كرجال.

في الوقت الذي به كنت أستمع لتلك الزقزقة والشقشقة الصادرة عن التلاميذ الجالسين جنبي والذين أبدوا أعجابهم بفتنة اللؤلؤة دون ضغط، كانت عينيَّ منصبتان على قامتها، وبالتحديد على معالم وجهها النير وخطوات قدميها الرقيقة.. حينها كانت قد تخطت من أمامي بفخامتها كملكة تمشي الهوينا بين وصيفاتها، هجست بعينيها منصبتان على قامتي، مثلما أنصبت عينيَّ على قامتها.. لم ترمش جفوني لحظة واحدة، لكي لا أفتقد متعة الاستمتاع بتلك المحاسن. بقيت تشع

أعجابا في وجوهنا كشمس لاهبة، تزف أشواقا للأفئدة وبريقا للأرواح المتحرقة. فيما غدت ملامح وجهي تقطر إعجابا من ندى الحياء، تقلب اللون بين خواء صفرة الرهبة وجواء حمرة الخجل، وذلك بما لاحني من عصف الحيرة والضعف دون إرادة مني..

لم أنبس بشفة، كنت أكثر المعجبين إعجابا بها وأكثرهم تركيزا على مفاتنها. كان قد أخرس لساني، وجفت عيني، شُلت أطرافي عن الحركة.. لم أستطع أن أبرح مكاني لأجاري طوفان الشوق الجارف في الفؤاد المعنى خلف جريها.

خلال مرورها وانبهاري بجمالها، لمحت منها نظرة خاطفة لماحة، أستلت بها رهافة أحاسيسي ومشاعري عن مكامنها، كأنها أطلقت رصاصة رحمة أصابت بها مقتلي، كأنها قالت لي لقد علمت بأعجابك بي فلا تجازف وتنحدر بغيك أكثر. بتلك اللمحة أغرقت البراءة في شجوني، لتزيدني بها ولعا وهيافة وجنونا وهياما.. حينها أنتشت في أعماقي بذرة أمل ملأت فضاء قلبي سعادة، صرت أتبع ما يمليه عليَّ ذلك القلب المعنى، وبما يفيض ويشعر.

هجستُ بتلك النظرة اللماحة رسالة شوق صادقة عبرت بها عما يجيش الفؤاد من صدق المشاعر والاحاسيس نحوي. رسالة قرأت مضامينها بكل أناة وسهولة، أخذتني إلى عالم الخيال، لأمرح مع تلك الأطياف بحبور وسرور.

وهي تمشي برفقة صديقتها، تلك الفتاة الكورية أو الصينية كما عبر عنها البعض، كأنها لم تستطع أن تقاوم الغاية التي

تشعشعت بنظرات عيني المرسلة، ولا بطيف هيامي الفاضح. بحيث مع ولوجها أمامي أرتجتْ وزمّتْ بأم شفتيها، ثم أزفت تجلدني بنظرة حادة من لاحظة عينيها، ترافقت مع الارتجاج الذي أصاب قدميها، حينها كنت قد لفظتُ شهقة آه خرجت من صميم القلب لتستكين على ما أصابها من لاعج الهوى، وكأني بها قد هجستْ بحرقة الآه في صدري توقدت بموجة آه نفرت من صدرها، كأني بلفظة الآه أعدت سهم عينيها لواقع صبابتها، ليستكين في ثنايا فؤادها. كأني بها سمعتُ جلجلة تخبط كبلتها وهيَّ ترسل صرخة مدوية من حشاشة القلب أرتقت مآثرها لسمعي وجنوني بها.

في تلك لحظة أُصِبْتُ بوخزة من شرر عينيها؛ كأنها تلبدت بصعقة من آهاتي، فأصغتْ للجاجة الآه وهيَّ تطرق صوان أذنيها، تحسستْ لوعة الشوق وهي تتحرى على أنفاسي وأنفاسها، لتزم بتلك الشفاه الغضة أسفا، على ما اعتراني من عناء وتأوه وصبابة...

...كانت الصدفة قد لعبت دورا مهما في تهييج جمرة العذاب بمكمنها، لتحاكي لاعج الهوى حين هفت تطرق أبواب خواطري بنزف الشوق، أولدت في كياني ثورة يقين، أسعرت أعماقي بنار الجوى، ألهبت زغب أحاسيسي ومشاعري، جعلت للحب مدامع تنزف في الروح والعقل والفؤاد.

للمرة الثانية، عصف شديد اخترق فكري، اجتاحني كإعصارٍ لا يترك للراحة ملاذًا، أرهق بدني، أبقاني عالقًا بين الإدراك والذهول. للمرة الثانية، ألقاها أمامي، على محمل الصدفة، بذات الحدة التي تترك أثراً لا يُمحى؛ فتخترق جدار الفؤاد

كرصاصةٍ عشوائية، تثير في داخلي شبقًا لا يُروض، فتعلن عن مهرجانٍ من الشوق وعذابٍ يلاحقني بلا هوادة.

لكن هذه المرة، كان وقعها أشد وطأة، أكثر طراوة، وكأن الزمن نفسه قد أراد أن يمنحني تجربة أكثر غموضًا وانجرافًا، تركتني في حيرةٍ بين ما كنت عليه وما صرت إليه، بعد أن تلاحمت النظرات، وتناثر الصمت كنزفٍ مهدرٍ بيننا. وبين شدقيْنا، جلجلة الآه تتردد، كما لو أنها نداءٌ أخيرٌ يُحاول أن يبوح بما لم يُقال.

....ربما لمَّحتْ لها صديقتها الكورية عما دار بيني وبينها من عصف على هامش اللقاء العابر الغير مبرمج، وعلى ما جال في خاطري حين وصفتها باللؤلؤة.. وإلا ما تفسير تلك النظرة الخاطفة لي دون التلاميذ المصطفة بجانبي؟ وتلك الحسرة التي غصت بها أنفاسها حين تلاقت النظرات على هامش الشوق بنظراتي؟....

أنها أسئلة روتينية، اجابت بذاتها عن استفساراتي..

يا ترى! أيكون لمحاورتي الفتاة الكورية دافع إيجابي حرك عجلات الشوق عن مكامنها ومخابئها، فأدارت دفة مشاعرها اتجاه مرافئي؟ أم أنها مجرد افتراضات خاطئة جدلتها فوضويتي في درب الهيام فولدت تلك الصدفة من محظ الصدف، فودت تصفح حيثياتي؟...

أحيانا أهجس بذاتي تشتط عن الواقع، يا ترى: لم كل هذه الثقة الزائدة التي أتبجح بها لأتشبث بتلك النظرة؟ رغم اني لا أملك مقومات الفوز بتلك الملكة... ربما كانت طبيعية في سلوكها وتصرفها عطفت بها على مسكين أسير هواها. لكنَّ ولعي بها

هـول الأمـر وأول تفسـير المسـألة لمصـلحتي، ليتطـابق الحـدث بشـكل إيجـابي مـع تكهنـاتي وغـايتي؛ كنـت قـد أسـتمعتُ لمغالطـات الطلبـة وأؤولهـا إليهـا دون الفتيـات الأخريـات اللاتـي لا يقللـن شأنا عن شأنها..

الغريـب فـي الأمـر كنـت أشـعر بمبالغـة تصـوري للمشـهد دون أن أتأكـد مـن حقيقـة مشـاعرها تجـاهي وحقيقـة ردت فعلهـا.. والشـيء المبـالغ بـه هـو إحساسـي الغيـر منطقـي، الغيـر طبيعـي، دون أن ألـتمس حقيقـة تلـك المشـاعر تجـاهي بشـكل متـيقن مـن قبلها.

أظنـه إحسـاس منفـرد لا يعنـي للواقـع بشـيء، لأنـه نـابع مـن طـرف واحـد، ثـم أن الغريـق لا يشـعر بمـا حولـه ومـا يحـيط بـه، لـذا صـرت أشـكك بتفسـير الحالـة مـع الوقـت، متأرجحـا بـين أن أصـدق هيـافتي وبـين أن أجـل كرامتهـا، عـن ميـل محورهـا لواقعي المرير المجرد.

ومـع الوقـت، صـار لـذلك العصـف نفحـة طيـبٍ تغشـى خـواطري، لـم يعـد اضـطرابًا يربكنـي، بـل بـات إيقاعًـا ينسـاب فـي داخلـي، أهجـس بشـررٍ يتطـاير مـع ريـح قـدومها، يلسـع الفـؤاد، يـوقظ جمرة كانت راكدة.

فـي البدايـة، كنـت أخشـى أن يخبـو ذلـك العصـف، أن يتبـدد تحـت بـرود سـلوكي، أن يـذوب فـي قدريـة الأيـام، لكـن الشـوق كـان أعمـق مـن الخـوف، كـان وقعُـه علـى الفـؤاد كسـيفٍ علـى رقبـة الضـحية، لـم يكـن مجـرد إحسـاس، بـل قـرارًا يتجـدد مـع كـل حضـور. كلمـا انبثقـت صـورتها أمـامي، اشـتعلت النـار فـي

جـوارحي، تقطعنـي لنصـفين: نصـفٌ يلهـث خلـف اللهفـة، ونصفٌ يتوه في نار الجوى التي لا تخمد.

قد تكون نظرتها الخاطفة نظرة عطف، أثابت أن تعبر به عن حالة عابرة، وما تلك الابتسامة سوى لفتة براءة رطبتْ بها حراشف أفئدة الذوات المعجبة بفتنتها، جاملتهم بها، لتبعد عن ذاتها الحشرات الدبقة التي تتبع سيرتها بملحة زائدة...

أما من جانبي، فقد شتّتت حساباتي، وبقيت ألهث خلف تلك النظرة التي اخترقت كياني وعبثت بمشاعري، ألقتني في دوامة التأمل، نظرة جعلتني أهتز، قلبتني رأسًا على عقب، حولت صمتي إلى خوفٍ وعناء، فصرت أتبع سرها، أبحث عنها كعلامة فارقة، تربكني، تستوقفني، تعيدني إليها كلما عصفت بي الحيرة.

هكذا، بتُّ أسند سلوكي بسلوكها، أرفق عذاباتي بالغموض، أدون المفارقة في سجل اليقين، أترك الأمور على غارب الزمن، أعلقها على سلم الوعود، ففي كل الأحوال، بذكرها يتجدد الحلم في داخلي، تلك الحالة تجعلني أحفظ صورتها بين نبض الفؤاد ومقل العين..

لم يبرح طيفها الماجن أجواء الظن، صرتُ أحوك من خيوط الخيال لبد القصص والهيام حول حلم اللقاء، ارفق بها ذاتي وشرود ذهني نحو الصدفة القادمة، علني أصل غايتي يوما ما. لقد عنونت لها مانشيست عريض في صحف فكري يليق بها، **لحظة اللقاء باللؤلؤة**.

من يومها صرت أشعر وكأنها أخذت بيدي، عندها أيقنت بأني سأرتبط بتلك الفاتنة، وأني إذا ما تجاوزت الخطوة الأولى في

ميـدان الولـه؛ سـيتكفل الـزمن بمشـواري، سـارتش لوحـة الأمـل بريشة اليقين.

بنظرتهـا الثاقبـة كانـت قـد أججـت جمـرة الجـوى فـي أعمـاقي، مزجـت إرهاصـات الفكـر بالوجـل الـدائر فـي خلـدي، عجنـت الرغبـة الصـادقة بجنـون الهـوى، جعلـت مـن الخلطـة السـرية التـي أبحـث عنهـا وسـادة قلـق تحـت رأسـي، جعلتنـي أضـرب أخماسـا بأسـداس وأنـا أتبـع مشـوار ظنـي، حيـث أخـتلط علـيَّ الحابـل بالنابـل، لا أعـرف لأفكـاري مرسـى يهـديني إلـى السـراط المسـتقيم. صـرت أسـأل نفسـي وأجيـب بشـيء مـن الرعنـة، وأحيانا أظفر بحكمة بليغة فأتمسك بها. فقلت:...

- يـا تـرى؛ هـل فعـلا قـد أعجبتهـا؟ هـل شـعرتْ بمـا أشـعر اتجاههـا؟ هـل توجـد فـي شخصـيتي صـفة تميزنـي عـن بقية اقراني؟ هل.....الخ..

أسـئلة شـتى طفحـت علـى مسـلمة ذهنـي، لاعبـت مـوج الفكـرة وتلـك النظـرة الموجبـة، لتلتقـي بشـحنة سـالبة مـن شـجن الفـؤاد، لتمنح ظني يقينا جديدا في فضاء الأحلام.

بصـراحة؛ تلـك النظـرة الخاطفـة أعطتنـي دافقـا قويـا للأقـدام والمجازفـة ومتابعـة السـعي خلفهـا، كأنهـا دعتنـي أتوضـأ بمنهـل الثقـة، وأصـلي علـى سـجادة الأمـل والإصـرار. دعتنـي أدعـو بـدعاء الصـابرين المتقـين، داعيـا صـاحبة الحسـن والجمـال أن تـرق وترفـأ بمشـاعري، أن تزيـل عـن قلبـي سـخط هـذا الوجـل وذاك الطنين المذل.

بعـد تلـك الوقفـة الطارئـة مـن الأحـداث العـابرة، صـرت أخطـط بثقـة تامـة ونهـج مبـرمج نحـو الإقـدام لاختـراق ذلـك السـكون

الفاصل بيننا، لأتجاوز قلعتها طارقا الغاية المنشودة. فالمرأة تحب الأشياء الغريبة كالمجازفة والتضحية.

كان عنتر قد تحمل الضيم وشجن الحروب من أجل حبيبته عبلة، ولم ينلها إلا بعد أن جلب لوالدها النوق العصافير من ملك النعمان في العراق، إكراما لعيون عبلة.

وقد ذكر عبلة في أشعاره كثيراً كقوله:

يا دار عبلة بالجواء تكلمي - وعمي صباحاً دار عبلة واسلمي

أما جميل فلم ينل حبيبته بثينة، كان قد تشرد بعد زواج بثينة من رجل غيره، ثم عاد ليموت في عقر الديار حزنا على فراق حبيبته.

وما ذكرتك النفس يا بثين مرة

من الدهر إلا كادت النفس تتلف

وإلا علتني عبرة واستكانة

وفاض لها جار من الدمع يذرف

بينما قيس بن الملوح حين عشق ليلى العامرية، الهيام فعل به الأفعال، صار يطارد الجبال والوهاد ويمزق الثياب ويستوحش من الناس ويكلم نفسه بعد زواجها من رجل آخر، وقيل إنه وجد ميتاً بين الأحجار في الصحراء بعد أن فاض ونحل. وقد خط قبل موته بيتين من الشعر قال فيهما:...

تَوَسَّدَ أحجارَ المهامِهِ والقفرِ

وماتَ جريح القلبِ مندملَ الصدرِ

فياليت هذا الحِبَّ يعشقُ مرةً

فيعلمَ ما يلقى المُحِبُّ من الهجرِ

بينما كان باريس قد عشق هيلين، فخطفها من الملك مينيلوس وحملها معه إلى طروادة، فجمع اليونانيون جيشا جرارا لاستعادة هيلين، وقد تم تدمير طروادة واعيدت هيلين سالمة الى اسبارطة حيث عاشت مكسورة القلب مع زوجها مينيلوس بقية حياتها.....

أما أنا:.....

لستُ بشجاعة عنتر ولن أتمكن من جلب النوق العصافير للؤلؤة، ولا أعمق وفاءً من جميل أو قيس، ولا لي نفس باريس وصبره ولا عزم مينيلوس وجيشه، لازلت لم أكتشف نفسي، لازلت أقف على رصيف الحب انتظر مركب السفر بشوق دون أن أملك ما يجذب أنتباه اللؤلؤة لتنبهر بي.

يا رب أعني على جلدي. هكذا هي الحياة مرارتها أجل تأثيرا من حلوها. خذ قصة بيراموس الذي كان قد هام بجميلات بابل تيسبي، فلم يستطع الزواج منها بسبب رفض العائلتين، وقد قرر الحبيبان ان يلتقيا في الحقول القريبة تحت أحدى اشجار التوت فجرا. ووصلت تيسبي الى موقع اللقاء أولا، فشاهدت أسدا يقترب منها، فهربت محاولة الاختباء بين الصخور. وبينما هي

تجري، سقط غطاء رأسها فالتقطه الاسد بين فكيه. وحين وصل بيراموس رأى غطاء رأس الحبيبة بين فكي الاسد، ظن أنَّ الاسد أكلها، فأقدم على الانتحار بسيفه. ولما خرجت تيسبي وجدت ما فعله الحبيب بنفسه، فالتقطت السيف وطعنت نفسها طعنة الموت. آه ما أتعس الحب الذي يودي بالأحبة إلى المأساة. قصتهما لا تختلف عن قصة كليوباترا ومارك انطونيو مثلما دونها شكسبير، وهكذا هي قصص الحب. يا ترى أين أنا بين كل ذاك؟

آه ما أصعب الحب يا شاكر وأنت تطاردني لأترك اللؤلؤة، كيف بي أتحمل وأنا هذا الطريد الفتي الذي يستند على جدار واهٍ؟ كيف بي أواصل المشوار وأنا لا عمق لي ولا منصب ولا جاه لأتحرى واثبت ذاتي في جدولة حياة اللؤلؤة، أني خائف، أخاف أن تكون نهايتي مثل نهاية هؤلاء الذين تشردوا خارج الديار بلا مأوى وبلا ذكرى، بل بلا عين ترفأ بهم كالمسكين **سليم** حين أحب **انارکيل**؛ على الرغم من أنه كان أبن امبراطور أكبر؛ إلا أنه عجز من النيل من حبيبته لأنَّ أنارکيل من بنات الهوى. فلم يتقبل أبوه الفكرة إطلاقا، فقرر محاربة أبوه من أجل نيلها، لكنه فشل في مقارعته فحكم عليه بالموت. وحين ودت إنقاذه دفنوها في حوض من الاسمنت وهي حية أمام عينيه، ثم بعد ذلك قتل سليم. وأظنه مات قبل أن يقتل، فلم يشعر بوقع السيف على رقبته.

تلك التجارب زادتني عزما على الرغم من مأساتها، لذا صرت أمضي بيسر وعزيمة اتجاه الهدف، آخذا بعين الاعتبار كل النقاط التي طرحت خلال المحاضرة عسى تنصف العشاق الولهان.

حينها كنت قد اشتريت بدلتين شبابيتين، أحداها سوداء والأخرى بنية، من المبلغ الذي كنا نتقاضاه من قبل الجامعة والذي كان يقدر بـ 100 دولار شهريا لكل طالب، إضافة إلى ماكنت أحصل عليه كمساعدة من قبل أخي الأكبر...

لم أكن أبرح غرفة السكن الجامعي دون أن أتعطر بعطرٍ مرموق، فالعطور الفواحة، القوية، النفاذة كانت جزءًا من هويتي، كما كنت دائمًا ألمّع أحذيتي حتى تشع كمصباحٍ يعلن عن حضوري، كان لي زوجان من الأحذية، يتناغمان مع لون البدل التي أرتديها، ولم أنسَ فرشاة أسناني، مشط شعري، وتنعيم لحيتي، حتى أصبحت نموذجًا يُحتذى به، مختلفًا عن الكثيرين في الأناقة والشياكة، متميزًا بين تلامذة الجامعة، ذلك التفرّد جعل الكثير من الفتيات يتقربن مني، لكنني لم أعر لهن اهتمامًا يُذكر، فقد كان فكري منشغلًا بالحبيبة اللؤلؤة، تلك التي احتلت المساحة في وجداني، والتي أسرتني في هواها، رغم كل الأضواء التي تحيط بي..

مضت الأيام وأنا أرتع على شاكلتي الجديدة، مهتما بهندامي الخارجي وقيافتي، حتى وجدت نفسي مختلفا عن زملائي، ذلك الإحساس أضاف لي نشوة مبالغة بها، زرعتْ الثقة في شخصي مثلما كنت أخطط وأهيئ ذاتي. أحيانا كنت أخلق بعض الأعذار لأرتدي بدلاتي كحجة أتساخ ملابس الزي

الموحد، لأبعد الشك والظن السيء في الوقت الذي أحاول أن أجلب نظر فاتنتي لشخصي بين الطلبة..

كما أني لم أعد أفارق مكتبة الجامعة، أتنقل بين رفوفها كعاشقٍ يبحث عن ضالته، أغوص في الكتب الخارجية، أفتش عن التاريخ والأدب، أتنقل بين الروايات العاطفية، وأتأمل في الفلسفة والدين، كأنني أستقي من ينابيع المعرفة التي لا تنضب.

وجدت نفسي تستمتع بتلك البوادي النضرة من الفكر، صرت أميل ميل العاشق للكتب التاريخية، أتنقل بين القصص العالمية، أدون في مذكرتي مقتطفات من النثر والشعر، أصيغ المواقف بعباراتٍ تجذب الانتباه، كأن الكلمات نفسها أصبحت مرآةً لعالمي الداخلي.

كانت لي بدايات لا بأس بها في الشعر قبل دخولي الجامعة، لكن الحب والغرام فتحا لي نفقًا جديدًا، أججا الإلهام في داخلي، فبت أرى الأشياء بعينٍ أخرى، أكتبها بروحٍ مشتعلة، وأتركها تتردد بين الصفحات كأنها صدى لا يخبو..

وفي احدى المرات وخلال ولوجي لغرفة المطالعة في مكتبة الجامعة، ألتقت عيناي مجددا بالفتاة الكورية، تلك التي زاغت عن نظري وفلتت من قبضة يدي كسمكة لعمق غياهب البحر، بعد أن انتزعت ذاتها بسلاسة خلال لقائنا الأول، لتغور في عمق التيه بعيدا عن قناديل عينيَّ، حتى كدتْ قدماي في البحث عنها بين شعب الجامعة.

اتجهت نحوها وسلمت عليها بلطافة، تعرفت على ملامح وجهي دون تركيز منها، كأنها نست أسمي أو تناست ذلك في حركة تمثيلية منها، أودعت نفسها في تيه من الأمر،

اضطربت، تراخت، طاف بها الخيال. وهي تنظر إليَّ كأنها غرقت بمستنقع صمت التفكير تود أن تتذكر شكلي وأسمي.. لكن هذه المرة لا مجال للهرب فأني لا احتجاها سوى دقائق لا اكثر لأضع النقط على الحروف. ابتسمت وهي تنظر إليَّ سائلة:..

- نعم تفضل، هل التقينا سابقا؟
- اكيد؛ اظاهر ذاكرتك ضعيفة أغشتك بالنسيان.
- أنا آسفة ممكن أن تذكرني بك؟
- أنا عمر سالم، كنت قد ألتقيتك قبل فترة وددت أن أسألك عن زميلتك اللؤلؤة، اعتذرت حينها، وعدتني بلقاء قادم، فلم نفلح بتحديد موعد لذلك.
- نعم تذكرت... تفضل... اللؤلؤة هههه، يا ترى من تكون؟ من صاحبت الحظ السعيد التي تود أن تسأل عنها؟ وأية لؤلؤة تفكر بها، سبق وأن قلت لك كلهن لألئ.
- شكرا للطافتك، وأنت في الحقيقة لؤلؤة نادرة. في الحقيقة أني تائه في صيغة سؤالي ومشتت في فكري، أود أن أسأل عن تلك الجميلة التي ترافقيها ذات الشعر الكستنائي.. من تكون؟ تلك الفتاة التي تجرأت على عواطفي وهيجتها؟ تلك التي شغلت فكري واقتحمت فؤادي؟ ما حقيقة وضعها العاطفي؟ ما أسمها؟ ما لها وما عليها....الخ من معلومات قد تهمني.
- كونك إنسان مثقف وطالب جامعي، هل برأيك تعتقد من الصواب والحق أن أبوح بأسرار صديقة لي؟...هل ترضى ذلك على نفسك؟... لا يمكنني سوى أن أذكر لك أسمها فقط.. وأنصحك أن لا تكل ولا تتعب ذاتك،

لأنك في النهاية لن تجد ما يناسبك، ولن تحظى بها وستتعب، ولا تسألني لماذا فلن أجيبك، لأنه ليس من حقي أن أفضفض بمعلومات ليس من حقي طرحها، ولا أريد أن أخسر صديقتي من أجلك... تفضل يا سيدي ... أسمها (هدى) وهي تداوم في كلية الهندسة، ولا أعرف عنها شيء آخر، سامحني.

- شكرا لك على ما ذكرتيه، بصراحة هذا يكفي وزيادة، لا أود أكثر من ذلك، شكرا لك....
- أجهدت نفسك كثيرا، كان ممكن أن تسأل عنها غيري وتعرف أسمها بيسر، أنها معروفة للملأ.

وقبل أن أتركها مودعا، قلت لها..

- لأنك صديقتها سألتك، وأود أن أذكرك بأسمى (عمر سالم)، فأنا طالب في كلية الآداب، أرجو أن تبلغيها سلامي.

تركتها وهي تبتسم لي مودعة، وكأنها قد فهمت المغزى وخاصة حين أكدت لها أسمي؛ فغايتي أن تنقل لها رغبتي قبل أن يجمعني بها لقاء ما، وددت أن أسلك طرق ممهدة للوصول إليها، لا أحبذ طرق الصدمات التي قد تبغضها..

طالما سمعت رأيي وفسرت مقصدي، فأكيد ستبلغها بكل ما جرى بيننا وستعرب لها الجُمل بالتفصيل.

خرجت من المكتبة وأنا أشعر بنشوة وأني على يقين من أن رسالتي ستصل لها مثلما أريد، وأني بتلك الخطوة شرعت بقص شريط الشروع، متمسكا بعبارة "من سار على الدرب وصل" أو "طريق الألف ميل تبدأ بخطوة". فيما فسرت

نصحها المبطن لي بشيء من الغيرة لاهتمامي الزائد بصديقتها.

وفي الليل كعادته زارني صديقي شاكر في غرفتي في القسم الداخلي، حيث دائما ما نقضي أوقاتنا بلعبة الشطرنج، على الرغم من أنه مبتدأ بها إلا أنه يتحمس للعبها تحديا منه للنيل مني ولكن دون جدوى.. وأحيانا نقضي سهرتنا بلعبة ورق البوكر مع شلة من تلامذة القسم الداخلي...

وكالعادة ود شمشمة الأخبار، سألني عن رحلة عواطفي من الدرب الطويل.. شرحت له ظفري بالفتاة الكورية ونتيجة لقائي بها، والتي حتما ستكون حمامة سلام دون أن اطلب ذلك منها، فالغريزة تلعب دورا في مجال العاطفة، مثلما هي الآن تحرك مشاعري لأبوح لك بهذه التفاصيل على الرغم من أنك طرف خارجي لا صلة لك بالموضع، ولكن ما يدفعني لذلك هو ثقتي بك، وصداقتي لك، واحتياجي لشخص قريب أفضفض له عما يجيش في داخلي لأسمع نصحه ورأيه، في الوقت الذي به أستند عليه وأستلهم من فكره عِبرة قد تنفعني، أجنب بها نفسي زلل المطبات....ولكن من أين! فأنا لا أجد فيك شيء نافع، أبو المثل يقول من رأس الثور خذ الشور، هههههههه.

- الثور هو الذي ينطح الحيطان دون أن يعلم بحاله، قل لي: تعشيت أم لا؟ لأني أشعر بهشاشة مخك، أنتبه لحالك قبل أن يجرفك طوفانها يا أهبل. هههههه.
- صدقني أحبك يا شاكر، لا تأخذ على نفسك أني فقط أود أن الطف الجو معك حين تكون معي؛ أشعر بوجودك ضرورة بالنسبة لي، أهجس بك قمرا يضيء

ليلي الأدهم، أنتشي بسهادي، لذا فأني أستشعر بالراحة التامة حين أفضفض لك عما يعترينـي، متأملا بوادر خير من لدنك، وعسى أن أجد في حضنك مفاتيح حل لتلك العقدة التي لا أعرف كيف أحل طلاسمها.

- صدقني هذه المرة لن تخسر قارورة بيبسي! هههههه، لكنك ستخسر جيبك وقميصك وقيافتك، أنت مجنون ولست سوي، سترهقك تلك الفاتنة التي أرهقت غيرك، ستخسرها وستخسر ذاتك.
- لا..لا.. لم هذا التفكير المتشائم، وكيف سأخسرها وأخسر ذاتي وأنا لازلت لم أصل شواطئها؟
- يا أبني!!! من يود أن ينال شيء ما، يناله بيده، وليس بأيدي الآخرين، كي لا يفسد للود قضيه، كي لا يفسدوا بأنفاسهم النتنة جمال الشيء المراد الوصول إليه.

بتلك العبارة كأنه طرق رأسي بمطرقة الحق، التصقت عبارته في ذهني كماسة براقة، صارت تنذرني بين الحين والآخر على كل تصرف أهوج وغبي أبغي شروعه، لذا بت أحتاط بشيء من الحذر الزائد وبتخطيط صامت بعيدا عن أعين الآخرين، ودون أن يشعر به النسيم الذي يستهويني...

كانه قال لي ذلك دون أن يقصد، بحيث بت أخفي عنه تصرفاتي واحتاط من ذاتي ومن هم حوالي، خوفا على تأملاتي، خوفا من الحشرات أن تفسد الفاكهة، خوفا من نظرة الحسد كما يقال، في الوقت الذي به حثني على إزالة الوصلات الجانبية التي اعتمدت عليها في وصولي للهدف المراد نيله.

تركت الحدث على حبل الصبر، بت استعين بالصمت على الجلد وكرَّة العذاب، بحيث أني اكتشفت بأن للصبر طاقة دفينة

وللصمت قوة تأثير على شرائح الفكر وعلى طرق بيت القصيد. ولتلميع ذلك الإصرار إلى الوصول للمبتغى. ففيهما تكمن قوة خفية، جبارة، فيهما طاقة أكبر من كل الوساطات، فيهما تأثير أكبر من المجازفات. فيهما سلاح خفي يفتك بالأقدار ويخترق هيافة العقد مهما تعقدت وتجلدت الأمور، أنه السر العجيب المكنون في قدرة الإنسان على التحمل واتخاذ القرار اللازم والتفكير الثاقب، ذلك النغم يتغلغل في شرائح ذهن المقابل مع الزمن، فتدب في الوصل رعشة أمل وحياة.

اكتشفت في الصبر القدر الذي يجاري تيار الرغبة، واللون الذي يبلج سواد الظن. اكتشفت بان لسيف العذاب الذي نال من البهجة روحها؛ كان قد طهر النفس من الآثام. صبر يعيد ترتيب أحجية لغز الذات، وجدت سلوة اسلي بها نفسي وبلسم علاج لذلك العناء، لذا تمسكت بالصبر والصمت، جعلتهما صديقين لي، صرت ارتديهما كمحابس عشق في بنصر الكف.

الفصل الثاني

1- اللقاء الاول

لـم أتوقـع يومـا أن تمنحنـي فرصـة تجـاوز حـدودها، وكأنهـا تسللت تلـك الفاتنـة مـن رحـم المسـتحيل، لـتلامس بحنانهـا جـراح الـروح، كأنهـا نسـيم رقيـق يـوقظ الأمـل فـي قلـب أثقلتـه ليـالي العنـاء. كـم راودتنـي الأحـلام بـأن أطـوف فـي بسـاتين فتنتهـا، لكنني كنت أسيرًا لطيف اليأس الممتد كأفق لا نهاية له.

وحـين انسـكب حضـورها علـى أيـامي، كـأن العـالم اسـتعاد ألوانـه، وكـأن جمـود المشـاعر انسـاب، ليمنحنـي لحظـة مـن الـدفء وسـط عتمـة الطريـق. هـل يكـون هـذا اللقـاء عـابرًا كسـراب الظمـآن، أم أنـه سـيظل نقشًـا خالـدًا فـي ذاكـرة القلـب؟ الـزمن وحـده مـن سيكشف السر.

منـذ أن اقتحمـت عـالمي، اشـتدت معانـاتي، كأنهـا تخمـرت فـي داخلـي، فطغـى عطنهـا فـي الأجـواء تثيـر أنـوف الشـامتين ممـن يروننـي غارقًـا فـي دوامـة المنافسـة. فـي داخلـي كـان ينمـو عصـف جنـون لا يهـدأ مـع جنـوحي الأعمـى، رافضـا أن أكـون أسـيرًا لحكايـة قـيس أو جميـل، فـلا أريـد أن تتكـرر المأسـاة معـي. قـررت أن أنهـي تلـك المعانـاة بعمليـة التصـادم التـي سـتأتي النتـائج أكولهـا. هـي ليسـت مجـرد تفريـغ شـحنات اليـأس، بـل إعـلان تحـرري مـن قيـود الخـوف والتـردد، كـأنني ألقـي بكـل مـا ركمـه الـزمن خلفـي، بحثًـا عـن يقـين يقـودني إلـى نهايـة كنـت أتجنبهـا طويلًا.

لـذلك عزمـت علـى البحـث عنهـا هنـا وهنـاك، حتـى وجـدتها متوهجـة فـي ركـن مـن أركـان نـادي الجامعـة دون أن تسـتقرأ حالـة فكـري، دون أن تنتبـه عـن الحـدث أو تشـاركني رغبـة اللقـاء..

وجدتها متكورة في زاوية من زوايا نادي الجامعة، مبعثرة كلغز يجدد ذاته بين عقد الحياة دون حل. تراءت لي وردة دون غيرها وسر من أسرار القدر الذي يتبع إرهاصاتي ويتكور في ظني.

يا رباه:..... ماذا أرى؟؟؟؟

خشف يجوب البقاع!! حمامة تائهة في جوف السماء! زهرة نائمة في كف الصباح!!!

بت أتقلب في حيرة من أمري، تتقلب الأفكار بداخلي كأمواجٍ عاتية، تتصارع بين اندفاع العزم وقيود التردد. الفرصة تقفُ على أعتاب اللحظة ولن تكرر ذاتها، إذا ما تراجعت، سينطفئ بريق العزم، يخف الصدى، تذبل أوراق الغاية، فينزوي الحلم خلف ستائر الخوف.

في مخيلتي، تتجسد صورتها كزنبقة تشهق نحو الضوء، يتراقص ألقها في فضاء، كأن حضورها هو إعلان فتنة لا تخبو. وجودها سحابة صيف تنث رذاذا على الحضور. كان عليّ أن أتخذ القرار سريعا، لا مجال للتردد. المسألة ليست مجرد اجتياز حاجز الخوف، بل التسجيل في قائمة الاهتمام.

في اللحظة التي التقت عينيَّ بعينيها؛ هجست بتغير طفق على سفر الملامح، كغصن أهتز بعد سكون فتبعثرت أوراقه، بات ينقشع سره الهباء في الأفق خلف وهج الشمس. كأنَّ وجودي غسل وجهها من الأرق. الحيرة مسحت رغاء اللين من على الثغر، شرعت الرقة تخفق في موج من الحرج. التمست ذلك التغيير من خلالها ومضة شوق مفاجئة شطت في حدقات العين دون إرادة.

شكرا يا إلاهي على تسهيل الأمر: ها هي تنتظر أن أقص شريط ولهي بها واقتحم عالمها، ها هي تتأمل أن أفض كيس معاناتي ومعاناتها. مثلما جردتها المفاجأة من سكونها وصمتها جردتني بردة فعل مماثلة لها، هجست بها أكثر قربا مما كنت أتخيل وأتوقع. غدت المسافة بيننا تتناهى وتصغر حتى اضمحلت تماما. بدخولي مجالها كأني أدخل بوابة عشتار لألتقي بعشتار بعد شوق وولهه.

كنت أهجس بها قلعة منيعة لا يمكن تسلق أسوارها، إلا بمعجزة. كنت أحسبها عودا جلدا، يابسا، لا ينكسر، ولكن ما أن أشتد الحد حتى لانت وفي وجهي تسمرت. تجلت أمامي بفتنة ساحرة، وكأنها انتفضت من سبات صمتها، كانت تبدو للعيان كنجمة السَحَرِ متلألئة في السماء البعيدة، لا يمكن الوصول لها إلا بسلطان. ملكة تجلس في عرشها، تتشح بهالة من الثقة والكبرياء. لكن خلف ذلك الجبروت كنت أرى قصة معلقة بين المد والجزر تتأمل الشروع.

في سكرة اللحظة، وجدتني أمامها، وكأنها كانت تبحث عن مسار يخرجها من التيه الذي احتواها. كانت تتأملني، كما لو أنني الإجابة غير المعلنة عن تساؤلاتها.

كان الصمت سيد المكان، لكن الأعين بَحت بما لم تنطق به الكلمات. في تلك اللحظة، بدا لي أنني كنت جزءًا من معادلة حائرة، من صراع داخلي يمتد عبر مساحات لم تبح بها. رفيف جفنيها، الارتباك الذي اجتاحها، النظرات التي تفيض بما لا يمكن التعبير عنه مباشرة - كل ذلك كشف سرًا غائرًا في أعماقها.

كان التخاطر يسري بلا حواجز، كأننا التقينا قبل هذا اللقاء مراتٍ عديدة في خيالنا. خطواتي نحوها لم تكن مجرد اقتراب، بل مواجهة لعالم من الاحتمالات، من الرغبات التي كنت أتردد في إطلاقها. كنت أحمل في يدي وردة بيضاء قطفتها من الحديقة قبل أن أدخل صالة الاستراحة، وكأنها وجدت في يدي لتعينني عليها.

حين التقت نظراتنا، كأن الزمن توقف للحظة، لم تكن هناك كلمات تفيض بشرح المكنون، بل كانت الأجواء وحدها تتحدث عن قصة بدأت تتشكل دون تخطيط، عن فرصة قد لا تتكرر، وعن شعور أعمق من أن يُقال.

اقتربتُ من سورها، وإذا بعالمها يزهر أمامي، كأن الفتنة ذاتها قد انسكبت من بين جدران قلعتها، ترسم في الأفق لوحة فسيفساء تأسر البصر. بدت لي كثمرة الناضجة، تدنو بغواية من الحقيقة التي طالما راوغتني، تسعى إليَّ كما سعيت إليها، كل منا يبحث عن الخلاص من ظنون تائهة في فضاء الاحتمالات.

بمجرد أن لمحتني؛ طرأ ذلك التغيير المفاجئ عليها، مثلما سرت رعشة التغيير بأوصالي، تلاقت الأهواء على واحة الصمت والتخاطر دون تخطيط مسبق وبهرجة، بل أني هجست بالناس المحيطة بي اشادت بسعينا، آزرت جنوننا، صفقت بحرارة ويقين لـ فلاحنا.

لم تكن على ما يرام إطلاقا؛ ولم أكن على ما يرام بسبب تشتت الأفكار وشياط القلب، كأنها بواقعها لا تختلف عن واقعي قيد أنملة، و كأنها سعت للقاء ذاتها كما سعت للقائي،

كأنها تترقب بزوغ فجرٍ جديدٍ على عالمها الغاص بروتين الأيام خال من التفكير والعقد.

بدأت تشذب حالة الارتباك التي أصابتها، بحيث نقلتها عن موضع الاستقرار لمصافي التيه والحيرة. كأنَّ ظهوري المفاجئ مسح شريط أحداث طويلة عن ذهنها، بحيث ما أن رأتني حتى انتبرت ملامحها تفيض بالفتن، صار الدم يطفق في محاسن الوجنتين والشفتين، بحيث لملمتْ أطراف الفوضى الدائرة في ذهنها لتستقبلني برواء. كأني بها كنت المارد المنقذ الذي حل في الوقت المناسب ليفك أحجية العُقد والطلاسم الملتفة على عنقها.

لم أشاهدها قط بتلك الصورة القاتمة، ولم أجدها وحيدة أبدا، وشاحُ الشحبُ كان قد غطى منازل الأنوثة بشي من الكمد، أفصحت عن ذلك بإيماءات وحركات لا إرادية افتعلتها، كعَقدِ الحاجبين وزم الشفتين، أو تمشيط فروة شعرها بأنامل يديها، حالة تعبيرية تعبر عن فيض القلق.

كان الصمت بائن في عالمها، وكأنها تبحث في صفحات السكون عن مسرب للهرب من قيد الحيرة التي تعصف بها، ففي تلك اللحظة المنفلتة كنتُ قد اطبقتُ على شرودها كقط وثب فوق حاجز الصمت، كسرتُ مرآة شرودها. قبعتُ أمامها أراقبُ سحر المقل وهيَّ تتفجر ضياء وبهاء عبر مديات الحيرة التي عصفت بها، وهي تجهد في فك قيد قرار كان قد لاك فكرها.

بدت لي غريبة الطباع، حيث القوقعة لا تستكين إلا على سطح مستنقع آسن، لذا هجست بذاتي المنقذ والمنجد والناجي

لأفقع فقاقيع حيرتها المكبلة بالهم والغم، والجاثمة على فكرها، لأزيح شوكة الألم والحزن عن حدود الغاية.

اقتربت منها بحذر شديد غير مبال بما ستؤول إليه نتاج اللقاء، حيث النفس لا تحتمل مزيدا من الجلد أن لم تغتنم الفرصة فلن تفلح في الوصول، ها هي الفرصة متاحة أمامي وقد لا تتكرر، فأنا أأمن بأن الفرص لن تكرر نفسها، يجب استغلالها في الوقت المناسب وعلى أتم وجه، ربما بموتها يموت الحلم، والحليم من يستقرأ حدودها قبل أن تتبخر وتتغير صفاتها وألوانها.

وأنا أستطلع حالتها؛ داهم فكري أمر استنبطه من واقع ظرفها، فسألت ذاتي مستفسرا:.. يا ترى!.... يا ترى؛ من أين يأتيها الحزن وهي تبدو كجوهرة متلألئة، يشع بريقها على الوجوه البائسة فينم فيها حالة التفاؤل. هي من تلطف أجواء الآخرين، هي من تشعل فتيل أحزانهم، هي من تزرع فيهم شتائل الود والفرح، هي أكثر النساء منْ لها كلمة الفصل في كل محفل.

رغم الحزن الكابت على ملامحها كالخمار؛ إلا أني أهجس بالنور ينبعث من تلك المفاتن الزجلة. رغم تلك الغمامة؛ أسمع طنين ذباب يشيع حول دبق سحرها.. فاللؤلؤة كانت قد تعودت على قرف الحشرات الدائرة حولها والمارقة في أجوائها من أمثالي، لذا أقفلتْ منافذ السمع تماما. ما أجهله هو شدة غيرتي عليها، وفيض غيضي على كل من يخاصمني بها.

على أية حال وجدت قدمي تتحرك نحوها دون إرادة مني، قوة خفية كانت جذبتني إليها، آزرتني، شجعتني على اقتحام

عالمها، ألهمتني صبرا نديا وثقة عمياء، حامل في يديَّ تلك الوردة بيضاء وكأنها تحمل مواصفات اللؤلؤة... لولا جمالها وعطرها الشذي ما كانت تجذبني، وما كنت قد عزمت على قطفها، لقد وصفت حالها بحالة اللؤلؤة التي أود خطفها من حيرتها، حينها شعرت بلحظة فيض من الأنانية قد تملكت قراري، دفعتني بغطرسة لأمتلك كل شيء جميل، فامتدت يدي إليها فقطفتها دون إرادة، متمسك بذات الأنانية التي أرشدتني إلى مكان تواجد اللؤلؤة..

ما أن اقتطفت الوردة حتى شعرت بأني قتلتها.. ربما سأقوض مشاعر اللؤلؤة وأقتلها أيضا إذا ما طاوعت رغبتي بها. ربما أحيل فرفشتها وحبها للحياة لحالة جهم دائمة، لهوامش مبعثرة في سفر الحياة.

وقبل أن ترف رموش عينيها، كنت قد سبقتها برقة السلام والفضول، قبل أن تطرق طبلات أذنيَّ بحفيف صوتها النغم، سبقتها مسلما عليها بشوق الهائم قائلا.

- صباح الخير يا أميرة.
- صباح النور...

شرعت بوجهها ابتسامة عريضة يغرق فيها الملهوف، جزلت عني ارتباكي، كأني قد سرقتها من عالمها الخفي لعالمي المتهالك، حيث أردفت تسأل باستغراب:...

- صباح الخير. الله الله.. يا ترى؛ أميرة مَنْ دون أن اعلم بحالي؟.
- اميرتي أنا، أميرة الحب والجمال والعشاق يا سيدتي...أميرة الشباب أجمعين.

- لا لا بالغت كثيرا هههههه.
- أعرفك بنفسي:.. أنا .....
- عمر سالم، طالب في كلية الآداب.
- جميل منك أن تعرفي أسمي، وشكرا لحمامة السلام التي أوصلت الأمانة.

إذا حمامة السلام (الفتاة الكورية) قد عرفتها بي وأبلغتها رسالتي بأمانة، عرفتها بشخصي، أشارت لها بطيشي. أظن الأمور لا تحتاج لفراسة، لكنها ببسطتها جعلت ذاتي تخترق الحواجز المنيعة دون وساطة.

إذا عرفت بأني طالب في كلية الآداب من خلال صاحبتها، المهم أنها عرفتني وتلك هي غايتي ومرادي لأصل لشواطئها، لأغرف من نمير حسنها غرفة تعيد لي توازني، يجب أن أكون معروفا لها، وإلا سأغرق بأول موجة هادرة.

لم أكن اتاجر بمشاعري، ولم أتجرأ لولا شعوري بأنها لها رغبة ملحة في التعرف على شخصي، كأني كنت قد قرأت طالعها من خلال تلك النظرة الخاطفة التي أصابت بها مقتلي. تلك التي لذعت حراشف الفؤاد وأحرقت أوراق الشك المركونة في جعبتي، بتلك الشرارة أزاحت المعوقات عن الدرب نحو الهدف. فقلت لها:...

- يا ترى؛ هل تتقبل اللؤلؤة الجميلة هذه الوردة الجميلة من معجب كسير بها؟ عساها أن تهدئ من روعك وتزيح هالة الحزن الشفيف عن عينيك الجميلتين، لتزيدهما سحرا وبهجة.

- شكرا لـ ذوقك الرفيع. لقد توسعت كثيرا، لؤلؤة ثم أميرة، لا أعلم ما خطبك؟.. فراستي أحيانا تنقذني من براثن الشرك قبل أن أكون فريسة سهلة المنال لصياد أعسر....من شهر أو أكثر وأنت تتبعني، ماذا تبغي؟ وماذا تنتظر؟ ماذا في بالك وورائك؟..
- بل أجزم من ثلاثة أشهر بالضبط، كنت أنتظر خلف الاسوار فرصة كهذه تجعلني في هذا المكان، لأتعرف عليك عن قرب، لأرضي هذا القلب المسكين بشيء من عطفك وحنانك، لأهدِئ من دقاته وأخف من تفكيري المضطرب وعبث خيلائه، لأروي عطش عيني الجريئة من نمير حسنك.
- الله الله... شكرا لك على إطرائك... لكن.. إلا ترى بأنك قد تجاوزت حدود اللياقة؟ والاعتداء على أملاك غيرك؟
- أملاك غيري!!!! لم أفهم المغزى، ربما... ولكن..... لا تحرجيني، أنا أسير هذا الجمال.... الأمر خارج عن إرادتي، أنني مسيرٌ بمحبتك. وأن كنت تودين أن أرحل؛ لن أقف أمام رغبتك لحظة.
- لالا- تفضل بالجلوس، أود التعرف عليك عن قرب.
- شكرا لك.

لامست الوردة شفتيها برقة، كأنها استسلمت لدفء أنفاسها، فتماهت مع نعومة خديها حتى باتت جزءًا من فتنتها. لم أعد أميز بين ألق الوردة وسحر ملامحها، بل وجدتُ أن إشراقتها تفوق كل ما تحمله الزهور من نضارة وجمال.

حين تراقصت أشعة الشمس على وجهها، ازدادت إشراقًا منحها الضوء وهجه الخاص. بيننا كان السحر يخط ظلال الخجل والحياء في بريق العينين، يذوب كالزبد على وجنتيها، يتخلل أسارير الحسن في ارتعاشة اللحظة.

بدت لي هي والوردة امتدادًا لبعضهما، صنوان في أصيص العشق، تنبضان بالحياة، كأنها كانت لحظة ولادة جديدة، حيث لا شيء يفصل بينهما سوى شغف يتجلى في هذا المشهد المتكامل.

يا له من صرح مرمري ذلك الصدر النابض، والجيد الأملس القائم بشراسة، كعامود مرمر يعتلي ذاك الصرح المتوج بهامة تشع منه قناديل الحسن.. يا لها من مياسم مشرئبه بسحر الأنوثة تلك الشفاه الملظة كورق الجلنار، الأنف دقيق مبلور من عصف كبرياء وفتن، العينان براقتان كواحتين مسورتين بسعف النخل، الشعر منسوج من رهافة القطن وفيض الأنوار بلون الصبح البهيج. كل شيء فيها يبهج النفس من الراس حتى القدمين.

أخذتني بسر جمالها لعالم الهمس والخيال، لساحة الدفء، متعلقا بافتناني بها، بحيث برقتها كانت قد غطت على صدى اشتياقي لها، سحرتني، جعلتني أهيم ببراحة الصمت، أتبع هاجس الجنون الذي يتنقل بي بين تلك المباهج من الرياض.

كنت أصغي لها وهي تعمد مرتكزات حديثها السلس بامتنان، حين سألتها عن أسباب تغير مزاجها حيث قالت:....

- حقا أني مضطربة في داخلي، كل له ظرفه، العقد والمشاكل كالغبرة تلتصق بالإنسان وهي أمور طبيعية، في صيرورة الوجود، تتشبث المعاناة بالإنسان كما لو

أنهـا جـزء أصـيل مـن تكوينـه، ترافقـه كغبـار لا يمكـن الـتملص منـه، تتـراكم فـي زوايـا الـنفس كأنهـا إرثٌ لا فكـاك منـه. لا تـأتي الأحـزان بـإذنٍ مسبق، بـل تتفجـر فجـأة كبـراكين جامحـة، تـدكُّ مسـارات الطمأنينـة، وتبعثـر الركـائز التـي ظننـاهـا صـلبة.في مجتمـع يضـيق بحـدوده، حيـث الفضـاءات محـدودة والأنفـاس تختنـق داخـل إطـارات مألوفـة، تصـبح الأحـلام رهينـة للعوائـق، والكـوابيس زوارًا دائمـين لا يغـادرون حتـى حـين تُغلـق الأعـين. هنـاك ظـلال تتسـلل إلـى دواخلنـا، لا تُـرى بـالعين، لكـن آثارهـا تنطبـع علـى الـروح، كقطـع إسـفنجية تنهـب الصـفاء وتمـتص راحـة الفكـر، تتـرك الإنسـان فـي متاهـة مـن التكـرار، مـن الـروتين الـذي لا يعـرف الانفـلات. لكـن وسـط هـذه الفوضـى، يظـل هنـاك نـزوع داخلي نحو التحرر، نحو كسر القيد الذي يحدد الأفق.

- حاولـت أن أغيـر مـن مجـرى الحـديث، انتقـل لروافـد جانبيـة بعيـدة عـن مسـتنقع الشـجن، محـاولا أن أزيـح وشـاح الحـزن عـن وجـه اللقـاء، فسـألتها عمـا تـود أن تشرب أو تأكل؟ قالت:...
- قهوتي مرة إذا سمحت.

جلبـت فنجـانين مـن القهـوة المـرة مـع قطعتـين مـن الشـكولاتة حيـث الخدمـة ذاتيـة.. بـ ارتشـافها شـعرت بمـرارة تلـوك علـى لسـاني وكأنهـا أكثـر حـلاوة وعذوبـة مـن تلـك المشـبعة بالسـكر، فقلـت لهـا وأنـا أرشـفها بـرواق، وهـي تسـتل الأرق مـن نسـيج فكـري بهـدوء سـحرها وسـكينة فتنتهـا. مـن خلالهـا وددت أن

أزف أحاسيسي إلى أحاسيسها، عساها أن تجلي الهم وتريح الذات.

فقلت لها: .....

لم أشرب القهوة منذ زمن

ولأجل عينيك

سأرشفها مُرة...

ها هي رائحتها تزكم الانوف

وفي سرها تكمن المسرة

لم أشربها وأنا ساهد الليل

رغم تقلبات الفكر

وسِحرَ القمرْ

رغم حيثيات الود

والصمت والسكون ومنابع الفتن

حيث أعلم بأن السُكّرْ

فوق شفتيك تحمرْ

- الله الله يا شاعر أغدقنا من منهلك...

أطلقت ابتسامة ملئها أعجاب وسرور، وكأنها تفاجأت من قدراتي الشعرية.

- لست شاعرا كما تظنين، لكن سر جمالك حرك عاطفتي، ألهمني تلك المقتطفات... صدقيني؛ من يجلس أمامك يتغير بتكوينه الفكري والعقلي بـ 180 درجة، أنت ساحرة، براءتك عناقيد كروم تجمل شجرتك، لطافتك دفء شمس تزيح برودة الأجواء، أنت فاتنة، قاتلة، مجرمة، تقبضين بيديك على مفاتيح القلوب المقفلة.
- الله الله كل هذه المميزات اتصف بها وانا لا أدري بقدراتي الذاتية؟ هههه.
- واكثر من ذلك.

ارتشفنا القهوة المرة على منتجع الأحاديث الشيقة. تلك التي شذبت التعب من البدن، حيث ابتدأنا بالتعارف والأعجاب، خاصة في ما كان يختزلني ويمتص صبري، وما كان مكبوت في قلبي. حيث تطرقنا في أحاديث تخص علاقات الطلبة مع بعض الطرائف التي تخللت أحاديثنا لتغير الأجواء، وقد عبرنا فيها الحواجز المانعة لساعة من الزمن.

وقبل أن تبدأ المحاضرة التالية استأذنتها شاكرا مودتها وحسن اللقاء والمجاملة، متمنيا تكرار اللقاء في وقت آخر. قالت:...

- حسنا يا عمر على الرحب والسعة متى ما شئت، ستجدني هنا أو في مكتبة الجامعة.

تركتها تتمرغ في هوس اللقاء الذي كان مفاجئا لي ولها، لم أكن أتوقع لبذور الحلم أن تقدح في شجوني، لم أتوقع أن أنعم معها بهذا الحديث السلس المفعم بالحيوية، فهي أشبه بالسهل الممتنع، إضافة لقوة الشخصية التي تتملكها، ترافقها طيبة

وجمالا وأنوثة ساحرة قل نظيرها إذا ما قارنتها بضعف إمكاناتي النفسية وقدراتي الثقافية والمادية، فأنا لست غنيا بما يعينني على إضاءة جوانب من حياتها وأجوائها ولو بالممكن، كي استطيع أن أغريها وأجاريها.

ذلك ما كان يخامرني ويقلقني. فالجمال والغنى، عاملان أساسيان في بزوغ شخصية الأنسان، الفترة الأولى دائما ما تكون حرجة ومهمة جدا في حياة الأنسان، أضافة لعامل الثقافة والشجاعة والكرامة والكرم وعوامل أخرى مساعدة مكتسبة ووراثية كالبشاشة والنكتة والطيبة والحدة ووو...الخ.

هي تمتلك تلك العوامل مجتمعة...أما أنا، فلا أمثل أمامها سوى وجه عادي جدا، يفتقر لكثير من مستلزمات الحياة الأساسية إلا الكرامة التي لن أتنازل عنها.

أحيانا يصعب عليَّ دفع قيمة كتاب يعجبني، أو قميص أجده مناسبا لي. رافقني الفقر منذ الصغر، كأنه ولد معي أو تبناني بالوراثة، أذكر حين كنت طالبا في مرحلة المتوسطة حين كنا نعيش كأسرة مجتمعة تحت ظل الوالدين، كنت أنام في بنطلون المدرسة، لأن أبي لا يمكنه شراء ملابس لسبعة أخوة مجتمعين دفعة واحدة وهو فلاح ينتظر محصول السنة في نهاية المشوار، في ظل تزايد حاجات البيت وغلاء الاسعار وتكالب الزمن.. لذا كان يقسم مصروفه على حسب أهمية الحدث.

كنا نقدر ضعف إمكاناته، حيث كان يشتغل بكامل طاقته على كبر سنه، إلا أن المردود العام كان ضعيفا، لا يسد الحاجة الملحة لأفق الحياة المتجددة، خاصة مع تطور تكنلوجيا

الحاصلة في جميع مجالات الحياة، وبالذات المنزلية منها التي دخلت أفاقنا على حين غفلة، كالثلاجة والغسالة والمكنسة الكهربائية والمكواة والتلفزيون ووو...الخ من حاجات حتى أدركنا الكومبيوتر والموبايل وألعاب الدجتل ...الخ. تلك الحاجات أصبحت فيما بعد لا غنى عنها في مسيرة حياة الفرد.

ما كان يزيد الطين بلة، كنت دائما ما أرى بطن أمي منتفخا، كانوا على بساطتهم لا يمنعون أنفسهم عن المسافحة والأنجاب، كنت أشعر بعقدة الحمل كوبال قادم مع استمرار الفقر كضيف دائم بيننا... مع ذلك الوضع المزري؛ كانوا يبررون الحالة إلى أن كل طفل قادم يأتي برزقه معه. حيث يقول الله تعالى: وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا (31). صدق الله العظيم. رغم ذلك الإيمان ولكن الوضع العام وتقصير الدولة كان واضحا تأثيره.

ما كان يبهرني ؛هو التآلف العميق والانسجام بين الوالدين على الرغم الفاقة المشاعة، كانا يعملان كخلية النحل لإسعادنا.. حين كان أبي يقضي جل أوقاته في العمل، كانت أمي مسبوكة هي الأخرى في عمل جانبي إلى جانب شغل البيت، تجهد ذاتها بعمل الخياطة لأبناء وبنات القرية بإتقان ماهر وباهر.

كانت الأم هي الجسر الذي عبرتُ بفضله نحو المستقبل، القوة الصامتة التي تصدّت للعوائق دون أن تكلّ، والإرادة التي لا تنكسر مهما أثقلت الحياة أعباءها. في زمن كانت الأزمات تثقل كاهل والدي، كانت هي اليد التي تلتقطنا، تقيم لنا سُبل العيش،

وتجعلنا نتجاوز محنة الفقر الذي فرضته الحكومات الجائرة رغم وفرة خيرات الوطن.

لم يكن الحمل المستمر عائقًا أمام تصميمها، بل كان تحديًا تصر على تجاوزه، توازن بين الأمومة والكفاح، بين العناية بنا وسدّ احتياجات الأسرة. بفضلها، لم يكن الفقر نهاية لطموحاتنا، بل محطة تعلمنا فيها معنى الإصرار، كيف يُصنع الأمل من قلب العسر، وكيف يكون الحلم أقوى من القيود التي تحاول إيقافه.

هي ليست فقط أمًا، بل معجزة صغيرة تملأ حياتنا بثمرات كفاحها، امرأة تفهم أن العطاء لا حدود له، وأن الأمل يُزرع كل يوم بالصبر والتحدي. بوجودها، أصبح للمستقبل ملامح واضحة، وأصبح لرحلتنا نحو النجاح معنى أعمق، يتجاوز مجرد السعي، ليكون امتدادًا لإرثٍ من القوة والتضحية.

على الرغم من أنَّ الخوف هو هاجس دائما يرافقني، يحذرني من أن أسقط في هوة الفشل، إلا أنه هو ذاته كان الدافع لكسر حاجز الصمت والخجل الذي كان يحيل بيني وبين غايتي المنشودة. لذا وجدت بالطَرقْ المستمر أنعم خشونته، استندتُ على الصبر لنيل مآربي، لرفع درجات الحلم لواقع اليقين.

لذا كانت خطواتي شبه مدروسة ومبرمجة، مستندة على قوله تعالى: {فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} [آل عمران:159]. وهي حالة ألتزم بها في كل مشاويري.

فيما سبق كنت أنعتها بالمتعالية بين الطالبات، أوصفها بالطاووس بين الطيور، دائما ما أجدها في لباس أنيق ومن

أجـود أنـواع الماركـات، تجمـع فـي سـلة أنوثتهـا سلسـلة مـن الجواهر الثمينة. لذلك كنت أخشاها وأنا الأسير في هواها.

وأنـا جـالس فـي قاعـة الـدرس كنـت منشـده البـال بلقائنـا، صـرت أعيـد سـيناريو الحـدث مـرات ومـرات بكـل مـا جـرى مـن حـديث بيننـا، بكـل مـا نطقـت وبعثـرت مـن درر خزقـت بهـا ذهنـي، بـت الـوك بتلـك الكلمـات بـين طـواحن الفكـر، محـاولا هرسـها وتفسـيرها؛ حتـى أنـي خرجـت مـن المحاضـرة مشـتت الـذهن، دون أن أستوعب منها مضمون الدرس.

هجسـت بـذاتي قـد ورطتهـا فـي معمعـة عشـق وغـرام دون أن تكـون لمسـت الفـارق إمكانـاتي البسـيطة وقـدراتها، فـلا يمكننـي أن أجـاري أحلامـي بمآربهـا.. كـأني تعثـرت بشـباك التـف علـى قـدمي فـلا اسـتطيع إنقـاذ ذاتـي منـه، بـل أنـي اضـحيت اسـير أخطبـوط فكـر التـف علـى ظنـي الخائـب، لـذا تركـت الامـور علـى غارب الزمن يتكفل بها.

2- الزخة الأولى

أثناء عودتي من الجامعة إلى القسم الداخلي القريب من مبنى الجامعة، هجست بحالة من الارتباك تطغي على سلوكي، وكأني مراقب من قبل الشيطان، سائرا لوحدي برفقة تلك الهواجس والإرهاصات المجنونة التي هاجمتني من سعد وقلق وضروب ظن حملتها جميعا في جعبتي. كنت أسير مع سور الجامعة على رصيف الشارع المؤدي إلى مجمع السكن، ماشيا بانتشاء وبشيء من الغبطة، برفقة حيرة تكبل سعيي مع كل خطوة أخطوها، لا أعرف كيف سيكون شكل اللقاء القادم، ماهي الخطوة التي علي اتخاذها، سارحا بين نشوة اللقاء وهموم الغد الثقيلة.

وأنا أسري بخطواتٍ غير مبال بما يجري من حولي؛ هفا بي الخيال لجنان الأحلام الوردية، أحالني لـ بصير أعمى لا يرى سوى الغد بعيون اللؤلؤة، بحيث صرت لا أنتبه على من حولي في الطريق سوى أن أمضي بمسرب مستقيم تتلقفه خطوات القدم بكلِّ تُؤَدَةٍ ورويَّة، وكأني أسير على وفر من الثلج، متبعا البهجة المتراقصة في أعماقي والسرور الذي تأبط الفؤاد، مبهور بإنجازي، متمسك بغايتي. كأني أصبحتُ أمشي بهيام قيس الملوح مناجيا ليلى.

ما حدث في ذلك اليوم لم يكن حدثا عاديا إطلاقا، بل نقلة نوعية في مجرى حياتي، تحولت من رجل مجهول لآخر مرموق في نظر الجميع. على الأقل ذاك ما كنت أشعر به، اللقاء أحدث تغيير عام في سفر تأريخي، ثورة ضد الخجل والكسل، اللقاء كان نقطة تحول حقيقية، دبَّ نشاطا في الفكر

والجسد، أضحى يرشدني نحو سدرة الشوق والمنتهى، نحو صومعة الغرام والغزل، تلك التي أود أن أنهي بها معاناتي كما يجب.. كان اللقاء بمثابة حدثٍ جَلَلٍ جلجل سكوني، جعلني أتمسك بقرص الشمس، متأملا الغد بتفاؤل.

خطوة جريئة ترتبت على أثرها شكل المصير في ذهني، أهجس بها وضعت القدم على المسار الصحيح، أملا أن أتجاوز قناطر المعاناة التي حتما ستكون أمامي، وذلك بأتباع نهج المحاضرة التي اغنتني كثيرا عن المسائلة والتيه الذي كنت سارحا فيه. اللقاء جعلني أمسك برأس الخيط المقطوع كدليل مادي لمبتغاي.

لم يكن الطريق سوى امتداد للنشوة التي اجتاحتني، كانت السعادة خفيفة، ترفعني فوق ثقل الأيام ومراوغاتها. الفقر، الروتين، العجز، كلها غدت كظلالٍ باهتة، كأنني خلعت عني عباءتها الثقيلة ومضيت بخفةٍ نحو المجهول، مغمورًا بعبق اللقاء الذي ملأني حتى آخر نبضة.

ولكن الحياة، كعادتها، لا تسمح للمشاعر أن تبقى طاهرة من المفاجآت، فقد باغتتني بلحظة قاسية، كأنها قررت أن تنتشلني من نشوتي بلمسة ساخرة من القدر. لم أنتبه أنني كنت مراقبًا، لم أشعر بأن هناك من ينتظر لحظة الانقضاض على عالمي الصغير.

وفي غفلة، بينما كنت أقطع الشارع، عند بركة صغيرة خلفتها أمطار الأمس، ظهرت تلك العجلة المسرعة، كأنها لم تكن تمضي فقط، بل كانت تحمل رسالة من الواقع المر، كانت قد طست في المياه، فرشتني بأمواج من غراء الطين، غسلتني

مـن رأسـي حتـى قـدمي. فجـأة، لـم أعـد ذلـك الشـخص الـذي كـان يسـير بخـيلاء، بـل غـدوت مهرجًـا فـي ثـوب مشـوه. كـأن القـدر أراد أن يـذكرني بسـخرية الحيـاة، وأن النشـوة لا تعنـي النجـاة، والفرح لحظة لا يدوم طويلًا.

فـي بدايـة الامـر لـم أسـتطع أن أميـز نـوع العجلـة ولا أعـرف إن كانـت المسـألة عفويـة أم مقصـودة، فـي تلـك اللحظـة، انقلبـت النشـوة إلـى اضـطراب، تحولـت السـعادة إلـى قلـق متسـارع، كـأن الزمـان توقـف أمـام وقـع الكلمـات التـي اخترقـت سـكوني. لـم يكـن الصـوت واضـحًا، لكنـه حمـل فـي طياتـه تهديـدًا لا يحتمـل التأويـل، كأنـه إعـلان صـريح بـأن اللقـاء لـم يكـن مجـرد صـدفة عابرة، بل تجاوزًا لحدود مرسومة بصمت لا يُناقش.

أغرقتنـي المفاجـأة فـي بحـرٍ مـن الرعـب، المشـهد كلـه تبـدل، وكـأن الأرض نفسـها لـم تعـد تحملنـي بطمأنينـة كمـا كانـت قبـل لحظـات. بعـدها طـرأت مسـامعي عبـارات تهديـد واضـحة، صـريحة. لـم أميـز الصـوت، لكنـي فهمـت المغـزى تمامـا، عبـارات جارحـة، فيهـا شـتيمة ومسـبة وتحـذير، صـرعتني الواقعـة، العبـارات لـم تكـن مجـرد تحـذير، بـل إنـذارٌ، إنـذارٌ مغمـوس بالغضـب والعدائيـة، يُرسـم كنـذير شـؤم فـوق مسـار كنـت أظنـه طريقًـا مفتوحًـا نحـو الأمـل. تحـذرني مـن مغبـة مواصلة لقائي باللؤلؤة، حيث قال بوضوح:...

- أسـمع يـا تافـه.... لقـد تجـاوزت الحـد وتجـرأت بـالجلوس إلـى طاولـة السـيدة، أحـذرك مـن تكـرار الحالـة، فـي المـرة القادمة سنرشك بالدم بدل المياه الآسنة.

في تلك اللحظة، انقلبت النشوة إلى اضطراب، تحولت السعادة إلى قلق متسارع، كأن الزمان توقف أمام وقع الكلمات التي اخترقت سكوني. لم يكن الصوت معروفا، حمل في طياته تهديدًا لا يحتمل التأويل، كأنه إعلان صريح بأن اللقاء لم يكن مجرد صدفة عابرة، بل تجاوزًا لحدود مرسومة بصمت لا يُناقش.

بسبب وقع المفاجأة، شعرت بوجل تملك شخصي، أخرس لساني، لم أستطع أن أرد على نعراته، هجست بأطرافي قد هزلت، اصيبت برجفة وهوان، بحيث فضلت الصمت والسكوت على التبجح والعناد.

فعلا كان لصوته الجهوري خيفة مرة، تسللت إلى النفس على حين غفلة كرصاصة قاتلة، صوت غليظ، ناشز، مقزز، ساخط، أرعب جوارحي، بسلوكه الأهوج؛ جعلني أفكر مرارا بجدية تهديده، يا ترى؛ من يكون هذا المعتوه الذي تجرأ في عدوانه؟ ما علاقته بها؟ ماذا يبغي منها؟ لوكان إنسان سوي وعلى قدر من الجدية والأناقة والرزانة ما تصرف بهذه الشعوذة، أكيد أنه شخص معتوه، فاشل، يود أن يفرض ذاته بالقوة والترهيب عليها وعلى من يقترب منها.

راحت الأسئلة تتوالى في ذهني كدوامةٍ تعصف بي، تتقاذفني بين الشك والدهشة، بين الغضب والاستفهام. هل يظن أن فضاضته تمنحه حق السيطرة عليها؟ أم أن تهديده ليس سوى انعكاس لضعفٍ داخلي، لم يعد قادرًا على إخفائه؟ هل دفعته غيرته العمياء إلى الانتقام مني، أم أنه فقط يحاول إثبات ملكيته بطريقةٍ قاسية؟

تغلغلت الحيرة في أعماقي، تبحث عن إجابة لكل هذا التصرف المتهور. هل يظن أن الحب يُقاس بالتهديد؟ أم أن عناده دليلٌ على خوفه من فقدانها؟ كنت أفتش عن معنى لهذه المواجهة غير المتوقعة، عن تفسير لذلك الغضب المشحون بالعدائية، لكنني أدركت أن الزمن وحده هو القادر على كشف الحقيقة، على تعرية الدوافع المختبئة خلف هذه الكلمات الجارحة. ففي النهاية، لا شيء يبقى مستترًا إلى الأبد.

لكنني بعد تلك المعاناة والإرهاصات التي عصفت بذهني وقلبي ومشاعري وبعد الكم الهائل من التفسير والتظليل التي سرحت بها، وبعد حيص وبيص وتمحيص الفكرة؛ توصلت إلى نتيجة مقنعة وغير مرضية، ألا وهي بأن هذا شخص لابد أن يكون معتوه غير سوي، ربما تُيمَ بها كحال الآخرين من الشباب المرفوضين من قبلها، فأضحى مجنونا في هواها.. عنجهيته تدل على ضعفه ويأسه، لم يحتمل مأساة فقدان تلك الجوهرة الثمينة بلحظة غفلة فلن يستطيع تعويضها؛ فسلك سلوكا أرعنا معي. المحبة العمياء إذا ما كانت من طرف واحد؛ تحول الفرد لوحش همجي.

بعد رحلة طويلة من التفكير والتأمل، وبعد أن عصفت بي المشاعر بين التفسير والتشكيك، أدركت أن هذا الشخص لم يكن سوى أسيرٍ لوهمٍ صنعه بنفسه. ربما كان مهووسًا بها، كغيره ممن رفضتهم، فتملكه الجنون حتى باتت عنجهيته انعكاسًا ليأسه، وصراعه الداخلي الذي لم يجد له مخرجًا سوى العدائية.

لم يحتمل فكرة فقدانها، لم يستوعب أن الجوهرة الثمينة أفلتت من بين يديه، فاختار أن يواجه ذلك بأسلوبٍ أرعن، كأن

الغضب وحده قادر على تعويض خسارته. لكن الحقيقة كانت واضحة؛ المحبة العمياء حين تكون من طرف واحد، لا تصنع عاشقًا، بل قد تحول الإنسان إلى كائنٍ همجي، يرفض الاعتراف بالواقع، ويغرق في دوامة من التملك والإنكار.

ففي النهاية، لا يكن تهديده سوى صرخة ضعف، محاولة يائسة لاستعادة شيء لم يعد له، وكأن العنف قد يصبح وسيلة لإخفاء هشاشة المشاعر التي لم تجد لها صدى. الزمن وحده سيكشف إن كان هذا مجرد انفعال عابر، أم بداية لسقوطه في هاوية لا قرار لها. هكذا فسرت الأمر من وجهة نظري الخاصة.

في الحقيقة الحياة دون حب أشبه بعلبة فارغة تصفر بها الريح، تعج بها مخاوف وشجن لا ينتهي، كرحلة في طريق مجهول. فما بالك أن كانت أحد طرفي الميزان تلك الجوهرة اللؤلؤة!!. لذا من حقه أن يثور الشخص على ما يعتقد بأنها من ممتلكاته الثمينة، ومن حقه أن يفعل ما يشاء حفاظا على رمق المودة.

بضني كل من له خيط رفيع يربطه بتلك الفاتنة؛ سيتأسد على كل من يقترب من حدودها. سيثور من أجل غايته، ولن يسمح لأي كائن مزاحمته على قمة الهرم ولو كلفه ذلك عمره، فالمعني لن يدع الحالة تمضي بهدوء دون ردة فعل شرسة تشعره بكيانه ووجوده أمام من يهوى.... نعم ردت فعله كانت عنيفة جدا، لكنها طبيعية من وجهة نظري إذا ما أخذنا بعين الاعتبار قامة ورفعة ومكانة اللؤلؤة بين النساء، لذا حاول بكل قوة منعي من تخطي الحد المسموح به والذي يؤثر على وجوده وكيانه في موقعه المراد ولو بالممكن اليسير.

بعد تلك الصفعة المباغتة، وجدت نفسي مغمورًا في وشاحٍ من الطين والبلل، كأن القدر جردني من هويتي في مشهد عبثي لم أكن أتوقعه. حتى شعري انسحب تحت ثقل الوحل، متماهياً مع الفوضى التي أحاطت بي.... أما ذلك المعتوه لم استطع تحديد ملامحه وهو قابع في عجلة سوداء رباعية الدفع، لا وجه له سوى ظل غضب أحاط بالموقف. المفاجأة لم تكن في ظهوره، بل في الطريقة التي استأصلني بها من نشوتي، أغرقني في دوامة من التشتت. لوحة سيارته، التي كان من الممكن أن تكون مفتاحًا لمعرفة هويته، طمست في الوحل كما طمست ملامحي، ابتلعتها الشرائح الطينية اللازبة، كأن القدر أراد أن يبقيه مجهولًا، أن يتركني أمام سؤال دون إجابة، وأمام مصير لم أخطط له، أو ربما هو تعمد إخفاء لوحة عجلته.

بعد أن تقيء بتلك الكلمات القذرة ترك المحيط مغادرا، وترك في جعبتي مفرقعات الهم والغم والأسئلة تتفجر على نار وجعي، نثرت شظاياها على كل يقين كنت أتمسك به. تركني في دوامة من الأسئلة التي لا إجابة لها، كأنني عدت إلى نقطة الصفر، حيث العجز طل برأسه، حيث الألم اعاد تشكيل المشهد، وحيث الهوى أصبح عبئًا لا خلاص منه.

في لحظة واحدة، شعرت أنني لم أعد كما كنت، أنني فقدت شيئًا لم أكن أعلم أنني أملكه. كأنني شجرة جردتها الريح من أوراقها، كأن زهرة الألق التي كنت أراها في الأفق قد قُطفت قبل أن ألامسها. زرع في داخلي وجلاً لم أعهده، جعلني أتوجس خطواتي، كأن الطريق الذي كنت أسير فيه أصبح محفوفًا بالشكوك.

لـم يكـن مـن السـهل تجـاوز هـذه اللحظـة، كـان لا بـد مـن فتـرة نقاهـة، مـن إعـادة ترتيـب الأوراق، مـن اسـتيعاب مـا حـدث قبـل أن أقـرر إن كنـت سأواصـل المشـوار، أم أننـي سـأتركه خلفـي كذكرى مرة.

أضـحى الهـم فـي صـدري كحمّـى تتغلغـل فـي الجسـد. منـذ تلـك اللحظـة، بـت أحسـب كـل خطـوة بـألف حسـاب، أدخلـت نفسـي فـي دوامـة العقـد، لا لحمايـة نفسـي فقـط، بـل لصـيانة كرامتـي وهيبتـي التـي اهتـزت تحـت وقـع المفاجـأة. كـان الحـدث بمثابـة إنـذار لأنهـي مسـيرتي مـع اللؤلـؤة، لأسـدل السـتار علـى نوافـذ الشـوق التـي أضـاءت أيـامي... لـم يكـن القـرار سـهلًا أبـداً، ولـن استسـلم لليـأس، لا زلـت واقفًـا علـى حافـة الحلـم. الكبـت والتضـور تسـلل إلـى مشـاعري، أحـال عزمـي النافـذ إلـى بـرود، قيـد أطرافـي المرتعشـة بالعجز، كأنني أصبحت سجين قرار غير مستعدٍ لاتخاذه.

ظـل الفكـر مشـغولا فـي غيـه، تحـت شـق العـذاب وعصـف الحقيقـة، بحيـث امتـزج غلـو الشـقاء بوجـل الخيبـة، بغـراء الفشـل والتعاسـة. بـل الأعـم مـن كـل ذلـك شـعرت بفعلتـه قـد اذاب شخصـيتي، جعلهـا تصـغر أمـام نفسـي وقـدري. حينهـا أسـرعت بخطـى العـودة للسـكن بعـد أن تركنـي ذلـك المعتـوه أشـبه بالسكران المتسكع بأزقة الحيرة...

خـلال عـودتي وأنـا مشـغول بهـول الحـدث ومـا سـتؤول إليـه مـن نتـائج علـى صـعيد النفسـي والجسـدي والعـاطفي، بقـي الـذهن منشـغلا بفـك طلاسـم العقـدة التـي أُبرمـت أمـام سـعيي، دون أن ألـتمس مـن الفـرج شـذرة أمـل، حيـث بقيـت الوشوشـة تصـيخ أذنيّ.

وأنا في قمة أزمتي النفسية؛ إذ بصديقي شاكر يقابلني في الطريق دون موعد، كقط وثب أمامي، ليرى ويدون بأم عينيه تفاصيل حالتي المذلة..

كان في مشواره قاصدا محل (السوبر ماركت) القريب عن السكن الداخلي للطلبة ليتبضع علبة سجائر التي لا يستطيع أن ينفك عن شرورها.. ما أن شاهدني؛ حتى شعرت في نظرات عينيه عبث واستصغار واستهزاء وتشفي، نم عن غضب أعترى ذهنه، بحيث بهت من غرابة الصورة المزرية التي شرحت له تفاصيل الحدث برمته دون أن أتكلم، دهش من قرف الحالة التي وصلت لها دون أن أراعي كرامتي، كان المنظر مأساويا، غارب في الأسى، غير مألوف له، وخاصة بما عط به جسدي من نتن الرائحة، مما علق ببدلتي من غراء الوحل. حينها قال لي وهو مبهوت بما يرى:...

- من أرى؟... شمشون؟ شبح نازل من المريخ؟ هههههههههه، من فعل بك ذلك؟ ماذا جرى لك؟
- مثلما ترى، وأنا سائر في الطريق، عجلة مسرعة رشتني سيارة بمياه الأمطار.

ثم شرحت له تفاصيل ما حدث معي، عسى أن ينجدني برأيه، حيث كنت لم أزل واقع تحت تأثير الصدمة، خوفا من أن تتكرر الحالة آخذا بجدية التهديد الذي وصلني.

- لا، لا... لا يمكن السكوت على ما حدث، يجب أن تقدم شكوى ضد الجاني في الأمم المتحدة. هههههه.
- إلا تكف من ترهاتك؟...ثم من هو؟ أنا لم أستطع أن أتعرف عليه، لقد غدر بي على حين غفلة من امري،

ثم أنه كان في عجلته متخفيا، مثلما تحولت لشبح بفعل مياه الأمطار تحولت سيارته كذلك، هي الأخرى تلطخت بالوحل، لم أستطع تمييز أرقامها، غطها الطمر... لغم وأنفجر أمامي، أفزعني، فززني من النشوة الآنية التي كنت أعيشها. لقد بين لي لفائف حجمي الحقيقية، فأحسست بذاتي حشرة يمكن دعسها بأية لحظة.

- كنت قد نبهتك منها ولم تأخذ بنصحي، هذه الفتاة قنبلة موقوتة، قد تفنيك بلحظة، تبدد أوراقك، لا تقترب منها فخلف سكونها تكمن زوبعة، لن تدعك أن تستعد لها إطلاقا. صدقني أني أريد مصلحتك؛ لن تجني من هيامك بها سوى العناء والبلاء والذل والمهانة..

لا تكن غشيما، هيَّ غاية في عين الجميع وغاية من الأسرار، صورة تعشقها الوحوش من أسود ونمور وكلاب، وأنت مجرد أرنب صغير في عالم الوحوش، كيف بك أن تواجه كل هؤلاء بهذه القيافة؟

- أجل نصائحك ودعني اذهب لاغتسل وأغير لبسي، الآن فكري مضطرب، لا أستطيع أن أرسي على بر، مشتت الذهن، أحتاج لهدوء ومراجعة الذات، دعني أذهب وأراجع قراراتي. أستأذنك.
- مع السلامة

دلفت للسكن محاولا أن أهرب من أعين الزملاء والطلبة، كي لا أعرض نفسي لتساؤلات شتى أنا في غنى عنها، لاحظت اندهاش بواب العمارة من مظهري المزري.. لم أسنح له فرصة السؤال والتساؤل، فتحت باب غرفتي على عجالة من أمري، خلعت ملابسي، استحممت، ثم أودعت الملابس

الملطخة في كيس من النايلون إلى المصبغة Laundry الواقعة خلف شارعنا، حيث تحتوي على مكينة غسل وكوي الملابس أتوماتيكية يديرها رجل خمسيني طيب القلب مقابل مبلغ زهيد، ويكاد عمله منصب على تعامله مع الطلبة. ثم عدتُ واستلقيت على سريري شارد الذهن، أعيد سيناريوا الحدث مرات ومرات، لأرسو إلى الغاية المرادة من تلك المسرحية المفتعلة دون جدوى.

وما أن حادني التعب وألقى بي على السرير، حتى غفوت تلك الليلة على وسادة من القلق وأن لم أغفو نتيجة مطرقة الوساوس والقلق التي صاحبتني، قلقلة فكري، سرقت الوسن من جفوني. طاردني الوجل كذئب وهو يتنقل بي بين شواهدٍ من تلك الكوابيس المتكررة، محاولا أن أجد في زحمة تلك الشواهد منفذا يخرجني من زنقة الرعب والعذاب التي غصت بها قدمي، تلك التي ضيقت مسارات الراحة فيها. لا ادري كيف استسلمت لسلطان النوم وكيف سرقني الإرهاق من جسدي.

في ظلال الحلم، كنتُ أتنقل بين الكوابيس كمن يسير خلف السراب، أتجول برفقة العناء واللؤلؤة وسط رياض غارقة بالنضارة والبهاء، حيث كانت الأجواء تلفنا بهدوء لطيف، وكأن اللحظة نسجت من دفء الغرام وسلاسة الحديث.

ونحن منشغلان بفحوى الشوق والغرام وسلاسة الحديث، وإذ بطائر الفينيق العملاق يتجه نحونا. لم تجد محاولتنا للهروب نفعًا، كان الهجوم مباغتًا، لم أره إلا وقد غرس مخالبه الفتاكة في ثيابها، كأن القدر قرر أن يسلبني حلمي في غمضة عين.

انـدفع الطـائر نحـو المجهـول، نحـو عـالمٍ لا نهايـة لـه، حيـث تلاشـى فـي جـوف السـدم، كأنـه لـم يكـن سـوى خـيط دقيـق مـن خيـال، اجتـاح المسـافة بينـي وبينهـا، تاركًـا خلفـه فراغًـا لا يملـؤه شـيء. بقيـت أراقـب ذلـك المسـار حتـى تلاشـى تمامًـا، كـأنني كنـت أشهد انطفاء حلمي أمامي، دون أن أملك القوة لإيقافه

علـى أثـر ذلـك بقيـت مسـتطرقا وجـلا لـم أسـتطع فعـل شـيء أصـاد ذلـك الـوحش الـذي كـان بحجـم طـائرة هليكـوبتر، لـم أسـتطع الـدفاع عـن محبـوبتي، ولا أن أكشـه عنهـا، بـت أرتجـف رعبـا وقهـرا حتـى أغرقـت مقلتـاي بالـدموع والبكـاء والأنـين، وكـأني بهـا اسـتيقظت علـى أثـر وقـع النيـاح الـذي عبـر حجـاز الكـرى لحـدود اليقظـة..... حينهـا اسـتيقظت واسـتغفرت ربـي، عـذت بـه مـن شـر الشـيطان الـرجيم وشـركه، غسـلت وجهـي لأطـرد بقايـا الكـابوس عـن الـذهن، ثـم عـدت لفرشـتي الـوثيرة وعينـي أسـيرة اليقظة حتى حل الصباح.

3- أبو علي الجايجي

استيقظتُ باكرا وكأنني عبرتُ بوابةً خفية، قاطعا الفيافي رحلتي إلى عالمٍ آخر، حيث الفوضى التي اجتاحتني بالأمس تلاشت، وانحسر أثرها عن الذهن والبدن. رغم الكوابيس والأرق الذي أثقل بدني، كان للنوم سلطانه، أمتص الوجل من ملامحي، وجلى الإرهاق عن قلبي، كأنني خرجتُ من معركةٍ طويلة منتصرا، كأني استعدت ذاتي من الطوفان وبت أشر بالتنفس.

بعد أن غسلت وجهي وفطرت قطعة جبن كانت متروكة على الطاولة من مساء أمس؛ تأنقت بأبهى لبس، ثم ذهبت للجامعة وأملي أن أصادف أميرة الشوق في الجامعة، أن ألتقي بصاحبة الحسن، أو أن التقي بمن يخاصمني عليها، ذلك المعتوه الذي اعترض طريقي.

لم يعد لما حدث بالأمس ذلك التأثير الطاغي على نفسي، كأنني عبرت فوقه دون أن ألتفت، دون أن أسمح له بأن يفرض تأثيره قيد شعره. لم تهزني عصا التهديد، ولم أعبأ بوقعها، لكنني أصبحت أكثر حذرًا، أكثر يقظة أمام المجهول الذي قد يتربص بي. باتت خطواتي محسوبة، وصرت أتحسس كل من يقترب مني، أحترز من المجهول، بل صرت اتحسس من كل شخص يقترب مني تجنبا وتحسبا للنيات الخبيثة.

أوعزت تلك المسرحية بكل صخبها وتفاصيلها إلى عنصر الغيرة المرة التي أعمت بصيرته، جعلته يتصرف كمتهور. كأنما لم يعد يرى سوى تهديدٍ يحيط به، وكأنني كنت بالنسبة له أكثر من مجرد منافس خطر لا يستطيع احتماله. فعجز عن

إيجاد حل لمعضلته، فاستعان بالشر والشيطان لأدراك الغاية المنفلتة من قبضة يده.

هؤلاء هم من يتشبثون بمبدأ ميكافيلي القاسي، حيث تصبح الوسيلة مجرد أداة لتحقيق الغاية، بغض النظر عن الأخلاق أو القيم. حين يعجزون عن بلوغ أهدافهم بطرقٍ نزيهة، يلجؤون إلى الخداع والمراوغة، متشبثين بفكرة أن النجاح يبرر كل شيء، حتى إن كان على حساب الآخرين. لكن مثل هذه الأساليب لا تصنع قوة حقيقية، بل تكشف عن ضعفٍ داخلي، عن خوفٍ من الفشل يدفعهم إلى انتهاج طرقٍ ملتوية. تجاهلهم هو الرد الأقوى، فالمضي قدمًا بثقة هو ما يزعزع عالمهم المبني على الخداع.

كتمت السر في أعماقي، لم يطلع عليه أحد سوى صاحبي شاكر، ذلك القلب النقي الذي شعرت بصفائه تجاهي. لم يكن البوح له مجرد إفشاء، بل كان لحاجة دفينة، لغاية مدفونة في أعماقي، حيث المستقبل يبقى مجهولًا، وحيث المصير قد يتبدل دون أن يدرك الإنسان الحقيقة.

كان هاجس الفاعل المجهول يراودني، يرعبني، يجعلني أتحسس كل خطوة، كأنني أسير في طريق محفوف بالاحتمالات التي لا يمكن التنبؤ بها. لذا، كان لا بد من أن أترك أثرًا صغيرًا، أن أشارك جزءًا من هذا الحمل مع من أثق به، لا فقط لطمأنة نفسي، بل لأنني أدرك أن بعض الأسرار لا يجب أن تبقى طي الكتمان إلى الأبد. حيث صيغة الفاعل مجهول كانت ترعبني....

دخلت باحة النادي بحثت عن اللؤلؤة بين الوجوه المارقة والقاطنة فيه دون أن أجد لها أثر، ذهبت للمكتبة وكلي أمل أن التقيها دون جدوى. بات الأمر سيان كسابقه، القلب مضطرب، والفكر مشغول بجمالها وحسنها، لذا أخذتني أقدامي دون إرادة مني تهف بي في طرقات وشوارع الجامعة، متأملا أن المح طيفها في كلية الهندسة التي تدرس فيها، أو أن التقي بصديقتها. بعد عناء وشقاء رجعت خانعا أدراجي إلى كليتي، معاتبا الحظ الكسير، ماشيا على انغام الصبا الحزين، دون أن أشم لها عبقا في الطرق. قد تكون في الحصص التي تتضارب مع أوقات حصصي! وقد تكون قاطنة في القسم الداخلي المجاور لبناية الجامعة ...الخ من أمور صرت أخترعها لأغطي على غيابها.

أستمرت حالة الانزواء أو الاختفاء التي تعودت عليها مدة أسبوع إلى أسبوعين من العناء الذي كنت اشعر به، حيث تخونني الذاكرة باستمرار. لم أجد في قاموس الزمن سجلٌ لحسابات شرودي، حتى أني أكره ارتداء الساعة في معصمي كحال المحابس والمداليات التي أشاهد اهتماما بها لدى بعض الشبيبة؛ بقيت أتبع تلك الفوضى من التفكير والترقب الآتي وأبرم الجدل السابق بخيوط الذاكرة؛ حتى أختمر العصف باليأس، صرت أحاول أن أستجدي الراحة من الزمن، أتحرى خلف الفرص عسى أن تجمعني بشلة الطالبات لأتمعن في حسن جمالهن، لأستمتع بشيق حديثهن، أحيانا أهجس بالنشوى وأنا اشاركهن الواجبات والمجالسة والضحكة حين أود تسلية ذاتي، دون أن أجد لذاتي الحقيقية موضع قدم بينهن، دون أن يقحمني الإعجاب في دروبهن، حيث لا يسحرني سوى سحر اللؤلؤة.

بعد اسبوعين من لقاء اللؤلؤة وهي منزوية في طيات الزمن المجهول، هجست بضلالة أغشت عينيَّ ويقيني لحرقة الآهات، وجدت الحالة أضحت عبثية، روتينية في مسرى حياتي، فلم أعد محموما بذات الوله والروحية التي كنت أتأمل لقائها، وكأنَّ الغائب عن العين يخف نور سراجه في الذاكرة مع مرور الزمن.

كما أني لم أجرؤ أسأل عنها أحدا من المعارف خجلا وحياءً، كرامتي لا تسمح لي أبدا أن أتخلى عن شخصيتي. لم أجرؤ أن أسأل سوى طيب الذكر العم (أبو علي الجايجي)، موزع الشاي في نادي الجامعة، لحسن العلاقة التي تجمعه بالتلاميذ، ولسنه وطيبته المعروفة واحترامه وتقديره لكوكبة الطلبة، والذي بدوره نفى مشاهدتها في النادي حيث قال:...

- والله يا أبني لها مدة غائبة، وعسى أن يكون في الأمر خيرا لها، لكني أتوقعها مشغولة بأمر مهم أو تمر بحالة مرضية، أرجو أن يكون غيابها لا يؤثر على دراستها، فهي طيبة ورقيقة لا تستحق الشقاء.

شكرته على إجابته وتركت أمرها للزمن.

مضيت أتبع هواجسي، أبحث عنها بين توقعات الصِدف المبعثرة في الطرق، علني أفلح في العثور عليها في الممرات أو في الشوارع، جانحا فكري خلف نافذة الحلم، آملا أن تستهويها شرفاتها. لم أتوانى قط في بذل أي جهد مضنٍ في البحث عنها على مدى الأيام السالفة، لم أترك محفلا إلا قصدته أو عارضا يرشدني له ظني إلا وطأته... فكل النوافذ

والأبـواب التـي قصـدتها كانـت مغلقـة، ومـع ذلـك كنـت أجـري خلف يقين ما يحفز ذهني وعواطفي.

هكـذا سـعيت خلفهـا دون يـأس، لـم يكـل قـيس أبـدا فـي محاولاتـه الحثيثـة لإغـراء ليلـى، ولا الحـروب لـوت عاطفـة عنتـر وعزيمتـه مـن نيـل عبلـة، هكـذا المثـابرة تـأتي باكولهـا، تجـدل الأحـداث بسـنارة العشـق، أن عزمـت فتوكـل علـى الله، تلـك هـي القناعة التي أأمن بها طوال حياتي وأتخذها سلما لمساعيي.

ثلاثـة أسـابيع فتـرة اختفائهـا كانـت كفيلـة بـأن تطمـس ملامـح حضـورها فـي عـالمي، أن تجعـل محـاولات السـعي خلفهـا تتلاشـى، كأنهـا لـم تكـن سـوى طيـفٍ يلسـع الـذهن بـين الحـين والآخـر، يـوقظ فـي داخلـي نشـوةً ممزوجـة بـالأرق. لـم يعـد لوجودهـا طـارئ بـل تحـول إلـى فكـرةٍ عـابرة، إلـى ذكـرى تتـردد بـين الحيـرة واليقـين. لا بـد أن هنـاك أمـرًا أجبرهـا علـى التخفـي، شـغل ذاتهـا، أسـر قواهـا، جعلهـا تختفـي عـن المشـهد دون أن تتـرك أثـرًا واضـحًا. لكـن الغيـاب، مهمـا طـال، لا يمحـو أثـر المشـاعر، بـل يعيـد تشـكيلها، يجعلهـا أكثـر عمقًـا أو أكثـر هشاشـة، الزمن وحده كفيل بالإجابة.

علـى هـذا المنـوال سـارت الأيـام بـين مـد وجـزر؛ حتـى اشـرقت شـمس السـعد مـن جديـد علـى بيـداء وجـدي، فـي يـوم عـادي وعلـى غيـر العـادة بزغـت مـن واقـع حيرتـي، تسـلت مـن خلـف الغيـوم العتمـة إلـى قلبـي، لتـذيب صـقيع الـثلج بشـواظ نيرانهـا، لألـتمس دفئهـا وهـي قابعـة فـي ركـن نـادي الجامعـة. تـراءت لـي عـن بعـد كثريـا تـبهج الأجـواء وهـيَّ تجلـس خلـف طاولـة مسـتديرة إلـى جانب أحدى زميلاتها ترتشف الشاي المهيل.

لم أتعرف على زميلتها من قبل، ربما لم أنتبه على وجودها أو على تقاسيم وجهها، كون كل تركيزي كان منصبا على فتنتها فقط، كوني لم أجد من تتميز بسحر يضاهي سحر اللؤلؤة، ربما تقييمي خاطئ لا يمثل سوى وجهة نظر ليس إلا.

بينما دنوتُ من طاولتها المركونة في ركن النادي، لم يكن الوقت قد سمح لي باستيعاب تفاصيل اللحظة إلا حين وجدت زميلتها تستأذن، تفسح لي الحيز المقابل لكرسيها المخملي، وكأن الأمر كان معدًّا مسبقًا، وكأنها أرادت أن تمنحني هذا اللقاء دون أي عوائق.

جلستُ هناك، متلمسًا دفء المكان، في يومٍ يُثقل برده الأجواء، لكن حرارة اللحظة كانت كفيلة بإشعال ما كان خافتًا بداخلي. لم يكن مجرد لقاء، بل كان امتدادًا لمزيجٍ غريب بين الترقب والانجذاب، بين الخجل الذي تسلل إلى أعماقي، والنشوة التي حاولت أن تتخفى بين الكلمات العابرة.

ابتسامة شفيفة انطلقت من بين شوقٍ مكبوت، كأنها تحاول أن تخترق الصمت، أن تكسر حاجز التردد، لتصبح أول خطوة نحو حديث لم يكن ليكتمل دون هذه الشرارة المختبئة في الهواء.

- صباح الخير يا سيدتي....
- صباح النور، يا هلا.. تفضل...

بادرتها ببيت شعر غزل قلت فيه:...

يا لوعة الشوق..

ولهفة جنون السفرِ

يا شذرة المحابس

وشوق زخات المطرِ

أين اختفيت؟

وليلي سقيما يرتعد دون قمر

- الله الله علـى المشـاعر الجياشـة، لـم أغـب إلا لأفجـر فـي داخلك ينابيع الشعر.

يا روعة المُهل

يا أنشودة المحبة والغزل

من هوسي وجنوني

أصوغ لك قلادة الأمل

إلا يكفي أن أسميك نجمة الصبح

أن أصفك باللؤلؤة والمقل؟

- الله عليـك فعـلا أنـت أخجلتنـي، أن كـان كـل هـذا لـي فمـا بقيت للأخريات في قلبك؟
- لا لؤلـؤة فـي الجامعـة سـواكِ، فهـي لا تليـق إلا بـكِ، ولا يليـق بهـا إلا مـن يـدرك قيمتهـا. اسـألي الشـوارع والحـدائق والأروقـة، سـتخبرك عـن خطـواتي التـي تكسـرت عليهـا، اقتربـتُ مـن أماكنـكِ المعتـادة ولـم أغادرهـا إلا حـين انتبـذ اليـأس فـي داخلـي. اسـألي الليـل والنجـوم السـاهرة، ستشـهد علـى سـهدي، علـى خيلـي الـذي الـذي جـاب البـوادي وهـو يبحـث عـن طيفـكِ بـين

ظلالها. اسألي قلبي المعنى، ذلك الظن المريب الذي يرتع بين فكرة تجلني وأخرى تجافيني، بين يقينٍ يثبتني وشكٍ يزلزلني. اسألي ذاتكِ عن كل ما لا أعرفه عن نفسي، ستخبركِ بما جلَّ في خاطري من جنونٍ وسفر، من شوقٍ لا يهدأ، ومن انتظارٍ لا يعرف النهاية.

كنتُ أرى ألمي في عيون الآخرين، كنتُ أتحسس نظراتهم كأنها تعكس وحدتي، حتى بتُّ أرتعب من ملاقاة معارفي في الجامعة، أرتعب من الغد القادم، من الرياء الطافح في صمتي، ومن العناء الذي يبرق في شكل الوحدة التي باتت تلازمني كظلٍ لا ينفصل عني. هل كان هذا حب عابر أم هيام؟ أم مجرد وهمٍ صنعته الأيام؟ سؤالٌ لا تزال إجابته معلقة بين يديك.

- بديع.. شكرا لك لاهتمامك المفرط بي... بصراحة فعلا أخجلتني، أحسستني بالذنب ..لم كل ذلك؟ وإلى أين تود أن تصل؟
- بعد كل المعاناة تسأليني لم كل ذلك، كأني الملام بما يعتريني وأنت السبب في ما الاقيه.
- أنا معذورة.. كنت أرافق والدي في المشفى، لقد خضع لعملية جراحية وكان لابد أن أرافقه... على فكرة؛ لم تشد انتباهي في أول وهلة، حسبتك النادل في ثيابك المنكمشة. هههههه... يا ترى أجئت بها من الغسيل هههههه.

نطقت بتلك الكلمات والابتسامة تملئ شدقيها، أشبه بوردة الصبح حين تهتز حياءً أمام لسعة الشمس، فتميل خجلة نحو

دفئها، فتنث عبيرها ليملأ الأفق، بذلك ترضي دلالها. فقلت لها:.....

- الحمد لله على سلامته، لو كنت أعلم ما قصرت في الواجب والخدمة.
- لا تستحق المبالاة أنها مجرد عملية سطحية وكونه رجلا كبيرا طاعن بالسن، فلابد من مراعاته.
- أما بخصوص بدلتي؛ لم أجد وقتًا للاهتمام بها! حيث انشغلت بغيابك كثيرا فنسيت هواني وقيافتي، لذا جئتك روحا بلا جسد، هههههه.. ولا يهم أن كنت نادلا أو حمالا، المهم أن أرى في عينيك الرضا..
- أنت متميز عن الآخرين في عفويتك، أنت غير متصنع وذاك ما يعجبني فيك. اشهد لك بذلك.
- شكرا لك، بغيابك ارتديت الجنون وأنا أطالع الوجوه، اتصفح الطرق؛ حتى ارقت العيون وكلّ القدم، تكالبت عليَّ الأوجاع واليأس والظن السيء، فطالت لحيتي ونسيت قيافتي، فانكمشت الروح على البدن، لذا انكمشت البدلة على الجسد... هههههه
- إلى هذا الحد أنت عاشق وملهوف، يا لحظي الجميل، إلا تجد نفسك قد تسرعت قليلا؟ ثم هناك الكثيرات من حواري الجنة يتمنينك.
- ربما.... ولكن! ما للعاشق من اختيار قدره، ولا يقدر على الصمت، كان من الأجدى أن يسكت قيس وتتزوج ليلى. لو رف القلب على فتنة غير فتنتك ما كنت بحثت عنك. روحي مسيرة، مأسورة، إرادتها بين يديك. أترين للشجرة إرادة في اختيار مكان نموها؟ فأنا تلك الشجرة البريئة في فلاتك العريضة.

- يـا لطيـف، وكـم شـجرة بريئـة غرسـت ذاتهـا فـي فلاتـي، كـل يـوم أتصـفح قـدري فـي قـدر متـيم... علـى كـلٍ؛ كيـف قضيت أيامك؟ هل سألت أحدا عني؟
- لـم أطـرق بـاب أحـد سـوى بـاب العـم أبـو علـي، لأنـه رجـل طـاعن وطيـب القلـب. بقيـت فـي وحـدتي سـليل الحيـرة والشـوق، أجـوب الأمـاكن البائسـة، الحـزن يغشـى ملامحـي، نخـر جسـدي. صـرتُ أبحـث عنـك بـين أجنحـة الجامعة والطرق هنا وهناك..

لا تلـومين مـن أرهقتـه ذئـاب تفكيـره، شـلت قدراتـه ليـالٍ جـدب طـوال، فـاذا مـا نعيتنـي بـالمجنون فتلـك حقيقـة، أُرهقـتُ كثيـرا وبالـذات فـي ليلـة أمـس، كانـت مـن أكثـر الليالي جدبا وصخبا وهيافة مرت عليَّ.

- أحسـاس جميـل منـك، أنـي محظوظـة بـك، لأنـك لبـق تجيـد أختيـار الكلمـة والتعـابير بعنايـة..... قـل لـي: مـا بهـا ليلة أمس؟
- لقـد حلمـت بحلـم رومانسـي جميـل، كنـتُ برفقتـك فـي رحلة مرح جميلة لمصيف زاهٍ!

كانـت تصـغي إلـي بكـل أنـاة وحبـور، الابتسـامة طاغيـة علـى ثغرهـا، سـحر شـفيف غطـى وجههـا، بـدت لـي أكثـر جمـالا ورونقا عن حقيقتها... وحين أكملتُ قلت لها...

- ليتها حقيقة!

بدون تردد قالت لي...

- ولـم لا... لنجعلهـا حقيقـة!..- مسترسـلة فـي حـديثها -. فكـرة لطيفـة لا تحتـاج لتـرويض، دعهـا تأخـذ مجراهـا

بشكلها الطبيعي، نحن بأمس الحاجة لتغيير أجوائنا، لألتمس حقيقة مشاعرك وأعبر لك عن حقيقة مشاعري، عسى أن تكون بموازاة مشاعرك الرهيفة. أنا لستُ لغزا محيرا تبحث عنه في قيعان البحور، ولا سمكة قرش يرتعب منها الصياد..

- أنت وردة لطيفة فواحة.... قلت لها ذلك والابتسامة تطغي على شدقي.
- - صمتت للحظة ثم استطرقت بسلاسة حديثها - باختصار أنا إنسانة تبحث عن ذاتها بين عيون الآخرين، أود أن ألتمس صدفة الصدق بيدي.. من جانبي سأفتح لك أبواب قلبي المغلقة، سأسمح لك أن تغوص في عمق أسراري، تجوب أروقتي، سأساعدك على تجاوز الحواجز، سأدعك تفل خيوط العقدة التي أرهقتك.
- سأكون طوع إرادتك.
- بصراحة؛ كأن الزمن قد نسج حول عنقي عُقدًا لا تنفك، أثقلني بحملٍ لا أستطيع احتماله وحدي. لطالما كنت سيدة نفسي، أتنقل بين أعماق المحيط بثبات، لكنني الآن أحتاج إلى من يرفع عن كاهلي بعض هذا الوزر، إلى من يشاركني عبء الأمانة التي باتت أثقل مما توقعت.

تحولت تلك العُقد في عيون الآخرين إلى ألغازٍ محيرة، إلى شذراتٍ لا يفهمونها، لكنني قررت أن أجعلها أساور في معصم يديك، ومحبسًا في خنصر كفك، كأنها جزءٌ منك، كأنها امتدادٌ لما أريد أن أبوح به. سأدعك تغوص بحرية في شواطئ أحلامي، أن تتلمس

ملامحهـا، أن تـدرك القناعـة بأحاسيسـك وأنفاسـك، أن ترى ما لم أعد أراه في نفسي.
ربمـا تكـون القناعـة مقبولـة، وربمـا لا، فمنـذ أن ركنـت ذاتـي علـى شـاطئ الـوعي، لـم تعـد العاطفـة تهزنـي كمـا كانـت، لـم تعـد المشـاعر تتـدفق بـنفس القـوة، كـأنني أصبحت مراقبةً لها أكثر من كونها جزءًا مني. هل هذا نضجٌ أم خيبة؟ سؤالٌ لا تزال إجابته معلقة بين الماضي والحاضـر. يمكنـك الاطـلاع علـى تـأثير الأمانـة علـى الـنفس هنـا وهنـا. المجتمعـات محكومـة بتفاصـيل معقـدة، وتعتبـر فـي حكـم الشـرع دوائـر مغلقـة، تحتـوي علـى رواسب حقـب هنـا وهنـاك تـؤثر علـى توجهـات ألفـرد، علاقـات وهميـة تكبـل أخـرى جديـة، تنسـب لنسـيج ظـرف لا تـتحكم بـه الأهـواء، الإرادة منقوصـة وغيـر كافيـة لتعيلنـا وتعيننـا علـى تجـاوز لحظـات الشـك والإنكسـار. أحيانـا المعرفـة السـطحية بأشـكال المبـادئ العامـة، لا تنقلنـا لحـدود غاياتنـا. أحيانـا نهجس بأننـا نقطـن فـي دوائـر تـدور حـول نفسـها وحـول بعضـها الـبعض، تـدلفنا لمصـافي التيـه والعجـز! ومـع ذلـك نحـاول أن نبحـث عـن صـيغ جديـدة عـن أسـس توافقيـة تحمينـا، تعيننـا علـى الانـدماج والانصـهار فـي بوتقـة المجتمـع دون أن نـتمكن مـن اكتشـاف أنفسـنا بشـكل حقيقـي وصـادق، لأننـا تجاوزنـا حـدود الـذات دون ان نعلـم. دائمـا مـا نبحـث عـن البهجـة والسـعادة فـي نطـاق الملمـوس، ناسـين الجوانـب الأخـرى الرافـدة، كـي لا تمتـد وتمتـزج اختلافاتنـا بمخلفات ظرفنا..

كانت تتكلم بشكل مبهم وأنا أصغي لها بتمعن وانبهار دون أن أفقه الغاية المرادة والفكرة المطروحة بوضوح. اكملت حديثها وهي تتفلسف بأمور غامضة قائلة:..

المجتمع مستنقع كبير، يمزج بين فضائل الأخيار ونتن الأشرار، بين نمير الأنهار وأَسَائن ما يحمله الفيض في طرقه. حين نتذوق الحياة، نجد في كعب الكأس قشب من آجن الشوائب. هناك من يعيش خارج محيط دائرة الشك، وهناك من هو في داخلها مكبل باشمئزاز ما يحيط به. لو مزقت وشاح زمننا، ستعرف بأن الوقت الذي يأوينا وقت زيف وشدة، ليس زمني ولا زمنك، أنما فرض علينا من قبل ظرف كالح، ربما لذلك احتفظتُ بسواد الظن لأجل أن لا يتحكم بمقدراتنا.

كانت تتكلم بلهجة مبهمة، ناغمه، ناعمة، وبثقة مفرطة، وبكلام فلسفي منمق يكتنفه الغموض، ينم عن عقدة واضحة تلفها، لم أفهم حقيقة مقصدها، لكني كنت مصغيا لعمق كلامها وأحزانها وثقافتها. لقد وضعتني في دوامة الحيرة والحرج، وكأن الأشياء من حولي قد فقدت معانيها، تسامت الخطوط في سدم ذلك التيه الذي يلفها...

ضباب أغشى معاني الجمل، درّسَت اسطرها، جعلت طرق الأسرار أكثر بعدا وغموضا عما أرغب، جعلت النفس أكثر تخبطا وشرودا في دوامة الصخب، كأنَّ العفوية التي أفرزتها عصارة اللقاء؛ مبلولة بمرارة العقد.

وقفتُ للحظات أتأمل ما يدور في خلدها، وما يكتنف ذاتها من أسرار دفينة لفتها ولفتني بها، لذا قررت أن أكون كيفما تشاء وكيفما تجري الرياح ويشرع القدر.

و بعد جلسة لم تدم طويلا، برحنا بخطوات بطيئة، تكاد تصطدم بعضها ببعض، مستقلين الرصيف المحاذي لسور الجامعة والشبه الخالي من المارة نحو مرأب المدينة، سائرين تحت ظلال الأشجار الوارفة من صفصاف وكاليتوس، تلك الممتدة مع الرصيف على طول الطريق لوسط المدينة، في ظل طقس صرد، تنشط به الريح، فتخل امزجتنا.

بينما كنا نسير بخطواتٍ هادئة نحو مرأب العجلات، في نهاية الطريق المؤدي للأقسام الداخلية للذكور، والذي لا يبعد سوى دقائق معدودة عن مبنى الجامعة، كانت أحاديثنا تسبح في فضاءٍ من الشوق والأحلام، تتمازج مع نسمات الهواء اللطيفة وهمسات الطرافة التي تطفو بين الابتسامات العفوية. كنّا نعضد بعضنا البعض، ننسج لحظاتٍ هائفة ببهاء، نتوسد صفحات الأحلام التي تدور في أذهاننا، كأننا نتشارك رحلة خفية نحو المجهول، رحلة لا تحدها سوى رغبتنا في الاستمتاع بكل تفصيل صغيرٍ يمر بنا.

وفي خضم هذا الحديث، بدأنا بتدوين موعد الرحلة المرتقبة إلى المصيف المنشود، نرسم لها إطارًا يناسب أمنياتنا، فاتفقنا على أن يكون الموعد في شهر نيسان القادم، حين تصبح الأجواء أكثر لطفًا، حين ينكسر برد الشتاء ليمنحنا دفء المغامرة المنتظرة. كانت هذه اللحظة تمثل وعدًا جديدًا، خطًا إضافيًا في قصةٍ لا تزال تُكتب، وكأننا نؤسس لأيامٍ ستكون أكثر إشراقًا مما نتوقع.

وأنا أسير معها كنت في قمة النشوة والسعادة، ممتنا محاولتها تغيير أجواء الوحدة التي نستشعر بها، على الرغم من أننا نعيش وسط تجمع طلابي واسع، إلا أن للقلب إرهاصاته، لن يستريح إلا مع من له وقع عليه..

كما للحرية وجه ناهد، لا تشرع به في الأماكن العامة، ولا تصرخ به في الأوساط المزدحمة. أهجس في شخصيتها غموض، بدت لي هلامية المنشأ، يصعب تحديد اسوارها، على الرغم من أنها أوشحت عن جزء من حقيقتها، عرفتُ شيء عن ذاتها وغوايتها؛ إلا أنها لها أوجه أخرى لا استطيع تحديد ملامحها، لا استطيع التماس عمق ذهنها وفطنتها، ربما تبين لي جدليتها في الأماكن الهادئة، تلك الخالية من أنفاس الأنس والجن، قد اتمكن من أن أكتشف المخفي من قامة شخصيتها الحقيقية، تلك التي اهجس بها تطارد الخوف كما الضوء يكش الظلمة.

وقبل أن نصل حدود المرأب بـ 200م، توقفت بجانبنا عجلة تكسي، وفي داخلها زميلتها تلك التي أخلت لي كرسيها، كانت قد طلبت من اللؤلؤة مرافقتها، فاستأذنتني برفق، ثم غادرت برفقتها مودعة.

حين غادرت بجسدها وروحها، تركت في حضني طفل الشوق يلغ في مناغاته، دائر في ذهني بين لفحة الود وشهقة الحلم، يجس يقين الغد، يبتسم بأناة مع الهمسة العابرة فوق الجفون، يطنب أذنيَّ، يسليني، يدغدغ مشاعري. أراه يلعب بحضني بوجس، يرتعب من هاجس الصمت والأرق المحيط بي. أهجس به كالذبابة التي تفشي الأرق بزق طنينها. صرت

أخاف عليه من صخب العبث، مثلما أخاف عليه من فاجعة لاذعة، أخاف أن يُغتال قبل أوانه.

عدت أهمس بأذنه، وددته أن يبتعد عن دائرة الشك، أن يبقى ممسكا بابتهالات التفاؤل، أن ينام على وسادة اليقين؛ حتى يكبر ذلك الحلم ويزيح الشك عن الحقيقة.

مشيت بتلك الخطوات البطيئة وأنا أستل الصبر من العناء والأرق، أناغي طفل الشوق بهمسات الأمل، لم أشعر بالوحدة قط ترافقني، كأنها حين غادرتني تركت طيفها يسايرني، يؤازرني، يهامسني، يعينني على جلد الصبر.. بقيت أشم عبق أنفاسها وأستلطف حلو حديثها وظل خيالها، أغزل المشاعر ضفائر ود في جيدها، مثلما كانت قبل أن تتركني بلحظة.

وأنا ماض في المسلك متمسكا بتعويذات الأيمان، أعيد تراتيل الحديث، مردد كلماتها، متخيلا ابتسامتها وتقاسيم وجهها الطفولي الموشح بفيض السحر، ماشيا على ذات النمط وذات الوتيرة التي كنت اسايرها به، لاستمنائي بشغف السعادة التي استشعرت بها وهي تآزر رفقتي، كأنها لازالت تمشي معي. عندها لمت نفسي بعدم طلب رقم هاتفها.

لحظات توقف بها الزمن، عشت بها بغيبوبة، وأنا ماضٍ باتجاه المرأب، كانت الساعة تقارب الثالثة من بعد الظهر.

المرأب هو نقطة تقاطع مركزية تربط بين الجامعة وسوق المدينة والأقسام الداخلية للطلبة، تمثل مركز مثلث متساوي الأضلاع. كان لابد أن نمر في هذه النقطة كل يوم عدة مرات من خلال ذهابنا للجامعة أو للأسواق. لذا بعد أن تركتني وحيدا متسمرا في لوحة الخيال، مضيت بـ خُطى تحفهما

النشوة والزهو باتجاه المأرب، كأن خطواتي كانت تحملني نحو الحلم المنتظر، حيث الرحلة القادمة تتجلى أمامي وكأنها وعدٌ محفورٌ في الأفق. كنت غارقًا في فضاء الشوق، مستسلمًا لهيبة اللقاء المرتقب، طائرًا في سماء الكلمات التي تدفقت منها برقةٍ ونداوة، كأنها نشيدٌ يُرتل في الخفاء. كنتُ أشعر أن الزمن يمضي نحو تلك اللحظة، وكأن المسافة بينها وبيني لم تعد تُقاس بالوقت، بل بالخفق الذي يلهب قلبي مع كل خطوةٍ تقترب بها الأيام من الموعد المرتقب.

في نقطة التقاطع عند مدخل المرأب وجدتُ عجلة صافة قرب مدخل المرأب لم أنتبه على نوعيتها وماركتها، لأنها لا تعير لي أية أهمية، حيث أني لا أهتم بالشكليات والماركات كثيرا. وما أن اقتربت من العجلة؛ حتى نزل منها شابان ملتحيان، اعترضا طريقي، ودون إنذار مسبق أنقضى عليَّ ضربا مبرحا من اليمين والشمال، بت لا أجد مسربا للهرب، تمسكت قدمي بغراء المأزق، غدوت ككرة طائرة أتنقل بين أذرعهما القوية. جعلاني أتمرغ بالوحل من رأسي لأخمص قدمي، تاركين في وجهي ندبة زرقاء وكدمات على الظهر وتحت ظلال العين وأخرى فوق الشفة، وجرح صغير في الجبهة، صبغت قميصي بقطرات الدماء، مرغ وجهي وثيابي برغاء الطين، تغيرت لون لوحتي الخارجية وبدلتي الزرقاء تماما.

وقبل أن يغادرا الموقع تفوه أحدهم بكلمات تهديد قائلا: ..

- كنا قد أنذرناك من قبل يا غبي! ألا ترعوي؟... وأن كنت تريد المزيد، فتجاهل تنبيهاتنا في المرة القادمة، حينها تكون قد جنيت على نفسك.

- مـن أنـتم يـا كـلاب؟ بعملكـم الجبـان هـذا لـن ترهبـوني، كـان مـن الأجـدر أن تعرفـوني بأنفسـكم، وتوضـحوا لـي غاياتكم.

ولكـن بقـي هـاجس السـكوت سـائدا فـي الموقـف، فلـم يسـتجيبا لنـدائي، اكتفيـا بالصـمت مـن جـانبهم، حـين إذ ركبـا العجلـة مغـادرين المكـان حتـى انزويـا فـي ثنايـا المنعطفـات دون أن أتمكن من معرفة هوية الجناة.

وللمـرة الثانيـة لـم اسـتطع أن أسـجل رقـم عجلـتهم بعـد أن انشـغلت بالكـدمات ومواقـع الألـم التـي غطـت مرافـق الجسـد والـدماء التـي نزفت على القميص والقرف الذي التصق بثيابي.

لكـن بعـد أن تكـرر الاعتـداء، كبـر الهـم، زاد القلـق، خاصـة أنـي اعُتبـر غريبـا فـي المدينـة، فانـا مجـرد طالـب جـامعي أعـيش بعيـدا عـن أهلـي، هـذا يعنـي بـأني سـأتقيد فـي حريتـي، لأنـي لا أعـرف مـن هـم أعـدائي، ومـا غـايتهم، الحقيقيـة بائنـة مـن فعلهـم القبـيح؟ فـأن كـانوا يبغـون اللؤلـؤة لِـمَ لا يفاتحونهـا بالحـديث المباشـر ويكسبون ودها؟

شـعرت بـذاتي تتبـع الشـيطان فـي علاقـة غيـر متكافئـة، زادتنـي همـا وقرافـة فـي مشـوار الحيـاة. كـأن الأمـور خرجـت عـن نطـاق التوقعـات، كـأن المشـهد اتسـع ليشـمل أكثـر ممـا كنـت تظـن. لـم يعـد الأمـر مجـرد مواجهـة فرديـة، بـل تحـول إلـى مجموعـةٍ مجهولـة، إلـى وجـوهٍ لـم أألفهـا مـن قبـل، إلـى لغـزٍ يتشـابك مـع كـل خطـوةٍ أخطوهـا..... فلـو كـان الفاعـل ذات الشـخص، لقلـت أنـه متـيم بهـا، لكنـي اصـطدمت فـي وجـوه جـدد لـم الفاهـا مـن قبـل، أحيانًـا، الحلـول تـأتي حـين نتوقـف عـن مطاردتهـا، حـين نتركهـا

تتجلى أمامنا دون ضغطٍ أو استعجال. ربما حالها لا يختلف عن حالي، ربما هي أيضًا محاصرة في دائرةٍ لا تدرك أبعادها بالكامل. ثم أني لم أرى هذه الوجوه من قبل في الجامعة أو برفقتها، أهجس بها غريبة، إذا لابد في المسألة من أنَّ، يا ترى ماهيَّ وكيف أصل للغز اللؤلؤة؟

4- المطواة

بعد واقعة المرأب بدأت أشعر بالانعزال والوحدة، وبمرارة الغربة، الانكسار قوض جدران عزمي رغم أني لا أبعد عن أهلي وقريتي سوى ساعة زمن، لكنني حينها كنت بحاجة إلى سند قوي يعضدني، جدار لأقف بوجه هؤلاء السفلة؛ لم أجده. كنت بحاجة لعزم أضافي يعيد لي توازني وثقتي بنفسي، كنت بحاجة إلى مقومات الظفر والمواجهة والتحدي، لأثبت إلى اللؤلؤة حقيقة محبتي وقوة إرادتي...

الوحدة اللعينة قد لوت رغبتي، أحسستني بالضعف الذي كنت عليه، قيدت معصمي بالجبن، جعلتني الوذ بدهاليز الصمت والخفاء، أهرب من ثقل المواجهة الغير متكافئة.

حينها ايقنت بأني أن قُتلت بأيدي هؤلاء؛ وسوف يهدر دمي سدى، حيث بانوا جديون في تهديداتهم. لن استطيع مقاضاة أعدائي المجهولين، لن أستطيع الوصول لجحورهم، لأني ببساطة لا أعرف شيئا عن هوياتهم، لن أتمكن من تحديد غاياتهم أو أن أنسبهم إلى جهة معينة ولا إلى جهة اللؤلؤة، لأنها في الحقيقة لا علم لها بما يجري، ولا لها فكرة عمن يخلق لي تلك المتاعب. أضحيت في تيه من أمري، هجست ذاتي بمثابة حشرة تحت أقدام عصابة، ممكن أن يدعسوا عليها في أي لحظة يشاؤون.

كما أني من الناحية الجسدية لست ذات قوة بدنية أستطيع أن أتحمل مطارق الأيادي الغليظة، ولست متدربا لأكون وحشا يمزق ابدانهم، أو اقاوم أنياب الوحوش دفاعا عن النفس. أني من وجهة نظري ووجهة نظرهم مجرد إنسان فض؛ لن

يحسب لي الأعداء حسابا يمنع تجاوزهم إذا ما أرادوا أن يفتكوا بي، وأظنهم لازالوا لم يبتدئوا مشوارهم الحقيقي معي، كل ما بدر منهم مجرد دعابة، لن تخرج عن نطاق خزعبلات التهديد فقط سلوا بها أنفسهم، أنها البداية، اشبهها بسلطة الوليمة قبل أن ينقضوا فعليا على الفرسية، وذلك إذا ما بقيت مستمرا في غيي.

لذا هجست إن لم أحتط بشبكة أمن ما تحميني، سأؤخذ غدرا دون رحمة. دون أن أتمكن من فك شفرة دوافعهم وتخطيطهم مسبقا. العقدة كبرت، زادت دكنة، وصارت في نظر الجميع لغزا محيرا، محاطة بحجاب متين.

كأنني أعيش في دوامة من الوهم والخيال، حيث لا شيء ملموس يترجم غايتي، وكل ما يظهر أمامي ليس سوى تناقض ألوان وصراع غامض بلا نهاية واضحة. إنه اللغز بكل صوره وتفسيراته، يحيطني دون أن أدرك أبعاده، ينسج حولي شبكة من الغموض الذي لا أستطيع فك شفرته.

لست على دراية بما يحاك ضدي، ولا بما يدور خلف الستار، ولو كنت أعرف سر هؤلاء الأعداء، لكنت اختزلت الزمن، واخترت طريقًا أكثر أمنًا لمسيرتي. ربما كنت سأغير قراراتي، ربما كنت سأعيد تشكيل ذاتي بطريقة مختلفة، لكن الغشاوة لا تزال تحجب الحقيقة، تتركني أمام تساؤلات لا إجابة لها، وأمام مصير لم أكن مستعدًا لمواجهته. لوكنت مطلع على تأثير الغموض على النفس هنا وهنا، لكنت رفعت الغشاوة عني الحقيقة..

لا أدري إذا ما بلغت الأنسة هدى عما يجرى معي أم لا؟ ربما سيخفت نوري في بصرها، لا أظن ذلك من الصواب، قد أزيد الطين بلة.. قد تهتم بالأمر، وقد لا تبالي خوفا من الفضيحة. قد أكون مجرد نزوة عابرة أتحفتْ أنفها بنتن أحلامي، حينها سأكون في نظرها مجرد شخص تافه عالق في خبر كان، لا أستحق التأويل والاهتمام، حتما ستحترق أوراقي قبل أن أصل حدود الغاية المرادة، لأنها ستستأصل الورم عن جلد سعادتها، ستستصغر من لا يحل مشاكله بذاته، ستنظر لي بنظرة شزره من خارج الأسوار، عندها سأفتقد رجولتي وأخسرها نهائيا..

إذا من الصواب أن لا أخبرها بشيء، أن أترك الأمور تحل ذاتها بذاتها، أو أتركها نهائيا وأنجد ذاتي، أخرجها كليا من جدولة قلبي وفكري مقابل حياتي، أو أدفع حياتي ثمن مغامرة فاشلة من بدايتها، كمن لا يدرك مصيره..

على كلٍ؛ عدت للقسم أجر جسدٍ أجدب مثقلٍ بالهم، لا أقوى على مطاوعة الرغبة ولا على مطاولة القدر جراء وخز الألم، الذي بات يأخذ مفعوله وهو ينسل في البدن، تعيق حركاتي دماء متخثرة فوق الجبين والقدم، صبغت أجزاء من بدلتي التي تشبعت برغاء الطين وعبقه، وكأني بذاتي أنسلتُ من قبضة ملك الموت بلحظة إعجاب.

الحادثة أقعدتني لثلاثة أيام في السكن دون أن أستطيع أن أبرح غرفتي أو أقابل شخص ما، لوضوح أثر العلقة في الأماكن الحساسة من الوجه والجسد. لذا بقيت ملازما سريري، حيث كنت أسكن لوحدي في الغرفة بعد أن غادر زميلي حسين للعلاج من عجز في كليته، لذا تركني منذ شهرين أزامل الوحدة اللعينة.

خلال مكوثي في الغرفة، بقيت أعيش على علب الجبن والبيض المسلوق ليومين.

كأن تلك الواقعة لم تترك أثرًا عابرًا، بل حفرت ندوبًا في الجسد وجرحًا في الكرامة، كأنها كانت أكثر من مجرد لحظة، بل تجربة أعادت تشكيل ملامح النفس. الخوف والرهبة والعناء تسللوا إلى الأعماق، تركوا الأثر في الفكر والإحساس، في الحلمِ الذي كان يومًا ما نابضًا بالحياة.

لم أعد كما كنت يتأمل العالم بسذاجة، تاركا الأحلام تأخذني دون مقاومة. كأنني عبرت بوابةً لا عودة منها، كأنني أدركت أن الطيبة وحدها لا تكفي، وأن البلاهة لم تكن سوى غشاوة حجبت عني حقيقة الأشياء... لكن هذا التحول لم يكن نضجا ولا إدراكا أنما ردة فعل مقابل الصدمة التي لحقت بي، أنه بدايةٌ وعيٍ جديد لا رجعة فيه.

بعد تلك الواقعة التي تركت ندبا في الجسد وجرحا في الكرامة وأخرى تجرعتها من ألسنة الخوف وأشواك الرهبة والعناء، وشيء من الاضطراب النفسي؛ لم أعد بذات البلاهة والطيبة، لم أعد ساذجا أتفرج على واقعي المتأمل.

كأن المسألة خرجت عن نطاقها المعتاد، اكتسبت طابعًا أكثر جدية، وأصبحت مشابكها تعيق العزم، تشتت الذهن، وتكبح التأملات التي كانت يومًا ما واضحة. بات الخوف ظلًا يرافق الخطوات، يهمس في الأذن كلما اقتربت من المجهول، كأن الغموض أصبح جزءًا من المشهد، لا ينفصل عنه.

لست جبانًا، لكن الغموض في هويات غرمائي جعلني أشعر بضعفٍ لم أعهده، كأنني أواجه خصومًا بلا أسماء، بلا وجوهٍ

واضحة، مما يجعل التصرف وفق المعطيات أمرًا مستحيلًا. الحالة برمتها غريبة، لا تفسير لها وفق المشهد، كأنها لعبةٌ تحاك في الخفاء، دون أن يُكشف عن اللاعبين الحقيقيين.

ربما هؤلاء مجرد شلة فاسدة، أو أشخاص مأجورون لشخصٍ ذو مكانةٍ مرموقة، يبحث عن طالعه في دروب هدى، أو ربما عصابةٌ كيدية وصولية، تسعى لاستدراجها لخلاياها، لاستغلال نفوذها وجمالها وصفاتٍ أخرى لا تزال مجهولة. لكن السؤال الأهم: كيف يمكن كشف الحقيقة وسط هذا الضباب؟ كيف يمكن فك شفرة هذا اللغز الذي بدأ يحيط بكل شيء؟ .

تشعبت شكوكي بت أشك بكل شيء، حتما لتلك الشلة مآرب وغايات تريد تحقيقها، تبغي درء الخطر عن مصالحها، تبغي محاربة كل من يدخل ضمن أطر دائرتها، ربما هؤلاء اشخاص مسيرون، ربما مجرمون تحركهم إرادة خارجية، ترسم لهم توجهاتهم، ربما هناك أسرار أخرى لا أعرفها تتحكم بها وباللؤلؤة.

كل شيء جائز، ألا....

في الحقيقة كان عليَّ ادراك محيطي الخارجي، بواقع الحال أنا معزول تماما عن كل بهرجة ودراية بما تحيط أسوار شخصي، لا أحبذ المهرجانات ولا التجمعات ولا المحافل التي تجتمع فيها شلة السوء، ولا أعرف شيئا عن دروب التسكع ومخابئ المدمنين ولا شلة المصلين من حولي، ولا أنتمي لحزب ما.... ليست لي علاقة بكل هؤلاء ولا بغيرهم، محدود الصداقات، متقوقع في دائرة صغيرة جدا، أكاد لا أخرج عن

بعض الصداقات البسيطة، أكثر شخص اندمجت معه والتقيه هو شاكر..

هذا يعني بأني غير معروف في الوسط العام، لذا سوف لن يدافع عني كائن ما دون أن تكون لي صلة حقيقية به، دون أن يعرفني على حقيقتي، علاقاتي مقتصرة على عدد قليل من اللذين أجدهم توأم فكري وسلوكي وأخلاقي، يكاد شاكر يكون الأبرز بين هؤلاء الذين وجدتُ نفسي ضمنهم...

الغموض يحيط بي كضبابٍ كثيف، يشعرني بالقلق، يدفعني إلى البحث عن اللغز الذي جعل هؤلاء يتبعون ظلي بعماء، الذين حولوا نهاري إلى ظلامٍ دامس. لكن كل لغزٍ له رأس خيط، وكل معضلةٍ لها نقطة بداية، ربما تحتاج إلى التوقف للحظة، إلى إعادة النظر في التفاصيل التي بدت مبهمة، إلى البحث عن الإشارات التي قد تكون مخفية وسط الضجيج. أحيانًا، الحل لا يكون في المواجهة المباشرة، بل في فهم الصورة الكاملة، في إدراك أن الغموض نفسه قد يكون مفتاحًا للحقيقة. يمكن الاطلاع على تأثير الغموض والقلق على النفس هنا وهنا.

السؤال الذي شغل ذهني هو: لم لا يكشفون لي عن هوياتهم بشكل علني ويناقشون الأمر معي على رواق وتبصر؟ لم لا يقنعونني؟ لا يعرفونني على حقيقة نواياهم وأهدافهم وغايتهم؟ ما هو السر الذي يمنعهم من الظهور على مسرح الحدث بشكل علني، خاصة هم عصبة وأنا وحيد! ما الذي يخيفهم أو يمنعهم من الإفصاح عن مآربهم ونواياهم، أين تكمن لب العقدة؟ يا ترى أيهابون من أن تعلم هدى بحقيقة تصرفاتهم؟

أيهابون من أن تهمل وجودهم نهائيا من دورة حياتها؟ قد يكون ذلك سببا مقنعا يحيدهم عن الواجهة والمواجهة.

كثيرة هي تلك الأسئلة التي ظلت تجول في ذهني، بحيث بإصرار هؤلاء على إبعادي عن اللؤلؤة تحولت إلى شخص عنيد لن أنكسر، بدل أن أذعن وارضخ لطلبهم، أضع ذاتي رصاصة في أعينهم، أقبل خانة التحدي والتبجح، ولن أتراجع عن البحث عن سر هؤلاء، لأعر خصومي، لبيان الغاية الخفية وراء هؤلاء.

أشعر بهم ليسوا على قدر أفعالهم وألفاظهم لتنفيذ مآربهم، فلو أرادوا قتلي لنفذوا الأمر بيسر، لن يمنعهم عارض سوى الحق العام الذي سوف يتجردون منه بإخفاء هوياتهم.. هم بعيدون جدا عن غاية الانتقام، ليسوا من السذج بحيث يضعوا أنفسهم في مواجهة شرسة مع القانون والإعلام، أكيد ستلحق بهم أضرار الفضيحة، سيجدون أنفسهم في ورطة، كالعلكة بين الأفواه، وربما بذلك سيسيئون إلى هدى وسمعتها، عندها تتكشف الأسرار علنا.

تلك الأسباب مجتمعة بأبعادها المختلفة؛ تمنع أياديهم من أن تصل لمطواة الجريمة، في ذات الوقت تحيطني بهالة من الأمن المزيف الذي تصورته لنفسي من خلال تحليلي الذي أجزيته لمصلحتي.. ربما هناك أسباب أخرى لا أدركها ولم أصل لفحواها، أو لم تخطر على البال، فلم تعلن عن خفاياها بعد مضاربة نتائج الظنون المشتتة.

هذه الأسباب أعطتني دافع قوي بأن أتحدى الجميع، ولن أتخلى عن أصل هدفي، لن أتنازل عن حبيبتي من الجولة

الأولى لهؤلاء السذج، متذكرا مقولة الأستاذ المحاضر – على العاشق أن يكون لحوحا في طلبه ومصرا على غايته.

أن حجم الشك المراق في الذهن واليقين الذي يعضد الظن، كلاهما يكشفان ضلالة سلوك هؤلاء الشلة، لأنهم يتحركون في الظل، تاركين خلفهم ظرفًا عبثيا لا يفسر ذاته. حيث الحقيقة ضائعة، كأنها تحاول أن تلتقط خيطًا واحدًا يقود إلى الفهم. وسط هذا الضباب، لم يكن هناك خيار سوى التمسك بهدى، كأنها النقطة الثابتة في حالة غير مستقرة، كأنها الأرض التي لا تزال صلبة وسط كل هذا التشتت. الغموض والجهم المرفق بالظرف وما يدور في الباطن من قلق وهم ووساوس تتجدد، يجعلني لن أتنازل عنها وأستمر في حرث أرضها.

في حقيقة الأمر لو كنت أعرف مصدر التهديد، وأعرف الغاية الحقيقية المرادة من وراء ذلك وخلفية هدى المجهولة بالنسبة لي؛ لكنت غيرت من سلوكي بما يساير الواقع تماما، لكنت شرحت القصة لهدى واضعها امام الامر الواقع كي تقف إلى جانبي ضد الباطل...

ولكن.....

بعد أن استحممت وغسلت الوحل عن الجسد، بعد أن استطببت بشاش ومرهم زيتي كنت أحتفظ به في احد الأدراج؛ التمست جلد الحقيقة، ركبت مركب التحدي، دخلت في منطقة الحرام وأخذت قرارا بعدم التراجع مهما تتعقد الأمور. أنها مرحلة حرجة، تزيدني إصرارا لأثبات رجولتي أمام هدى. حينها

توقفت عن التفكير السلبي تماما، قررت أما أن أكون أو لا أكون.

بعد أن ارتحت قليلا؛ أخذت ملابسي المُتطيّنة والمدمية إلى مصبغة الملابس لغسلها وكوييها.. حين شاهدني صاحب المصبغة أبتسم لي وكأنه تذكرني... عندها قال لي:....

- ماذا بك يا أبني؛ هل أنت موعود بالطين والدماء، خف من شقاوتك.
- وهو كذلك يجب عليَّ أن أنتبه في المرة القادمة.

بصراحة كنت مسطولا، ساهيا، لا أعرف ماذا أفعل حيال المسألة المعقدة، الحلول عقيمة، غائرة في جوف الظلام، خارجة عن حدود قدراتي وإمكاناتي. لذا تركت الأمور على سجيتها علني أصل لمعرفة حقيقة هؤلاء الشرذمة يوما ما..

يبدو لي لا ينفع التخطيط مع هؤلاء الشياطين، فهم أن أرادوا أذيتي لن تمنعهم الحواجز ولا إرادتي الهشة، ولن أتمكن من رد أفعالهم المحكمة، فهم لهم القدرة على البروز في الزمان والمكان المناسب الذي يحددونه لتنفيذ مآربهم، وكأنهم شياطين وأبالسة تخرج من تحت الأرض.

وفي اليوم التالي لم أجرُء أن أذهب للجامعة، حيث بانت أثر الكدمات واضحة على الوجه، بعد أن أزْرَقَّ الجفن الأيمن، وتورمتْ الشفة وأحْمَرّ الجبين. ناهيك عن زرقة في الفخذ وتمزق في عضلة الساعد والساق، لذا منحت نفسي إجازة ليوم الأثنين من الأسبوع التالي؛ حتى خف أثر الكدمة من الوجه وتماها الألم في الجسد.

ثم أني حينها كنت مجهدا فكريا ونفسيا، الحدث وقع في يوم الأربعاء، أي قبل عطلة نهاية الأسبوع بيوم، مما أعانني على تطبيب جراحاتي النفسية والجسدية، وبذلك أعدت لهيكلة الجسد قدراتي النفسية التي تأزمت كثيرا.

كالعادة زارني شاكر في ليلة الجمعة ولاحظ الكدمات طافحة في وجهي وزرقة غائرة تحت الجفن، حين إذ أستشاط غيضا وغضبا، بات يلومني على عنجهيتي وعنادي، حيث قال بعصبية:..

- مرة أخرى.. أما لك أن ترعوي، ألم أقل لك أترك هذه اللعينة القذرة أنها مصدر المصائب.
- هدئ من روعك يا شاكر، ألا يجب أن تعرف السبب.
- تفضل، أفرط ما في جعبتك؟
- لقد تعرضت لحادث سير في وسط المدينة، ليس كما تتصور ظنونك,,, (وددت أن أوهمه فقط لأكتشف فراسته لا أكثر).
- مستحيل، هذه الكدمات واضحة وضوح الشمس فهيَّ آثار ضرب مجحفة، وليس حادثة سير كما تود أن توهمني، لا تكذب معي! لا تخفي الأمر على أخوك؟ أن كنت ألومك وأنهاك عن متابعة الثعبان والشيطان، فلأني لا أريد لك التهلكة.
- صدقت، وددت أن أخفف من انفعالك، هي كسابقتها، لم أستطع أن أتعرف على هوياتهم، كانا شابين ملتحيين، لم أتعرف عليهما سابقا، أحدهما أسمر طويل مفتول العضلات، والأخر أقصر منه قليلا ذات مسحة بيضاء وعيونٍ زرقاء... كنت أمشي مع هدى خلال

الطريق حيث كنت عائد للقسم الداخلي فيما كانت تنوي الذهاب للسوق، ولا أدري أن كانت تسكن في القسم الداخلي أم في مكان آخر، حيث لم يخطر في بالي أن أسألها - بمجرد أن تركتني لترافق زميلتها؛ ظهروا هؤلاء أمامي كالشياطين، وكأنهم خرجوا من باطن الأرض، تصور هذه المسكينة مراقبة في كل خطواتها، لا تستطع أن تتصرف بحرية في حياتها.

- أنت المسكين.. أنت الغشيم!! يقول مسكينة هههههه، أنظروا لهذا الأهبل أذا ما كانت هي بذاتها تدفعهم لتلقنك درسا في المعاملة، وما يدريك أنها مسكينة؟ أن لم تكن هي صاحبة القرار في إيذائك؟ أنظر للمسألة من باب آخر وبعين أخرى غير عيون العاشق الولهان.
- ما يدريك يا شاكر هي من تدبر لي المصائب، هل أنت احد أفراد العصابة؟.
- لك أفهم يا غبي! أنظر في عقلك ولا تنظر في قلبك، أنت مسكين، مريض من فرط الشوق والهيام، لا ترى الأشياء على حقيقتها، فعلا تستحق الشفقة والرحمة، فلا تتبجح برأيك.... المسألة واضحة وضوح الشمس، في المرتين السابقتين تُهددْ وتُضربْ بعد أن تنهي لقائك بها.
- صحيح، عين الصواب.
- إذا في غايتها مرام مخفية لا تستطيع كشفها أمامك، قد تكون اسرارا تخصها، وقد تود تجربتك أن كنت ستبقى متمسك بها أم لا، وقد تود ابعادك وانت ملتصق بها كالطين اللازب، قد تريد أن تقلعك وأنت ملتصق

فـي حـذائها كعلكـة التـوفي، لا تفقـه غايتهـا ومرامهـا، وقـد يكـون خلـف تلـك التجربـة مسـائل وأمـور أخـرى لـن نتوقعهـا، مسـائل مدفونـة فـي بـواطن الـذهن والقلـب.... المثـل يقـول" أهـل مكـة أدرى بشـعابها" هـذا يعنـي مـن المفروض أنت أدرى بالتفاصيل لاهتمامك المفرط بها.

- سـأثبت لهـا بـأني عنـد كلمتـي، لـن أتنـازل عنهـا ولـو أروني الموت بعيني.
- في المرة القامة أحمل معك كفنك...هههههه.
- لن يجرؤوا رغم أذيتهم لي.
- طيـب تسلح بمطـواة أو سـلاح مـا يعينـك، خنجـر أو حربـة أو سـكينة تـدافع بهـا عـن نفسـك، لا تتهـاون لربمـا فـي المرة القادمة تتعرض لموت حقيقي أو لعوق مستديم.
- حاضـر يـا سـيدي، أمـرك مطـاع، سـأفعل، سـأكون أكثـر حـذرا، وسأشـكك بكـل غريـب يقتـرب منـي، سـأتحول مـن أرنب كما وصفتني لذئب أملط.
- أدعـو لـك بالسـلامة، لأنـك صـاحبي وأعرفـك جيـدا لا تتجرأ عن فعل أي شيء.

ثـم غـادرني وتركنـي فـي دوامـة الفكـر بعـد أن فـتح عينـي علـى مسـائل لـم أنتبـه عليهـا، فعـلا بعـد كـل لقـاء بهـا تبـرز أمـامي تحديات جديدة، ترى من يحفز هؤلاء على أذيتي؟؟

5- الفتاة السمراء

في بداية الأسبوع الجديد تأنقت بأفضل ما أملك من لباس أتحفت نفسي به قاصدا الجامعة، كانت الأورام قد خفت أثارها في شفتي، فيما بقي أثر جرح صغير متعلق في الجبهة كشاهد على الحدث، إضافة لزرقة تحت الجفن الأيمن، بدورها خفت حدتها وتقشع لونها مع نهاية الأسبوع. رغم ذلك ارتديت نظارة شمسية أغطي بها أثر الكدمة، لأبعد عن ذاتي تساؤلات الطلبة الفضولية.

ذهبت وكل أملي ألتقي هدى، لقد هاجني الشوق لرؤياها، لمداهنة محاسنها بسلاسة الحديث، حيث ركب الجنون المعفر سنام فكري، جال الحلم في رأسي وسط الدوشة المحيطة التي تعترينـي، لم أستطع التحايل قيد شعرة على ما تختض في صدري من ثورة عاطفية تجاهِها. حيث كلما أمر بمرسى ذكرها تحول إرادتي من حجر صلب لإسفنجة ماصة بحيث تمتص كل العقد والاحتمالات البغيضة الممكن حدوثها في طرقي، تصبح متلقية للأوامر بدلا من أن تُسديها.

بحثت عنها في الأماكن التي أعرفها دون جدوى، مررت بالنادي، تعنيت إلى المقهى، بحثت في حدائقها، زحفت إلى المكتبة وكليتها؛ فلم أصل لمبتغاي، كالعادة كأنها فص ملح ذاب في بحر من الشك والعناء. أرتفع وتير القلق، الإرادة عاجزة عن إدراك غايتها، في الوقت الذي به الهبتْ جمرَة الشوق في الفؤاد الذي التاع من تكرار مشهد الاختفاء. تفجر بركان الشوق في أعماقي، ليعلم الجميع بهيامي وتيمي باللؤلؤة.

أستمر مسلسل الاختفاء على هذه الوتيرة قرابة أسبوعين وأكثر، لم أعر أهمية للوقت، بات الأمر سيان عندي، كأن الزمن فقد ملامحه، كأن الأيام باتت نسخًا متكررة بلا اختلاف، حيث الروتين المتكرر أطفأ شرارة الفكر، وأحال الحسابات المعقدة إلى مجرد ظلالٍ باهتة. لم يعد هناك فارق بين اليوم والأمس، بين اللحظة التي تمر وتلك التي سبقتها، كأن الوقت أصبح مجرد امتدادٍ لا يحمل جديدًا.

اكتملت سلسلة العقد من حولك، دون أن يبزغ لها نورٌ في الأفق، دون أن يظهر لها حلٌ واضح، وكأنها تحكم قبضتها أكثر مع كل يومٍ يمضي. الحزن يتكرر، تأثيره لا يتلاشى، بل يرسخ نفسه في كل تفصيلٍ صغير، حتى صار لون الزمن باهتًا في الحدق، بلا رونقٍ يبهج النفس، بلا إشراقةٍ تكسر هذا الجمود. لكن هل يبقى الزمن على حاله؟ أم قد تكسر هذا الروتين بلحظة ما، قد تفتح نافذةً صغيرة نحو تغييرٍ لم يكن في الحسبان؟.

أحسست بحالي وأنا أسير في الطرق كأيقونة مجردٌ من الإرادة، كأني مغشي بخمرة الوجد، لن يجردني عن هوسي وفكري المسهب سوى ظهور تلك الطالبة الغريبة، السمراء، المجهولة، في سماء وجدي وظني، كأنها برقٌ خاطف، أنارت ظلمة فكري ثم اختفت في ديجور السدم. لقد مثلت ببراعة دور الحمام الزاجل، هدلت فوق غصن الشوق، ثم طارت تاركة خلفها فكرة تختمر في الظن، دون أن أتمكن من تحديد مكانها بين التلاميذ، كأنها كانت قدرًا عابرًا كشف عن وجهه وأختفى....

تلك الطالبة كانت مرسلة من قبل تلك العصابة الماجنة، تلك التي ما فتأت باتت تتبع خطواتي داخل وخارج الجامعة، راقبت الأحداث عن كثب ودون ملل، دون أن تكشف لي عن ذاتها وسرها وهويتها، لأبقى أعيش في دوامة القلق.

أخذت تلك العصابة تتفنن في إعداد مفاجآتها، تتحكم بزمام الأمور كيفما تشاء عبر خارطتها، جعلتني نِصاب الهدف، تبتكر أساليب اقتحام الذات بخطط محكمة لا تخطُر على البال. هذه المرة جاءت بشكل مغاير عما سلكته سابقا، استبدلت أسلوب العنف بأسلوب التقريح والاستفزاز، حيث ظهرت في وقت الأزمة والشدة، بزغت بصورة جديدة لا أتوقعها، أضحت تخطط وترسم أهدافها بعيدا عن أسلوب المواجهة، كأنها وجدتْ أسلوب العنف لا يجدي نفعا، لذا نحت منحا أخرٍ أكثر سلاسة وعقلانية، باتت تتحكم بالمواقف عن بعد بريموت الكونترول...

أمسكت رأس الخيط بيد، ثم بدأت تقتحم مجالات حياتي بحسب لون الظرف والوقت وكما تشاء، دون أن تدع لي فرصة التفكير ومعالجة مخططاتها، كي لا أستهجن وأغوص في بحر التوقعات، لتستمر زخ المفاجآت بتكرار، لأكون فريسة دائمة أمام أسهم غلهم التي يتحكمون بها من مخابئهم السرية.

موقف جديد طرأ على حين غفلة، طرز بالمقبولية الظاهرة، تكتنفه الرحمة والرأفة. موقف فيه نفاق وتظليل وتطرف، أكثر غلٍ وحيرةٍ وتجافٍ من المواجهة، يكتنفه ترهيب ووعيد وتهديد صريح. هجست بهم أعدوا لي فرصة الهرب من نافذة اليأس إلى واقعي الحقيقي، قبل أن أُحْرَقْ في كوة النار.

كانت تلك الفتاة السمراء التي يغلب عليها سحنة الطيبة والتمسكن قد اقتربت مني، ثم سلمتني رسالة مغلفة بإحكام، لم أتعرف عليها من قبل، لم أشاهدها داخل أروقة الجامعة من قبل. فتاة جذابة ذات وجه طفولي ناعمة الملامح، ترتدي حجابا أسودا ومريولا رصاصي اللون(سترة طويلة)، وكأنها خارجة من مختبر الكيمياء، كانت تغطي جسدها سترة بيضاء لتحت الركب...

حين دنت مني لم تعرفني بنفسها، حيث سلمتني مظروفا مغلقا دون أن تذكر لي مصدره. قالت لي بهدوء:...

- مرحبا أخي... هذه رسالة لك، مبعثه من شخص يهمك.
- لي أنا؟
- نعم هي لك، ذلك الشاب الواقف هناك (تلفتت يمينا وشمالا للخلف، كأنها افتقدته).. يا إلهي أين أختفى، كان واقفا هناك عند تلك الشجرة، طلب مني أن أسلمك الظرف، كأنه يضمر لك مفاجأة سارة، هكذا لمح لي بذلك، أنا آسفة وما على الرسول سوى البلاغ.
- الم يذكر لك اسمه؟
- لا لا لم يذكر لي شيئا، مجرد طلب مني اسلمك الرسالة، يبدو أنه صديق لك، شاب أسمر نحيف طويل، كان واقفا تحت ظل تلك الشجرة.

أخذت الرسالة، شكرتها على سعيها وأنا أجر جدم الحيرة نحو وهدة الظن، تهت ما بين شك راغ في الفكر وفضول سعى لمعرفة صاحب الرسالة وأسرارها، مبعدا تماما كل صلة تجمعها بطرف هدى.

مـا إن سـلمتني الرسـالة حتـى انـزوت بـين موجـات الطلبـة، تلاشـت فـي غياهـب السـدم، كأنهـا طيـفٌ عـابرٌ اختفـى قبـل أن أتمكـن مـن اقتفـاء أثـره. كأنهـا خلعـت سـترة المختبـر، انـدمجت بين شلة الطالبات، ولم يعد لها وجودٌ في مدى بصري.

حـين فتحـت الرسـالة، اجتـاحني اضـطرابٌ مفـاجئ، خـوفٌ مـن أن تكـون مجـرد لعبـةٍ أخـرى، مـن أن يكـون الخبـث قـد وجـد طريقًـا جديـدًا ليحاصـرني. لكـن حـين سـقطت عينـاي علـى مضـمونها، تغيـر كـل شـيء، تعفّـر وجهـي، هـزل كيـاني، كـأن الكلمـات حملـت معهـا صـدمةً لـم أكـن مسـتعدًا لهـا. الرسـالة جعلتنـي ألتفت يمينًـا ويسـارًا، أبحـث عـن تلـك الفتـاة، عـن أي أثـرٍ لهـا، لكـن دون جـدوى. كانـت قـد اختفـت تمامًـا، تاركـةً خلفهـا كلمـاتٍ تحمـل تهديـدًا صـريحًا، واضـحًا، معنونًـا كالتـالي: **"اسـمع يـا هـذا: لقـد حـذرناك مـرارًا، إمـا أن تتـرك الجامعـة أو تبتعـد نهائيًـا عـن هـدى لتسـلم روحـك. لـك خيـار التصـرف والقـرار، ولنا خيار المعاملة."**

الخيـاران أصـعب مـن بعضـهما، أن أنـزل مـن سـلم الحـب الـذي كنـت أسـمو بـه نحـو فـردوس السـعادة، أو أن أتـرك صـرح المجـد والعلـم الـذي طالمـا تأملتـه فـي فضـاء أحلامـي منـذ الصـغر. كلاهما يحمل في طياته خسارة لا يمكن تعويضها بسهولة.

لكـن التهديـدات، مهمـا بـدت صـارمة، ليسـت سـوى محاولـة لفـرض السـيطرة، لإجبـارك علـى اتخـاذ قـرارٍ لا ينبـع مـن إرادتـي. السـؤال الحقيقـي: هـل سأسـمح لهـذا التهديـد أن يحـدد مسـاري؟ أم سـأبحث عـن حـلٍ لا يجبرنـي علـى التضـحية بأحـد أحلامي؟

إذا استحالة عزوفي عما يجيش في صدري لأنها مسألة خارجة عن نطاق الإرادة، واستحالة عزوفي عن دراستي لأنها شغفي ومستقبلي وشخصيتي وثقافتي وحياتي القادمة. استحالة التنازل عن العقل الذي فنيت عمري من أجله؟ كما هو استحالة التنازل عن القلب الذي وَجَدَ خيمة تظله؟ هنا لي مرتع أحوك به لبد الزمن، وهنا لي مرتع أفك به أسري من قيد الزمن..

هم توصلوا لحل يخدمهم، وأنا توصلت لحل يخدم ذاتي يتبع خطوط القدر وخط الثقة بالنفس، حيث البشر لا يمكن أن يعزلوا أنفسهم عن الأقدار، لأنها واقعة لا محالة، وفي ظني اعتبرتهم أُناسٍ قد بالغوا كثيرا في سذاجتهم ومحاولاتهم العقيمة على ثني عزمي، وما تهديدهم الجديد سوى وغف صابون يحاولون تسجيل نصرا في سجلهم.

خلف هذا الإصرار والجحد تقف إرادة بائسة، يائسة، تحاول التمسك بشظف المطاولة والعناد الذي لا يجدي نفعا مع ثباتي على موقفي. فلن أدع شخصيتي تهتز أمام قامة هدى مهما كلفني الأمر وشاكني الوضع، لذا صاروا يلبسوا أقنعة غريبة لمداورة عجزهم ومداراة موقفهم..

في حقيقة الأمر أنا الذي أتحكم بالأوضاع وليسوا هم بما يخططوا له، أتحكم بما يَعتصر الفؤاد من أنزيم التحدي والمواجهة والثقة بالنفس، وليس بما يسوقون لي من عبث وغل في سوق الفوضى ومن خلف الحواجز.... عملهم لم يكن سوى عجة ريح أغشت أرض ربيعية لم تزدها سوى لطافة. لذا تمسكت بدليل قلبي وسلم عقلي، لن أسمح لعبث يهز كياني ولا لخوف يشل إرادتي..

المسألة تجاوزت حد الإرادة، أضحت معلقة في جيد القدرْ والمصير، مرهونة بيد هدى أولا ثم بيدي أنا. هي الوحيدة التي تستطيع قطع حبل الوصل بمقص إرادتها.

مسالة التهديد والوعيد أصبحت حالة من الماضي بكل جبروتها هي سيان عندي، لا تقدم خطوة ولا تأخر أخرى، لست مهتما لما يجري من حولي، ولم أعد أفكر بالحيطة والحذر التي شغلت نفسي بها خلال الفترة الماضية، فلا أريد أن أرهق فكري بجعجعة أطفال يركضون خلف لعبة، تلك الثوابت استنبطها من واقع شرودهم وعنادهم الخاوي. هذا النهج جعلني اتمسك بسعادتي وهي تتسلق شجرة ميلادي، لتضيء قناديلها، لأتلقف ثمار الفرص، لأذلل الظلمة بالنور البائن.

بت لا أخاف قيد أنملة على مصيري؛ طالما أشعر بأمان من جهة هدى ومواقفها معي، فلو كانت غايتهم واضحة لي ومقروءة؛ لسلمت لهم الجمل بما حمل وفق ميزان العقل، لتصرفت وفق المصلحة الذاتية وحسب وجهة نظري الخاصة. لكنهم وضعوا القيد في معاصم أياديهم، أعمالهم الخبيثة لم تكن سوى مطب طريق لا يحيد الحادي عن مساره. هذا هو الواقع الجاري، أفكاري تؤازر مشاعري، توازي حالة العند الدائرة في محيطهم، أضحى القرار خارجا عن الإدارة فوق التحكم به، أكبر حجما وقدرة من أفعالهم الشنيعة.

لو كان لهم نية غدر؛ لغدروا منذ الوهلة الأولى، لدلت تحرشاتهم على أفعالهم الصبيانية الجبانة، التي لا تخرج عن نطاق لغة التطفيش. بتكرار محاولاتهم زادوا من غلة عنادي،

غرزوا أسفين التحدي في ميدان المنازلة، جعلوني أصر على معرفة اسرار تحركاتهم والغاز نواياهم..

مع مرور الزمن أصبحت العقدة عقيمة، لا يمكن حلها ولا التنازل عنها. كيف أتنازل عن شرف وجودي في حياة اللؤلؤة؟ حتى لو أغروني بمال الدنيا. لابد من وصل يجمعنا ولو كان اللقاء في قاع البحر، فالحب مهما ضمرت نتائجه فهو قادر على أن يتحرر، أن يرتقي مرحلة الجنون، وأنا بكياني قد جننت بها، وتلك الآصرة لا تنفصم بطرق التهديد.

الحب، تلك الواجهة المثلى لجمالية الصبر والمصير، هو الخيط الذي يفك عقد العناء، يغزل الهيام بذكاء، ويسمح للود أن يسري في حقول السعادة دون قيد أو شرط. هو دمية الكبار والصغار، لعبة المشاعر التي أداعبها متى أشاء، أترقبها متى أشاء، وأتعلق بها كما يحلو لي. إنه أنشوطة السعادة التي تتحكم بالقلب والعقل، نسيجٌ لا ينفصم مهما تعاقبت الأيام، ومهما طال الزمن، فهو الحقيقة التي لا يمكن التفريط بها.

الحب والسعادة والعناء والشقاء جزر طبيعة في بحر الحياة، كل يضفي على شكل الحياة لونه، لذا أضمرت لغز الرسالة في جعب الصمت كأني لم أقرأها، لم المسها أو التمس مغزاها، لم أعر لها أهمية قط.

بعد أن قرأت التهديد بحثت عن تلك الفتاة التي سلمتني المرسال، عسى أن أصل معها لخيط يوصلني بهؤلاء الغوغائيين، وسط ذهول وتشنج عبثي أصابني في بادئ الأمر، دون أن أرسى على بر؛ لم استطع أن أجد لها دليل في وسط زحمة الطلبة والقلق الذي شغل بالي. كأنَّ في اختفائها

وانزوائها علاقة بهؤلاء الشلة، الذين تعقبوا حركتي بمنظار خفي.

رغم قراري وإصراري على عدم التنازل عن هويتي، صرت أتجنب السير لوحدي في الطرقات، وخاصة خلال ذهابي وإيابي للقسم الداخلي، تجنبا لأي طارئ مفاجئ يواجهني. كما أني أخذت بنصيحة شاكر في حمل سلاح أبيض، عبارة عن خنجر صغير أخفيته في جيب سترتي. بصراحة كانوا قد زرعوا الرعب في داخلي.

ونتيجة لذلك القلق؛ بت أتجنب كل شخص غريب يقترب مني خلال الطرق، محاولا الابتعاد عن مسراه قدر الإمكان، واضعا يدي على مقبض الخنجر المدفون في جيبي، مهيئ ذاتي للمفاجئة التي قد لا تحمد نتيجتها، والتي قد تدوي في لحظة غفلة.

استمرت حالتي المتذبذبة بين جذب وشذب وصراع مع المجهول والمصير، نتيجة شطط القلق المتزايد والذي رافق اختفاء هدى من جهة والتهديد الذي بات يتكرر ويربك وجودي من جهة أخرى؛ لأني بصريح العبارة قبلت التحدي ودخلت في أجوائه، لذا حاولت أن أحصن ذاتي وأكون أكثر حذرا وفطنة وشدة من أعدائي.

ما كان يزعجني هي حزمة الأحلام المزعجة والكوابيس المسبوكة التي صارت تحاور فكري وتسور إرادتي بالخوف والعزلة. حيث الأنسان عبارة عن بوتقة مشاعر مركبة وظرف وقدر مسير أكثر من كونه كيان عالق في الحياة، لا يستطع أن يجرد نفسه من العوالق المحيطة به مهما كان قويا

وشـجاعا، فـالغريزة تتحـرك فـي داخلـه وسـط جمـاح الـنفس، تبحـث عـن الغريـب والمثيـر مـن الأشـياء لتعـزز قدرتـه، تبحـث عـن الجـذور فـي الشـؤون الصـغيرة، ليستشـعر بعالمـه الواسـع ضمن مدى البصر.

أضـحت الوسـاوس لكثرتهـا تهـيء لـي هـواجس العنـاء والقلـق مـع العتمـة التـي تغشـي الليـل؛ نتيجـة التفكيـر المفـرط الـذي لا ينقطـع بـاللؤلؤة والمصـير الـذي صـار يشـهق بـالحيرة والعـذاب ليثبـت، أضـحت الصـلة بـين الوسـواس والوسـادة تجاذبيـه، بحيـث مـا أن أضـع رأسـي علـى المخـدة؛ حتـى تهـاجمني الكـوابيس، فتحيـل حـالتي لبـائس مجهـد، يتـرنح بـين مـد وجـزر الخـوف، سـاهدا ساعات الليل الطويلة بلفائف القلق.

دائمـا مـا أجـد نفسـي مطروحـا بجانـب جسـد منحـل، غارقـا فـي بحـر مـن الشـك، دون أن يعيننـي الكـرى علـى النسـيان، دون أن يسـلم الفكـر مـن العصـيان. أشـعر بالـذات وكأنهـا تمـر فـي دارة هـوس مفرغـة شـحناتها، مكبلـة المصـير، مكبوتـة، تعـيش كقوقعـة صدفية في مستنقع هدى.

هكـذا تركـت الحالـة علـى مـا حالـت بـي دون تغييـر مـن جـانبي، بقيت أترقب الأمور والأحداث وكأنها لا تعنيني.

6- الكابوس

منذ أن تعرفت على الفاتنة هدى، تلك التي أسميتها باللؤلؤة، وضعت نفسي تحت مجهر الأعين المتلصصة وتحت ظرف لا أحسد عليه، جعلتها تعيش في حالة قلق دائمة، مشغول البال، لم أأخذ بنصح شاكر أبدا.

مذ أن سقطت لاحظة عيني على ملامح وجهها، بت لا التمس للسكينة صفة في البال مطلقا، تبدلت، تلاشت من بالي كما لو أنها لم تكن يومًا جزءًا مني. تغيرت المعادلة، أنفلتَ شرودي، بتُ أحنُ للزمن الذي كان فيه الانتشاء طاغيًا، حيث الأيام كانت تحمل هدوءًا لا يعكره شيء. لكن بعد أن غصت قدمي في وحل غرامها، لم يعد هناك مجالٌ للعودة، كأني قد تجاوزت خط الرجوع، وما عليَّ سوى أن أكمل المشوار حتى النهاية.

تلك الفاتنة قلبت موازين حياتي رأسًا على عقب، زرعت الفوضى في مفاصل أيامي، أوهنت قلبي بنار الحب، جعلتني إنسانًا مختلفًا كليًا، لا أشبه أحدًا، ولا حتى ذاتي. تبدلت المفاهيم، تغيرت القيم، بتُ أمشي بنِيَّاتٍ لم أكن أعرفها من قبل، كأنها أعادت ترتيب فكري وشخصيتي وفق ما يجول في خاطرها دون أن أملك خيارًا في ذلك.

صرتُ لا أعرف حقيقة نفسي التي أصابها الخلل، ولا طيفها ينفك عن خيالي، كأنها أصبحت جزءًا من كيان لا ينفصل عني. لقد تغير الوضع تماما جعلتني إنسانا مختلفا كليا لا أشبه أحد، ولا أشبه ذاتي، لقد تبدلت المفاهيم والقيم لديَّ وبت أمشي بعكاز من صنع نياتي.

وفي ليلةٍ هادئة، حيث السكون يلف الأفق، سجى بيَّ الشوق إلى أطلال الفؤاد المعنى، قدحت قناديل الحب في أركان الحلم، أضاءت الأنوار فضاء الهيام والغرام. تراقصت عنادلُ الشوق تحت ضوء القمر، تبعْتُ طيفَ اللؤلؤة المستنام في الخيال، عبر حلمٍ استهوى شرودي، أطلقني إلى الأفق، حيث تفتحت نوافذُ الود أمام حقيقةِ استهجاني. بدت الروحُ مزهوةً بطوقِ فرح، تستهوي ذكر الحبيبةِ هدى، كأنها نشيدٌ يتردد في الأعماق، وكأنها ضوءٌ ينسكبُ في ليالي الانتظار.

بتلك الليلة الساهدة كنتُ قد جنحت نحو حقل الهوى، ركبت مركب الشوق، داعبتُ شتات الصور، انحدرتُ نحو منازل الحلم بين خلجات الوسن، وطئتُ موجات الظن والحقيقة، اقتحمت أسوار الصمتْ والسكون الدائرة في خلدي، تبعثرتْ الأفكار كحالة عقم بين مد وجزر، معمعة الجدل والجنون طافت أعماقي، كهسيس الشك، يلهث باسم اللؤلؤة.

طيفها كان قد استهام قلبي، طرق باب الود كشمس دافئة، ارتعشت أوصالي، غسلت شمائلي ببروق سحرها، ابتسمتُ لها، أبتسمتْ لي، انحنيت لدفئها، فأرفقت هوسي لمصافي قدرها.

حلم طاف أروقة الذهن، استباح نظر العين وأناء القلب بذلك السحر المشع من فيض حسنها. أنتشت النشوة في فضاء الروح، كدت أغرق في سدم العصف والخوف لولا أن جنح بي القدر لواحة الهدوء والسكون بتلك الطرق المدلسة.

كنت وحيدا في رحلتي، أطوي الطرق براحلتي، اتجول في رواق الفكرة، مارا بمزرعة واسعة، يكتنف أجوائها هدوء تام،

كانت الشمس قد غفت في جحور العتمة، فأنتشى الغسق في الأفق بشكل كثيف. في تلك اللحظة بقيت ساهدٌ اتبع نشوة الهدوء ونسيم الصبا، وأنا أحف الدروب المبهمة دون يقين، ماضيا في رواق قديم كانت الذكرة قد تعرفت على خفاياه، وكأني مررت بذاك الرواق يوم ما، متذكرا تفاصيل المواقع التي مررت بها قبل ان أشاهدها، بدتْ لي أشبه بمخطوطة كنت قد قرأتها في زمن ما، زمن بعيد، كفترة الطفولة، شيء من هذا القبيل تملك عقلي وأيقن ظني.

رواقٌ بهيجٌ رغم حلكة الظلال، تزيدني شوقًا، تلهبُني بالخيال، أتبعتُ الرغبةَ في ممراتٍ دهلة، بشيءٍ من الجنونِ والعبثِ المُحال. الغموضُ ينسجُ أسرارَه في الزوايا، يتركُ خلفهُ أثرًا لا يُقال، كأنني أبحثُ عن ضوءٍ في العتمة، عن حقيقةٍ تختبئُ خلفَ الجمال

كان الإصرار داخليًا، متجذرًا في الأعماق، يدفعني إلى تخطي العجز والخوف، يحثني على المضي قدمًا في ذلك السراط، لاكتشف لغز الرواق المهجورة التي أغوتني. كأن العودة للماضي أصبحت ضرورة، كأنني أبحث عن تلك المعالم التي أعرفها، التي عصت على الفكر أن يتذكر ما خلفها.

الإصرار والمثابرة هما مفتاح تجاوز العقبات، فهما يرتبطان بالمرونة والتحفيز والعزيمة، ويشكلان قوة شخصية تدفع الإنسان نحو تحقيق أهدافه رغم التحديات.

وأنا سائر بشيء من النشوى، هجست بذاتي الهائمة وكأنها تتعقب شعلة ضوء دون إرادتها، هجست بنشاط زهري يتدفق في الفكر، يهز البدن، يرهف كياني؛ كأني ألتمس مصداقية

ظنـــي فـــي ذاك الطريـــق المتشـــعبة. فحـــوى ســـعادة ذائبـــة فـــي السـكون العـائم مـن حـولي، عبـق سـعادة لامسـت قلبـي، تـراءت لـي كحقيقـة تـبطن هـاجس الخيـال، كنخلـة باسـقة تبـتهج بـالريح، فتنثر أطيب الثمر.

هكـذا بـدت لـي الآفـاق سلسـة، مرنـة، واسـعة، تتجـاوز أزمـة العلاقـة، تتبـع هاجسـا مـن يقـين، أشـعرتني بتواجـد اللؤلـؤة فـي زاويـة مـن تلـك الـرواق، كنـت سـعيد جـدا وأنـا أبحـث عـن الغايـة رغـم الشـقاء والمثـابرة، رغـم المسـافة والعتمـة التـي تفتـرش الطـرق، مضـيتُ فـي سـري؛ اهجـس بظـلال الاشـجار تتعقـب سـري، تنتظرنـي كشـياطين وطناطـل فـي الطريـق وأنـا أتبـع غايتي.

العطـش أذوانـي، تركنـي تائهًـا فـي الـدروب، لـم أُعِـد نفسـي لمطبـات المفاجـآت، لـم أحتمـل لذعـة الظمـأ فـي أحشـائي، بـتُّ ألهـث فـي صـمتي، أشـدُّ علـى الصـبر، بعـد أن اكتـوى عـودي تمامًا.

حينهـا، أدركـت بصـيص إنـارة يخفـق بـين ظـلال الأحـراش، كأنـه نـبضُ نجمـةٍ بعيـدة، كومضـةِ فراشـةٍ صـادرةٍ مـن بيـتٍ زجـاجي، مركـونٍ إلـى جانـبِ طريـقٍ خفـيٍّ، كأنـه وعـدٌ وسـط العتمـة، كأنـه أملٌ يتوارى خلفَ الغموض.

اتجهـت نحـو ذلـك البيـت وكلـي أمـل أن أسـقى شـربة مـاء أجيـل بـه ظمـأي، وانـا مـاض دون وعـي فـي سـرنمة اتبـع هـاجس خفـي يقـودني إلـى حيـث المجهـول، يحثنـي علـى التحـري عـن اللؤلـؤة فـي تلـك المتاهـة مـن الـزمن، أتبـع بصـيص النـور فـي تلـك العتمـة، علني أجد ذاتي الضائعة بين أفانين القدر.

وأنا أتقدم نحو ذلك البيت، كان إحساسٌ غريبٌ يشدني إليه، كأن شيئًا خفيًا يدفعني للمضي قدمًا نحوه. كلما اقتربت خطوة، زاد ظمئي، اشتدت حرقتي، كأنني أسير نحو سرٍ لم يُكشف بعد. انتشى العبق في المحيط، تلاعبت نسماته بروحي، كأنَّ ذلك العطر المضاع يندح من صدر ذاك البيت المبهج، وسط الأحراش المكتظة، كأنه وعدٌ خفيٌ بالراحة، أو ربما لغزٌ جديدٌ ينتظرني خلف بابه.

وما أن أدركت الدار؛ حتى وجدتُ نواسيه تُضِيءُ ممراته ومَا حَوْلَهَ، وما أن طرقت الباب حتى أنفلج على مصراعيه، بان خلفه ممر فضي ضيق، يلمع تحت شبكة من أضواء القناديل. وأنا في قمة ورعي واندهاشي، إذ بي ألمحُ فاتنتي تفك صرة العقدة، تنتشلني من هوة الحيرة التي لفحت قلبي. أنها الؤلؤة!!.

ذهلت حين رأيتها وهي تتقدم نحوي بشوق ولهفة فاتحة ذراعيها، مسرورة الوجه، منشرحة النفس. وما أن عانقتني حتى ذوى ذاك العطش تماما من على ثغري، استكانت الروح في وهدة الشوق، خلى القلب عن اضطراباته.

استفسرت منها متعجبا...

- من أرى! هدى!! أأنت تعيشين هنا وأنا أبحث عنك بين الأروقة والدروب المحيرة؟ كيف دخلتي إلى هذه المتاهة؟
- نعم أقطن هنا! هذا بيتي! لا تتأبط العجب، تفضل أدخل.

...دخلت بقدمي اليمين متفوها بالبسملة، وإذ بالأضواء تحاصرني من كل جانب، من فوق وتحت، عن يميني

وشمالي، ترشدني في وهدة الممر نحو غرفة نومها، ذات الأضواء الوردية الخافتة، والتي تشرف على حديقة واسعة من الورود الساحرة، الملونة، من جوري وفل وياسمين وكادي ونرجس وقرنفل وكاميليا وشقائق نعمان وجلنار وأوركيدا وتوليت وكاردنال، كباقات محيطة بمسبح دائري لطيف، ممكن أن ترى زلال مائه وهو يتدفق بنقاء، بحيث يمكنني أن أرى الأحجار الملونة والأسماك وهي تسبح في موجه..

دخلت غرفتها التي بدت لي دائرية الشكل، ترتكز قاعدتها على أعمدة مثبتة في عمق البحيرة، فيما يشكل سقفها فسيفساء يشتعل بهجة تحت بهرجة ثريا من الكريستال الملونة. يوسط غرفتها سرير دائري من عظم العاج مراع بفرشة وثيرة من القطن الخالص وشراشف زهرية من حرير السوسن والاستبرق، معلقة بأعمدة السقف ببوصلات رفيعة من الأستيل المذهب.

يكاد سقف الغرفة يكون أشبه بقبة رصد فلكية، أو مزار معين، مرصع بأختام نجوم لامعة وتوابع من أحجار كريمة منوعة، مصفوفة بشكل فسيفساء جذاب تغيث القلوب العاشقة، يزخر وسطه زخرفة إسلامية براقة من عقيق وفيروز وتوباك وماس وأنواع أخرى من المعادن والأحجار الكريمة التي لا أعرف لها أسماء، حتى أشعرتني بنفسي وأنا أتجول سط تلك الدهشة كعنصر غريب، شاذ، غير مناسب لتلك البقعة المبتهجة.

أضحت هدى تتحرك بين تلك الأضواء كحورية وهي ترتدي ثوبا من حرير شفاف، يتدرج ألوان صخبه بين أصهب فاقع

وزرقة فيروزية تشهق بالبهاء توائم بؤبؤ العين، موسومة بالحدة لتزيد الأجواء بهجة وأناقة. كأنَّ الأضواء تستمد طاقتها من رقتها ونعومة البشرة الملداءة.

بان لي جسدها تحت وهج الثوب يتماهى كالضوء خلف الديباج، بل يتخلل ديباجها المخملي البراق، لينعكس على ثنايا الغرفة، تهجس بالبيت يمتص إشعاعه وألقه من ذاك الجسد؛ حتى وجدت نفسي مرهونة بقيد سحرها، منقادة خلف ذلك الحسن المشع والجسد الأهيف.

انحدرتُ نحو منبع الفتن لأستشعر بسحرها، هجست في ملامستها شوق أغواني، احتضنتها برقة الملهوف، تحسست دفئها وفيض عطرها المضاع، تبعتُ غياث الشبق النافث من شهقة الأنفاس. لم اشعر بذاتي حين طوقتها بذراعيَّ، وحين غرست شفتي بجمار شفتيها، حتى امتزجت الآهات برضاب شدقيها، حتى نفذت الروح إلى جميل روحها، أهجس بها صارت كخيط دخان تلتف على لهاث الشوق بصحبة اللهاث المراقة من لدنها.

وأنا غارق في حضنها، برحت أتأمل مفاتن الجسد وشطآن الغواية، أتنقل كالفراشة من زهرة لأخرى، أبحث عن الشهد الكامن بتلك الثنايا. أتبع سطوع النور ونبض الفؤاد، أتنقل على وقع الشد والجذب بين مباهج الوجه والجسد، اتأمل شموخ الأنف وواحة العين. انساب كنمير فوق الشفتين والوجنتين، أجنح هنا وهناك كذبابة تتبع الشهد، امتدت يدي إلى دبق الجسد وشحوم الافخاذ، تراخت بين يدي وهي تتبع غايتي الأثيمة، هجست بها تجذبني لذاتها كمغناطيس.

غسلت ذاتي بوهج ذلك الحسن حتى تماها الأرق، امتزجت المشاعر، تداخلت الأهواء، تلاحمت الأنفاس في بودقة شبق، صرنا نتقلب على تلك الفرشة الوثيرة بنزق.

وبعد تلك العجة التي العصف العاطفي الذي أرتقى بالوله إلى قمة الجنون، جنحت النفس لفض عقدة الشبق، شعرت بجسدها قد تراخى بين أضلعي، ذاب كالثلج وهو يسيح بين يديَّ، يجلي نار الصبابة عن القلب. أصابها السهم مثلما أصابني، خرت فتنتها أمام عصفي، أسطلت بنار الشوق والهيام. في نهاية المطاف كان لابد من ارتداء التاج، بعد أن أوقدتُ الأنوار في جعبنها.

وأنا منشغل بالشغف والهيام؛ إذ أنصبت عينيَّ على شاخص عمود الكهرباء المركون وسط حديقة الورود. وقبل أن تتحكم هواجسنا برغباتنا؛ شظيت منه شرارة قوية أغشت الموقع، تحرك العمود عن موضعه، أتجه نحونا، سطي ضوئه على إنارة البيت، كأنَّ طاقة إضافية شحنت مصابيحه فتوهجت كوهج الشمس، صحب ذلك البريق هدير مرعب، اهتزت له جدران المنزل، بحيث بوهجه عُطبتْ مصابيح البيت عن بكرة أبيها، إلا من نور خافت بقي ينسل من جسد اللؤلؤة.. اختفت تلك البهرجة من حولنا تماما، اختنقت بظلال الخوف المحيط بنا، بت أشعر بالفزع يتخللني وأنا ناحل الجسد في قمة الهيام، زاغ خوفي على حبيبتي من أن يصيبها مكروه من ذلك الوجل، كأنْ يهوى بنا سقف البيت أو يحترق عن بكرة أبيه.

تمعنت فيما حولي، لم أجد ما يثير الانتباه، جال صمت في رواق البيت، غطى على هوس أشواقنا، هدن الوضع لبرهة قبل أن تستتب قرقعة وسط ذلك الصمت؛ حتى استولت جلجلة

صاخبة على تفكيرنا، تلاش ذاك الصمت أمام حجم الفزع الذي أصابنا، جلجلة أقدام غليظة طرقت مسامعنا، دكت محيط الغرفة.

استدرت نحو العمود وإذا به قد تغير شكله، بان أشبه بوحش ضخم طويل القامة وفي وجهه ابتسامة استهزاء صفراء. حينها تجمدت عروقي، ارتعشتْ الروح، كأنها تود أن تنفذ من الجسد. حاولت أن أتدارك أمري وأهرب من المكان باختطاف اللؤلؤة، حاولت أن أنبهها عن ما يجول في خاطري، هجست بها قد ذوت بين ذراعي، أضحت كخيط دخان ينسلت لوسط دياج الوحشة المحيط بنا..

كل شيء تغير من حولي بسرعة البرق، تحولت تلك اللؤلؤة لوسادة ناعمة بين ذراعي، وأنا أشد عليها بقوة شرودي وفزعي خوفا عليها من المجهول.. أصابتني رعشة الخوف وأنا أنظر إلى ذلك الشبح الذي بات يخترق الحاجز الزجاجي لينال منا. ما برح أن تخطى الحاجز كضوء مستطير، شظيتْ صورته في أرجاء الغرفة، من خلال الانعكاسات وانكسارات التي أحدثتها مرايا الجدران، بحيث بت أراه ينفذ إليَّ من كل زاوية.

تراءى لي شكله القبيح بمنخر مسطح وأنيابه طويلة بارزة كأنياب مصاصي الدماء. عيناه مبيضتان، شعره داكن متطاير كلهب النار، أصابع يديه أطول من ساعديه، يكسو جسده شعر كثيف، له مخالب كمخالب النسر. شبهته بالشيطان أو زومبي الأفلام الأمريكية المرعبة، أو كما وصفته لي جدتي حين كانت تقص علينا قصص الخيال في أيام الطفولة بالطنطل والسعلاة.

بـدت أرتجـف وأرتعـش وأنـا مغشـي أحتضـن الوسـادة، فيمـا هجسـت نفسـي تقـف علـى وهـدة دهمـة، عميقـة، بانـت لـي كحفـرة قبر مفتوح دون أن أعلم...

مـع تغيـر الموقـف صـرت أصـرخ بكـل مـا لـي مـن طاقـة ليصـل صـوتي لأبعـد مـدى، عسـى أن أجـد مـن يسـعفني وينقـذني مـن مـأزقي، زادت الرعشـة فـي جسـدي مـع دقـائق الـزمن، هجسـت بفخـذي تبللتـا بمـاء دافـئ، وكـأني قـد أرقـت البـول دون إرادة، تصبب العرق من جسدي بغزارة.

حاولـت أن أجـر ذاتـي وأبتعـد دون أن أسـتطع تحريـك سـاقيّ الجـدب عـن موضـعها، حاولـت الزحـف بكـل مـا لـي مـن طاقـة دون أن أفلـح بـذلك، تكبلـت اطرافـي بـالخوف، كـأني أصـبت بشلل عام وخمول وجمود وفزع..

صـرت أصـرخ وأشـد مـن صـراخي، رغـم قـوة صـياحي أكـاد لا أسـمع صـوتي، ولا أهجـس لصـداه أثـر، يكـاد الصـوت لا يتجـاوز أسـوار فمـي، كتمـتْ أنفاسـي، دون أن يحـاول ذلـك المخلـوق مـن أن يؤذيني أو يفترسني وهو واقف كجبل فوق رأسي.

شعرت بنهايتي قد أذنت، الهوة سحيقة، جاهزة لبلعي..

أسـتمرت حـالتي علـى تلـك الـوتيرة، فاقـدا إحساسـي بـذاتي، فلـم أشـعر إلا علـى وقـع طـرق شـديد علـى بـاب غرفتـي... تلـك الطرقـات أيقظتنـي، أعـادتني مـن عـالم التيـه لـواقعي، أعـادتني إلـى عـالمي الملمـوس مـن جديـد، أعـادتْ السـكينة إلـى قلبـي الـذي اشـرف علـى التوقـف لسـرعة نبضـه.. عـاد إلـي وعيـي وهـدوئي. هممـت متثـاقلا لأفـتح البـاب، وإذ بـه زميلـي وجـاري فريـد ينبهني.

- أصحى يا أخي ما بك؟ أفزعتنا، دعنا نغفى، صراخك أرعبنا، وصل لسابع جار.

- شكرا لك يا فريد...لا شيء، أنه مجرد كابوس.

قلت له ذلك دون أن أزيد، حيث عيناي لا زالتا مغمضتين، ثم أغلقت رتاج الباب ثم عدت لتهدأ جوارحي.. لم أكن على ما يرام، بقيت مجهدا أعيش الحالة برمتها، القلب يخفق والقلق يلاحق وجسي ككلب مسعور، يبغي أن يقتص من قامتي. تلمست فخذي وملابسي فلم اجد تغييرا فيهما، حمدت الله واستغفرته، ثم قرأت آية الكرسي والمعوذات، برحت أغسل وجهي لأعيد التوازن لجسدي المهلهل.

كانت ليلة عصيبة تلك التي لفت مشاعري بعتمة عباءتها، لم تمر علي مثيلة لها من قبل، صرت أعيد شريط الأحداث في ذهني مرات ومرات وبالذات فقرة تفردي باللؤلؤة واستمتاعي برقة الجسد ومباهج الأنوثة، وتلك القبل التي أمطرت بها بهاء وجهها، كأني أقبلها كحقيقة.

بت أعيش حالة تصوير جسد اللؤلؤة، جعلتني أكثر اشتياقا لها وهي تتقلب بين ذراعيَّ، نقلتني لوهدة الخيال، لحالة الاستمناء، جعلتني اتمسك بها مهما كلفني الثمن. تلك الليلة جعلني أتجاوز التكهنات والمراهنات ومحطات العقد، صرت لا أبالي بعجرفة خصومي وانعكاسات النتائج. كان للحلم أثر بليغ في ثبات قدمي في ساحة المنازلة، زادني عزما وإثراء وبصيرة، جعلني أصبر على مواصلة التحدي رغم العناء؛ حتى يحل الرجاء عقد المسألة، جعلني أتحسس طعم الحياة برفقة اللؤلؤة.

الفصل الثالث

1- تحديد موعد الرحلة

هكذا تكرر مسلسل اختفاء اللؤلؤة؛ حتى تعودتْ الروح على ذلك الروتين المتجدد، أضحى الأمر سيان بالنسبة لي، بحيث تجاوزت عقدة المرار والعذاب. لكنها بقيت حية كفكرة تشغل مخي، تزيدني شوقا وشغفا وهياما بها، بحيث كلما التقيها، أهجس بها تشحذ ذاتي بطاقة متجددة تجدد العهد معها، كلما تطول فترة الاختفاء؛ أزداد هوسا واشتياقا بها. أضحت صورتها بمثابة جدارية ملتصقة بالذهن تأبى أن ينتهي منها ذلك السحر وتأبى أن تنتهي معها دورة الحياة، بحيث كلما وددت أن أنسى اللؤلؤة؛ تذكرني بها، تجدد رغبتي بلقائها والعهد بالوفاء إليها.

كحالة فيزيائية غدت بظني حالة دائمة الوجود، كتحول الماء لبخار وجليد ومن ثم تعود لطبيعة أصلها لتجري في أنهار الفؤاد بصفة الود والعشق، كشروق الشمس وغروبها، دائما ما تتجدد الحياة بلقائها. هكذا تسمو في الحياة، بين يقين واثق منه، ومستحيل لن يتكرر. هكذا أشعر بها كسحابة تبلل المشاعر ومستحيل أمسك بها. عندها تيقنت بأنها تحل عقدها بذاتها فلابد أن أستشعر بحرارة وجودها هنا أو هناك. دائما ما أجدها تقف على باب الظن، تجدد دورة الحياة في مدار المحبة كالقمر، بحيث تقفز إلى ساحة الوجود والحدث دون موعد، فتبرق في سماء الوجد كنجمة الصبح تجذب اهتمام المحيطين بها، ومع ارتفاع الشمس في الأفق تختفي دون موعد.

ولكن كحالة كيميائية لم تزل حالة التجاذب والتفاعل بيننا ضعيفة، لم تصل لحالة الانصهار والاندماج أو التسامي.

كحالة تفاعلية لم تفضي إلى نتائج حقيقية ملموسة، لا زلت أعيش على واقع بقايا حلم جانح بين خيال دائب وحقيقة مغشية.

أشعر بأني مراقب من قبل مجاس مجهولة، واقع تحت انظار واهتمام المناوئين والحاقدين والحساد من هؤلاء الحشرات التي تتبع هوسي، عيون بغيضة تلاحقني على ما أنا عليه. بت أرى العِقاب يحوم في سماء وجدي. ما أن أمسك بضفيرة اليقين؛ حتى تغير على الحشى فتمزقه إربا إربا.

في أحد أيام الروتين الساري بمفكرة الحياة العادية؛ كنت قانت بوحدتي إلى جانب مجموعة تلامذة جالسة على سور الحديقة الداخلي، الهم يختلج بشواطئ الفؤاد، شاعرا بحاجة لنزع طوق العجز عن القلب. حاجزا ما، يفصل بين جسدي الاجدب وذهني الشارد، بحيث وجدت نفسي كمجنون يتجول في ساحة فاتنتي، سارحا بعيدا عن التلامذة المحيطين بي وعن قدرية الحظ والتفرد، غاصا في منتجع خيال دميم يدور حول سر اختفائها..... اسأل نفسي:.. يا ترى أين تختفي؟ الجامعة ليست تلك المتاهة الكبيرة، هل تتقصد اختفائها، أم....

وفي تلك الساعة الحرجة وأنا أتأمل فرجا يكش الظلمة عن حدقي والوحدة عن سهدي والحيرة عن قدري، حيث يبدو للشوق مخالب تمزق وجه العاشق بالصمت والأرق... في تلك الساعة وأنا اتتبع موجات الطالبة الذاهبة لصفوفهم والمتجهة للمكتبة أو النادي، علني أظفر بوجه حبيبتي. كنت ساهٍ، غارقا في دوامة التيه، لا أعرف إلى أي مدى كان قد غص الفكر في باطن الظن المخيب، يائسا من ولادة عهدٍ جديدٌ، ينقلني لمصافي السكينة التي أبحث عنها بين أعين الغرماء..

في شجون تلك اللحظة دون أن أنتبه على ما يدور من حولي؛ وإذ بشخص ما يربت على كتفي من الخلف.. وما أن ألتفت؛ حتى وجدتُ هدى تبتسم لي مفرجة عن لآلئ أسنانها البراقة بثغر مشرقٍ كوردة الجنان، كانت في عجلة من أمرها، ذاهبةً لكليتها...

- السلام عليكم ياعمر....كيف حال الذئب؟... ما بالك يا شقي، هل فاجأتك؟..
- من ؟ هدى! يا إلهي... من أين خرجت؟ من تحت الأرض؟ أين أختفيتِ؟ كنت اتأمل ظهورك بين الوجوه المارقة؟ كيف لم أنتبه عليك؟ المهم كيف هو حالك؟ أية مفاجأة سارة أتحفتني بها.. دفء شمسك أعاد لي فكري ووجودي، حيث كنت غائبا أفكر فيك.
- كلما تكون في وضع معقد، أظهر أستقرئ افكارك.هههههه...
- هههههه ، أفكاري الكل صار يستقرئها... ترى ما قصة الذئب الذي تصوريني به؟ أنا ذئب؛ يا للعجب!!.. قبل قليل كنت شاة لا استطيع أن أكش الأرق عن ذاتي، تائهة في دروب الحيرة. هههههههههه.
- أكيد ذئب، وإلا ما هذه الكدمات البائنة على وجهك؟.. خيرا، ما ورائك؟ ألا تبطل شقاوة يا هذا؟

استفسرت عن صحتي، حين لاحظتْ آثار الكدمة في وجهي لازالت أثرها شاخصة، أصابتها المفاجأة، استغرقت طويلا في فكرها، تنهدت، لفظت شهقة ألم وحسرة، حشرج الآه في صوتها، كأنها خرجت كنار من كوة الروح، لفحتني بزفرة من سقم الوجد، مستغربة الحالة ..فأجبتها...

- لا تشغلي بالك، أنها مجرد مشاجرة عابرة مع زميل لي في القسم الداخلي.

حين إذ قالت والألم يخالط حمرة الوجنتين...

- لا بأس يا عمر.. أرجو أن تبتعد عن المهاترات وشلة السوء، لا تزيدني ما وخوفا عليك...سامحني أنا في عجلة من أمري، لا تنسى موعد رحلتنا في الأول من الشهر القادم، أراك في تمام الثانية ظهرا في المرأب، ولا تخبر أحدا بالموعد.
- شكرا لك، أنا في انتظارك، في انتظار يوم اللقاء على أحر من الجمر. سأجعل الموعد قُرط يجلجل صوان أذنيَّ.
- أحسنت يا فتى...

ثم تابعتْ قائلة:..

- يا هذا
طَرقُك رقيقٌ... كرذاذ الودق

بالله كيف صار الحجر ورق؟.

- الله الله، أول مرة أسمع منك شعرا جميلا جدا يفتح القلب.
- منك نتعلم...هههه
- تابعتها قائلا:....
يا فاتنة
أخبريني عن سر العلاقة بين الحجر والورق

هل لازال في الغمامة شيء من الودق؟

- الله عليك... لازالت تنثر الودق، لا تهتم، كل شيء بأوانه، هيا أنا في عجلة من أمري... باي باي..
- مع السلامة..

تركتني في موقعي والبسمة جذلى تلوك فاهها، ماضية لكليتها كما اخبرتني، بقيت أتبع خطواتها حتى أنزوت في عطفة الطريق، أغشتني بالنشوة والحيرة، جعلتني أرتقي لمصاف الشمس ثم رمتني في بحر الألم، اتبع الحيرة، وبين هذا وذاك ظلت تشهق الأنفاس، غير مدركة غدها ولا تجزل الأرق عن يومها.

أضحى للأمر هالة في عين البعض وهم يتبعوا طرق الغي في دروب الوله، كأنهم بصقوا بصحن الألفة بعد أن تبجحوا بالحسد والغيرة المرة التي أصابتهم. كانت قد ذبلت وأصفرت نواياهم الدفينة في جحورهم. بعد أن تركتني هدى ماضية لكليتها؛ بت اسمعُ ضجيجا ولغطا بين الفينة والفينة من قبح الكلام من هنا وهناك، وشوشة تطرق أذني، نظرات فيها شك وغيبة. كأني أجرمت بمحبتي وعشقي هدى، كأني وضعت ذاتي في قوس الملاحظة، في بيت التحدي لمن يأمل أن تتشبث ذاته بها. صاروا يقارنون أنفسهم بذاتي ويقللون من قيمتي وشأني، أهجس باختلال واضح في ميزان الحق ما بيني وما بينهم.

أحدهم قال لي:...

- أستمتع يا عمر، الملكة تستهويك، تميل أليك. أنت محظوظ. لو كنت مكانك لعملت العجب! أجعلها لا تنظر لغيري قط.... ولكن الله يعطي الجوز لمن لا

اسنان له....سامحني على تجاوزي، لأني أراك باردا، لا تهزك المباهج.

تركته ينبح مع ذاته، فلا أحب الجدال بهذا الموضوع نهائيا، للحفاظ على سمعة البنت وأسرار العلاقة، ولتجنب ردت الفعل الذي لا أحتمل عواقبه، تجنبت كل من له صلة بي، خوفا من تلك المعاكسات الطائشة من أن تنال من قامة اللؤلؤة وشرفها قيد شعرة، كنت حريصا على سمعتها جدا.

كما انه قد تَعُودْ عليَّ بالنذر المشؤوم لحساسية الموضوع، قد يخدش جلدها ويسيل لعابها. حينها أخسرها، وأخسر ذاتي وشخصيتي وكرامتي... كما قد تكون العملية برمتها مخطط له من قبل شلة العصابة التي تلاحقنا والتي أجهل عناصرها، قد تخلق لي عقدا ومطبات لعلي اسقط في شباكها بشكل من الأشكال، أضحى الشك يلازم جوانب حياتي، لذا صرت أتجنب كل احتكاك.

مرت الأيام ثقيلة على عاتقي، فترة اسبوعين تقريبا من الانتظار، كنت مكبل بها بالعناء والشقاء النفسي، الشوق ولهفة اللقاء أعطبت الذهن عن قدرة التركيز ومواصلة الدراسية. أضحى اسمها يخلخل صيوان الأذن كلما اسمعه. هجست بالأيام خاوية، ليس لها معنى دون تواجد اللؤلؤة كلغز في محاورها. تحولت اللهفة لسكرة ذائبة في الجفون كالوسن. لم أعد أعرف كيف أديم حلقة التواصل بيننا دون هاتف أو موعد متفق عليه، ولن استطيع أن أطلبها بهاتف الجامعة العمومي، فأي هفوة مني تقضي على تلك المودة الدائرة بيننا.

انتظـرت الموعـد القـادم، شـعرت بـذاتي غيـر جـديرة بقامتهـا، غيـر كفـؤة باختبارهـا القـادم. لكـن لابـد مـن المجازفـة، لكسـر حـاجز الخـوف وفـك طـوق العنـاء، لا أريـد أن أكـون عبـد مشـاعرٍ دون أن الـتمس بقلبـي فـيض المشـاعر والهيـام. لابـد مـن سـكون اسـتمتع بـه، لابـد مـن اسـتقرار يغمـر فكـري، حيـث المقولـة تقـول "فـاز باللـذات مـن كـان جسـورا" عبـارة دائمـا أرددهـا خـلال مشـاوير حيـاتي، وكـأنَّي فـي اللقـاء القـادم سأضـع الحجـر الأسـاس لعلاقـة طويلـة الأمـد، سأضـع الـنقط والحركـات فـوق الحـروف الصماء التي نتحاور بها، سأكون أو لا أكون.

أشـعر بـالهوس المـراق فـي ذهنـي متجـذر، يبـدو أكثـر إيمانـا ويقينـا مـن طمـث الظـن، أكثـر حرصـا وأمانـا علـى ولائـي لجديـة العلاقـة وقـدري مـع اللؤلـؤة، كـأنَّ حبـات المطـر التـي أرشـقتُ بهـا خـلال لقاءنـا العـابر؛ داعبـت جـذور الشـوق واللهفـة، أعـادت للـروح الألق والنشوة في مشوار الحياة.

فـالوجس لابـد منـه، أنهـا لحظـات حرجـة وتـأني وتقريـر مصـير، خـائف علـى المصـدر مـن أن ينحـرف اتجاهـه إلـى هـوة الفشـل، خـائف علـى الحلـم الـذي لازال يحبـو علـى أعتـاب الأمـل، قـد تضـيع الفرصـة وتنفلـت الحـروف المعنيـة مـن أخاديـد الجُمـلْ، حينهـا سـتقتلني منغصـات الوحـدة والأرق، سـتلقيني فـي زنزانـة النـدم والعـذاب، فـلا مفـر مـن واقـع مـرٌ ولا منفـذٍ لزحمـة الأهـواء. ذاك الوجس يرافقني، يساير الفوضى الدائرة في دوامة الشك.

حقـا أنـي خـائف ومرتعـد مـن وطـأة الغـد، وبالـذات مـن لحظـة اللقـاء- ألـيس مشـوار المحبـة مكبـول بالمخـاطرة؟ ألـيس لفـيض الحسـن سـهام مسـمومة؟ إذا مـن حقـي أن أشـعر بهـذا الـوجس وأنـا أبحر في بحرها الطامي بقارب مهزوز.

بصراحة؛ أرهقني التفكير المتذبذب، أضحى الوقت عصيب جدا، والزمن حازم، جار على مضض، لا استطيع تحديد موقع النجوم في سماء الهوى.. تلك اللهفة التي أبحث عنها في الظلمة اليأس كانت قد كبرت، تعاظمت جذورها، لامست حراشف الفؤاد المتَيَّمَ بها. ها هي تتبلور في كأحلام وآمال دانية قطوفها. ها أني أثبت اسافين خيمتي في فلاة الزمن، رغم السلال الفارغة، أتأمل نضوج عناقيد الكروم في أغصان من أهوى، فلن أتطمأن على ذاتي؛ حتى أجعل القدر طوع إرادتي..

أشعر بذاتي قد تخطت مطبات العجز، وما بقي منها لا تعد سوى هوامش فاصلة لا تعيق حركة الشمس، كأني تجاوزت مرحلة العقد ودخلتُ مرحلة اليقين، مرحلة الجد الحرجة من وقع العصف الأخير، تلك التي ستجعلني أقف على قدمي وأعرف حقيقة وجهتي ومساري بشكل واضح.

2- الاول من مايس 1979

كتمت أتفاقي مع هدى داخل نفسي، لم أبح به لأحد، جعلت الأمر سرا داخل نفسي، خوفا من يُقرن اللقاء بالفشل، وجزعا من غل الحاسدين والمنافقين والذين هم كثر يدورون في مجرة اللؤلؤة.

كنت قد لمحت هدى قبل موعد الرحلة بيوم، لكنها لم تكن منفرده، كانت برفقة بعض زميلاتها، حينها انحرفت نحوي، همست بأذني مذكرة بساعة موعد الرحلة، حيث قالت...

- وضعتك في جدول أعمالي، لا تنسى غدا، فأني في شوق لتغيير الأجواء.
- أنا اكثر شوقا لذلك.
- وددت أن أذكرك فقط، فأنا مشغولة الآن، مع السلامة
- في حفظ الله.

كأنها في كيانها وتكوينها آلة حب وغرام متجولة، مُحولة شحن للود والعاطفة. بمجرد أن وقفت إلى جانبي أرتفع هرمون الادرينالين في الجسد، وبمجرد أن همست تلك الكلمات في أذنيَّ؛ توقدت شحنة الحب والعاطفة والخيال في داخلي، شحنتني بحزمة من فيض الأمل، صار القلب يتراقص شوقا وهياما، كاد أن يفقدني توازني لفرط نبضاته..

ففي كل اللقاءات التي جمعتنا معا كنت أمر بذات الحالة من الوجس والقلق والحرج، يصيبني ذات العصف، فأشعر بدوار ينقلني خارج حدود شخصيتي، إلى حيث أضمحل ككيان أمام واقعي وتحناني، فلا أبالي بمن حولي... كانت قد شحنت ذاتي بكم هائل من الكترونات الشغف، جعلتني أنزوي خلف حاجز

الظـن والرجـاء، أتمـرغ فـي محاقنـة العـذاب والوحـدة بعـد مقارنتهـا بـأحين التمـاس ضـعفي، فأبـدو كمسـطول يعـيش فـي دوامـة اللحظـة، متمسـكا بقـرص الأحـلام، مـا أن أخـرج منهـا؛ حتـى تتبـدد الأحـلام فـي الـدروب العكـرة... هكـذا مـرت الأيـام وهـي لا تنـي أن أعـيش بـين صـخب الحلـم وجلجلـة الفشـل، حتـى يحن موسم قطاف الثمر، حيث ساعة الموعد المؤمل..

فـي صـبيحة يـوم الرحلـة كنـت قـد حزمـت أمـري وأعـددت ذهنـي، سـجرت فتائـل المحبـة بشـغف اللقـاء، ذهبـت للمـرأب قبـل موعـد الرحلـة بسـاعة زمـن، متحزمـا بالأناقـة والثقـة المهـزوزة، متبرجـا بشـحنة العاطفـة ومَسّـحة مـن دهـن العـود، منتظـرا سـاعة الموعد بشغف لقاء اللؤلؤة.

ذهبـت للمـرأب وكلـي أمـل أن أنهـي معـانتي العاطفيـة، أن أوقـع باسـمي فـي سـجل زيـارة اللؤلـؤة، لأغلـق صـفحة تلـك المعانـاة للأبد، عسى أن أفلح في الحياة على قدر النية والهيام في قلبي.

وأنـا أقـف علـى خـط البدايـة قبـل انطـلاق الرحلـة، كنـت قـد شـعرت بصـراع خفـي يعتـرى شخصـي، صـراعٍ يغفـو تحـت جلـدي، يقرصـني، يحـذرني مـن مغبـة مطاوعـة قلبـي، حيـث هـاجس الخـوف اسـتتب فـي ذاتـي، مـن فشـل أراه يـدور فـي خلدي...

دائمـا مـا كـان ذلـك الخـوف يضـعني فـي موضـع انكسـار وحـرج مـن مواجهـة الـريح، يشـرع بفـتح أبـواب القلـق أمـامي، دافقـا الشـك بحقـل اليقـين، اهجـس بـانزواء تـام أمـام إمكاناتهـا وقـدراتها الواضـحة... فـي مقابـل ذاك كنـت أهجـس بثقـة عميـاء تعضـدني، تقومني، تجعلني أكثر بهجة وأناقة وقوة بتحمل المفاجآت....

رغم دبيب الرعشة التي بدت تزحف إلى أطرافي؛ قبلت التحدي، لم أدع ذاتي الخفية تنتكس أمام مجون عاطفتي الجبارة، تلك التي تفيض بعزم وإصرار على قبول النزال وخوض التجربة.

تجربة السفر ولقاء اللؤلؤة هي فرصة بحد ذاتها لن تتكرر ولا هي متاحة لكائن ما، وأن كانت المحاولة فيها شيء من عدم التوازن لكنها بواقعها تدعم شخصية الفرد في اكتشاف موهبة المواجهة وترقيتها، يجب أن أرتقي بذاتي وقدراتي إلى مصاف شخصيتها وأناقتها، كي أكسب الرهان مستقبلا..

الحاجز الذي يفصل بيننا حاجزا وهميا مبني على أسس الضعف والقوة ومن وجهة نظر سلبية، أراه بأم عيني حاجزا من نارٍ تلسع ثقتي بذاتي، هو ذاته يجعلني أحاذر وأخاطر، يدعني أرى ما لا أراه في حقيقة الأمر، لذلك سوف أمد الخطوة بالخطوة حتى أكسب رهان العاطفة على حساب العقل. دعني أقف على ذات البقعة التي تقف عليها هدى، كي أكون بمستواها أو لا أكون.

بصراحة؛ أهجس بأني قد أدخلتُ ذاتي في معمعة تحد مجهولة النتائج، غير متكافئة العناصر، بحيث الرعدة التي تدوي في صحني؛ تستكين في سلتي. بينما التي تدوي في صحنها تتجاوز المدى. لأني غير معروف وهي معرفة في الوسط. لذا صارت هواجسي تحذرني، تنذرني من مغبة الإصرار على التحدي والتحايل على مرتقبات الأمور.

شيئا فشيئا أرتفع سهم الذعر والقلق، بحيث بان كفج دميم في ملامح الوجه، أضحتْ الصرخة تفزع الصبر وتنبز الثقة

بـالنفس، تزيـدني قلقـا مـع تسـاقط ثـوان الـزمن واقتـراب أجـراس اللقاء.

بـت أرتعـب مـن عقـارب الـزمن التـي مـا فتـأت صـارت كـالعقرب تلسـع ذهنـي بثوانيهـا، بحيـث تمكنـت مـن تحويـل سـكوني لصـمت مخيـف، جعلـت مـن الهـدوء فوضـى تعـم تفكيـري، لا اسـتطيع السـيطرة علـى ذاتـي المنفلتـة. دبـت رعشـة فـي طـرف اللسـان، انسـابت كقطـرات نـدى بـاردة علـى ظهـري وأطرافـي، صـار الخـوف مـن المجهـول يحاصـرني فـي زاويـة الجـبن والإربـاك، يطـوقني بالرهبـة، يشـد وثـاقي بأعمـدة الصـمت، يجعلنـي أعيـد ترتيب أوراقي المتبعثرة خوفا من مفاجئات المجهول.

وأنـا فـي هـواني متبعـا هـواجس القلـب، محـاولا قطـع فيـافي الصـبر، داعيـا الله أن يُثبـت خطـا أقـدامي، أن يزيـدني حلمـا وأنـاةً فـي تجـاوز مشـواري؛ شـعرت بـذاتي كمـن ضـلّ طريـق مبتغـاه، كمـن بـات يـدور فـي دوامـة فلـك اللؤلـؤة، لـذا صـرت أسـتعين بـالله على جلد الصبر.

وأنـا مـذعن لمطرقـة الـزمن متتبعـا عصـف الثـواني، هجسـت بـرنين الموعـد بـات يطـرق صـوان أذنـيَّ، صـار يرشـدني بخفـة لعقـدة جديـدة تحتمـل أن تنفجـر، حيـث لـم أجـد لأضـواء اللقـاء بهجـة فـي الأفـق.. ربمـا أزفـت عـن الحضـور إلـى الموعـد، ربمـا أصابها طارئ ما جعلها تلغي اللقاء...الخ من الحسبان والقلق.

تأخرهـا البسـيط حـرف ظنـي وجـز يقينـي عـن خـط ثقتـي بهـا، ربمـا وضـعتني تحـت تجربـة، وقـد نكـون مراقبـان مـن قبـل شـلة الخبـث بكسـر مجـاديف اللقـاء.. بـت أشـك فـي كـل شـيء، قـد يكـون

هذا الموعد مجرد فخ نصبته لي، حيث لم أأخذ بنصح شاكر الذي طالما حذرني من مجازفاتي دون جدوى..

هكذا جنح الفكر بعيدا عن خط محبتي واحترامي والتقدير الذي أكنه لها، إرهاصات شتى واحتمالات زائفة كبرت تداخلت ببعضها، وأنا مسند ظهري على جدار المرأب أترقب المجهول، عيني زائغة في كل الاتجاهات تترصد المفاجئة التي قد تنفجر على حين غفلة.

على الرغم من أن القدر قد هيأ لي فرص أخرى مع فتيات أقل شأنا من اللؤلؤة من وجهة نظري، إلا اني لم أأخذ بها ولم أهتم بشأنهن، فرص مرقت أمام عيني دون أن تستثيرني أو تجذبني لمصاف قلوبهن، ما جعلني أشعر بالندم، على الأقل كنت أجنب ذاتي هذا المآزق، كأني بتُ أشبه الضرير الذي تشبث بعصاه وهو يقحم مساره دون تراجع، دون أن أعي ما يحيطني من نزق.

في ظل تلك الدقائق الثقيلة، المتقلبة، الأخيرة، قبل أن أتخطى حاجز زمن اللقاء بلحظات، عيني تتلفت ذات اليمين والشمال بحثا عن قبس نور اللؤلؤة يبزغ في الأفق. كان القلق قد ارتفع وتيره حد اليقين من عدم حضورها. في تلك اللحظة أعادني ذات اليقين لجادة الصواب، راودني إحساس بحتمية قدومها، أحساس لا أعرف منبعه أوعز لي بذلك، ربما لفرط ثقتي بشخصية اللؤلؤة وعلو كعبها بين النساء، والتي لا يمكن أن تفرط بمكانتها وشخصيتها أبدا.

أصبحت كمن تلطخت قدميه بالوحل، حيث لا يمكن أن أتراجع خطوة للخلف، في الوقت الذي به لا أستطيع أن

أستكين على غياث الشوق وأتقدم خطوة للأمام. أهجس بها قريبة جدا مني وبعيدة بذات الوقت، بحيث بت أشم عبق انفاسها رغم غيابها، ربما الشوق استتب دلائله من نبض الفؤاد المضطرب، لذا كنت أشعر بخيالها موجود في محيطي، تراقبني من خلاله..

ما أن طفح الكيل وسال زبد الشوق على الثغر، ما أن أقشعر البدن وأنا أتخيل مفاتنها في واقعة الحلم العابر وهي تنزف رقة وعذوبة بين يدي؛ لم أعد أحتمل لفحة الشوق وهو يُصلي الفؤاد بسعير الجوى ولا أقام ضعفي تجاهها.

لم تخطر على البال آلية السفر التي سنستخدمها، بأية وسيلة سننتقل لمآربنا، طالما لقائنا في المرأب؛ إذا لابد من أن نستقل عجلة أجرة للمصيف !!! هذا ما تخيلته، دون أن تكون لي فكرة عما يدور في خلدها من تخطيط ومنهج مسبق....

وما هي سوى ثوانٍ حتى وضعت حدا لتساؤلاتي، أوقفت هيجان الفكر، قطعت دابر الشك باليقين، حين توقفت فجأة بجانبي عجلة دفع رباعي BMW حديثة الصنع...لتطل من خلف النافذة بوجهها الفاتن وهي تناديني:...

- عمر؛ كيف حالك؟ لم أتأخر عن الموعد، هيا أصعد!!!...

بنظاراتها الشمسية كانت أكثر اشراقة وبهجة من الشمس، تسارعت نبضات القلب، هجست بهبوط في ضغط الدم لما لتلك المفاجأة من وقع على قلبي؛ حتى كدت أن أفقد توازني لولا استنادي على جدار المرأب، أحسست بتراخ في

الأعصاب وتراخ في العضلات.. لم تدم الحالة طويلا، عدت لتوازني بعد أن امتصت ذاتي تأثير الصدمة.

- من؟....

وهي تناديني بصوتها الرقيق....

- هيا يا عمر، أصعد العجلة، تعال إلى جانبي...

دخل صوتها الشجي من نافذة الهوس، أطبقت على مسامعي، تنبهت لها، تساقطت أوراق القلق ولوائح الظن السيء من جدارية ذهني بفعل حرارة الشوق الدائب في صوتها، هجست به بشير أمل قادم: ...

- هيا يا عمر! ...هيا ... هيا تفضل! أرتقي العجلة.

دهشت لسحرها وهي تلفظ أسمي!.....

- يا إلاهي ..من؟.. هدى؟.. أهذه أنتِ، يا لروعة حسنك وجمالك، ما هذا السحر الإلاهي الذي يرتديك؟ أهجس بك كوكب جديد متوهج في سماء الألق، يا لروعة الشياكة والأبهة.
- شكرا لك على هذا الإطراء الغني.. هيا تفضل، أجل المغازلة.

ارتقيت عجلتها الفارهة، ولم أكن أصدق نفسي، لم أستطع أن أكتم اندهاشي، تقمصني الخجل، أشعرتني بصغر حجمي، شعرت شعور المتبول على نفسه.. آه يا لسفه الذل وهي تلوح به في الأفق، أه لغل الصمت وهو يشعرني بالفقر ومرارة العجز، كأنَّ خنجرا غرز في خصري لحظة ارتقائي عجلتها،

حيث الأناقة والأبهة التي ترتديها، والمكانة التي هي عليها والعجلة بينت لي حقيقة قدري، بألقها هجست بها قضت على تأملاتي. فسألتها وهي القابعة خلف مقود العجلة ترتدي الذوق والإطلالة والقيادة..

- ما شاء الله ومن دون حسد، كل شيء عليك باهر وجميل، جمالك، ذوقك، لباسك، أناقتك، عجلتك، مهارة قيادتك. منذ متى وأنت تتقنين قيادة العجلة؟

أجابت وبثقة عالية وبابتسامة منشرحة هههه..

- شكرا لك.. منذ ثلاث سنوات حصلت على شهادة القيادة، لكني لا أجلبها معي للجامعة ألا ما ندر.. لست بحاجة لها، المسافة قريبة بين السكن والجامعة، ثم لا أود أن أميز نفسي عن زميلاتي، فمعظمهنَّ بنات طبقة وسطى وفقيرة... هل أعجبتك؟
- أكيد، رهيفة وحديثة وفارهة، كما لونها لون نسائي غريب، ليست حمراء ولا بنفسجية، هي عنابية..ثم أنت ذواقة وكل شيء فيك جميل، صمتك، لونك، جدلك، عبثك.. أرجو أن لا تسرعِي بها ليطغي أناقتك على أناقتها. هي لطيفة وجذابة، لكنك تفوقينها سحرا وجاذبية... مفاجآتك لا تنتهي، الغرابة واللذة معجونتان في دمك وفي صفاتك، كما هيَّ اللهفة والبسمة مرسومتان على ثغرك.
- شكرا لك ، أشعر بك جعلتني ملكة فوق العرش.
- فعلا أنت ملكة، أنت بمثابة عشتار وفينوس وليلى وفكتوريا وعبلة وكل ذوات الحسن اللاتي مررن على التاريخ، كلهن لا يضاهين فتنتك..

ثم رشقتني بابتسامة جذابة، خرقت حواجز الحس لعذوبتها ونعومة ملمسها، أحسست براحة غسلت النفس من غبار الشوب واللفح الدائر نتيجة قلقي، وكأنها بمحاورتها أعطتني إشارة رضا، ربتت على مشاعري الخجلة بالطيب، هجست بالتماسي الفوارق المادية والمعنوية والنفسية والاجتماعية الواضحة ما بيني وبينها. كانت ابتسامتها تجاوزت الطبيعة جمالا وجاذبية.

أضحت تجري بعجلتها الفارهة بسرعة، مخترقة الشوارع المكتظة بالعجلات، كسمكة تنسلت من بين الأسماك الكبيرة في تلك المنحنيات دون أن تخرج عن مسارها. في ذات الوقت سُدن الذهن بأفيون الحيرة، سُهَكَ بدخان العجز وبهتانه...

فيما نظراتي غائرة في عمق المدى، تائهة في التواءات الطريق، حائرة بتشبثي في عنق المستحيل، بين أن أتلقف التيه وبين أن أفلت من قبضة الهوان. الأرق بات يرتفع كالزئبق مع ارتفاع الحرارة بالجسد.... جعلتني أمعن النظر بتلك القمم الشاهقة والمناظر الخلابة التي نجتازها لأنسى جدلي مع نفسي، لأنتشل ذاتي من معمعة الفوضى التي تفجرت في حضني، والتي حشرت ذاتي في زنقتها دون علم ودراسة.

أضحتْ آلية الحسابات والمقارنات ما بيني وبينها تطفح فوق السطح كالزيت، وكأنها جزء من العجز أتسلى بها، صرت افكر في كل صغيرة وكبيرة تخص علاقتنا، أفكر بكل عبارة أو كلمة خطرت في بالي حين كنت أتأملها، تذكرت تحذير شاكر ونصحه الدائم، شعرت بالندم لأني لم أأخذ بها، وكأني بإلحاحي وتبعيتي لهوسي قد ورطت ذاتي في عملية محسومة بالفشل.

حينها لم أكن أدرك حقيقة شكلي ولا أعرف حجم حساباتي، ولم أستطع مقاومة إرهاصات القلب والظن. لكن... وأنا في عجلتها صارت الحقائق تطفح أمام نظري دون التفكير بها، دون أن أجهد ذاتي في البحث عنها، صرت التمس الفوارق بيننا دون عناء يذكر، تلك التي كنت غافلا عنها أو كنت اغطيها بشوقي وهيامي، لألتمس حجم القبح والضعف الذي يركبني.

المقارنات التي فكرت بها، صارت تختزل العلاقة، تحسم النتيجة، وكأنّي بها أطبقت لوحتين غير متجانستين على بعضهما البعض... فالظن الذي أوهمني بتجاوز المستحيل أضمحل أمام اليقين الذي تفجرت ينابيعه. الأسس التي اعتمدت عليها في تقييمي أضحت هشة، وهمية، باهتة، ركيكة دون قوام. كل ما تخلل فكري وربط عاتقي بذلك المستقبل من ماديات وأمور نفسية ومعنوية واجتماعية وفلسفية أفلتت من قبضة يدي. بدت أشعر بالسذاجة أمام قوة اطلالتها.

أصبحتُ كمن فقأ عينيه بيديه، كمن تبرج باليأس والغرور فأحتقر تطلعاته الروحية والنفسية والجنسية الملونة بصبغة الأنانية. تلك المرأة الواثقة من نفسها قادرة على أن تسوي الأمر، فهي تتربع على قمة الألق، بيدها مفاتيح كل شيء، لذا أجد نفسي إلى جانبها تتسول في محراب بابها.

أشعر بها اقتربتْ من واقع ظني، كأنها قد فهمت مغزى هيامي وتطلعات فكري بها، فجاءت مرغمة وملغمة بكل ما تملك من قوة وبأس وحسن وطلة، وبكل ما تحمل من ألغاز وأحجية، لتعاقبني بها، لتجلدني بسر فتنتها، وبما تختزل من سماحة وقوة شخصية نافذة وما لها من سُلطة نفسية ومادية وحصافة

وثقافة تشهد لها. جاءت تقيمني بما تملك من قدر يفوق قدري، لأكف عن تطلعاتي السخيفة والمجنونة خلف مفاتنها، عسى أن أدرك حقيقة نفسي.

انطلقنا إلى مصيف صلاح الدين، لم تدم مدة الرحلة أكثر من ثلاثين دقيقة تقريبا؛ حتى أدركنا المصيف التابع لمحافظة أربيل، بعد أن تجاوزنا منعطفات الطرق الملتوية والمعقدة حتى أدركنا قمة الجبل حيث يكون، وصلنا لناحية الهدوء والخواء وأنا مجهد فكريا ونفسيا نتيجة مقارنة ذاتي بذات اللؤلؤة...

أشعر بذاتي فقدت سمة الكبرياء، تحللت وتحلت بالسكينة والصبر، دُعِسَتْ بـ حادلة الهم والغم، هرست بتفاهة فكري، صارت تبحث عن ركنٍ جافٍ لتقف عليه، لتلتمس عمق الهوة تحت القدم، متأملا أن أنهي هذه المعمعة التي دخلت بها دون أن أتمكن من الخروج منها بيسر، قبل أن ينتهي هذا اللقاء، قبل أن أنهي هذا النزال الدائر بين فكري وعاطفتي وواقعي..

كأني وضعت نفسي في قفص الاتهام، بت أحاسبها ولا استطيع أن أتخذ قرارا بحقها، لا تني العاطفة لها أنياب تخيفني، تأنبني، تجلدني بسوط رقتها وحسن ملامحها.

كان لمنظر الوديان والالتواءات المقرونة بالطرق أثر في تشطيب القلق. للربيع الممتد على البسيطة وسحر الطبيعة، للأشجار المتوهجة بطراوة الخضرة والمتناثرة على مد البصر، لكل ذاك جاذبية أسعفت شرودي، أنستني ذاتي المقيدة جروحها.

وأنا هائمٌ في بساطِ الخضرة، وإذ بطيورِ السمانِ والقبجِ تفرُّ من ملاذها المبنية مع الشارع، تطايرتْ مرفرفةً، مفزوعةً، هربتْ بعيدًا، بطيرانها الواهفِ والمتموج، فوقَ العشبِ، نحوَ عمقِ حريتها. شأنها شأنُ ضفائرِ الشوقِ الملتاعةِ في صدري، والبائنةِ على وجهي، والمنعكسةِ على ملامحِها، بشيءٍ من القيدِ والمبالغةِ وعدمِ الرضا.

هكذا بدتْ أحاسيسي تطفح، تودُّ الهربَ دون أن تتمكن، فلم تأتِ بي إلى المصيفِ إلا لتلقنني، درسًا في الأخلاقِ والقدر.

مع كل خطوةٍ في المدى، كانت الأحاسيس تتكشف، كأن الأرضَ تحملُ سرًّا دفينًا، وكل طائرٍ هاربٍ يبعثُ صدى الرحيلِ في الأعماق، كأنني أتابعُ صدى وجودي، أبحثُ عن ذلك الطيفِ الذي بدى يتركُ أثرًا ولا يعود.

كأنَّ تلك المناظر ألهتني، خففت وطأة الآه والقلق، أنستني شجوني وأصل الصراع الدائر في رأسي، كنتُ قد جنحتُ في تلك المتاهة، متناسياً الحقيقة التي أنا عليها، كأنني أمثل دور العاشق في فيلمٍ سينمائيٍ بارع، لذا كان عليَّ أن أكمل الدور، أن أظهر أمامها بلا مبالاة، أن لا أتأثر بمباهجها المادية وقدراتها الاستعراضية.

أجلتُ الكم الهائل من الأسئلة التي عقرت ذهني، أسهتُ فكري لما بعد الرحلة، كأنني أؤجل المواجهة، كأنني أبحث عن لحظةٍ أخرى، لأفهم ما لم أستطع إدراكه الآن.

بت أسأل ذاتي، يا ترى.. لِمَ طاوعتْ رغبتي؟ لِمَ تمسكت بحلمي؟ لمَ أعدتْ نفسها لهذه الرحلة العقيمة، أن كانت مكتفية ذاتيا ونفسيا وماديان ما الذي أجبرها على مطاوعتي؟؟ هل

دخلت في علاقة عاطفية مع غيري؟ فأني لم أشهد ذلك، لم التمس لتلك العلاقة من حقيقة أبدا.. بقي سؤال يراودني: يا ترى؛ أيكون قلبها من حجر بحيث لا تشكمها عاطفة؟ وهل هي فعلا أغرمت بي؟ أم تمثل دور العاشقة لتكتشف حقيقة ادعائي؟؟؟؟؟....

لا أستطيع التكهن بشيء من ما يجول في خاطري. كان الأجدر بها أن تقطع السبل أمامي أن لم تكن راغبة بي، تمنعني، تتجاهلني، لا تجعلني أهيم بها وأتبع أحلامي السادرة. إن كانت تملك هذا الجاه وهذا القدر من الجمال فما حاجتها بي؟؟ يا ترى ما سرها؟ هيئتها لا توحي بأن تكون امرأة لعوب، هي أكبر من التفاهات التي تطرأ على فكري.

لمْ تكن بيننا ارتباطات مسبقة أو مصلحة ما تجمعنا على طاولة واحدة، لمْ تعرف عني تفاصيل حياتي ولا تعرف طفولتي ولا الخلفية التي أستند عليها، كما أني لا أعرف عنها شيء من ذلك القبيل أيضا. كل ما في الأمر؛ قلبي الاعمى ارتبط بفتنتها فلم يصمد أمام فيض حسنها.

يقولون الحب أعمى، وأظنه كذلك، وأهجس به قد فتن قلبها، والنساء بشكل عام لا يكرهن محبيهم ولا يقسون عليهم. من تلك الزاوية بت أبحث عن وصفة تراعي قدري، فهي لم تصرح علنا بحبها، لكنها سمحت لي بمقابلتها والحديث معها في شجون الحب.. هي لم تمانع من أن أتغزل بها، أعشقها، وبذات الوقت لم تفتح لي قلبها، لم أشعر بمطاوعتها رغباتي.. أظن النساء يرغبن في الحفاظ على كراماتهن ومكنونهن العاطفي من أجل الحفاظ على قوام الشخصية...

مـا يحيرنـي هـو أنـي لا أملـك صـفات العاشـق المميـزة الـذي يجـاري سـحرها وقـدرها، لا فـي الشـكل ولا فـي المـادة واللـبس، ولسـت مميـزا ومشـهورا فـي هوايـة مـا لألفـت أنتباههـا إلـيَّ.. لكنـي أملـك عاطفـة جياشـة، وأخـلاق عاليـة وكرامـة تجعلنـي فخورا بذاتي، إلى جانب قلب مرن، طيب.

تـرى؛ هـل مـن المعقـول تتـرك كـل هـؤلاء الشـبان الأثريـاء والموصـوفون بالوسـامة والهوايـة والثقافـة النيـرة؛ لتتعلـق بمسكين يحف الخطى في دروب السعي خلف ذاته؟...

المنطـق لا يوافـق هشاشـة الواقـع، ولا يجـاري تفكيـري بهـا، والـذي وضـعت نفسـي فـي قـوس القـدر، لكـن مـاذا اقـول للقلـب المتيم وهو ينفض غبار ضعفه.

إذ لابد من سر يقف خلف غموض الأمر!..

تـرى مـا هـو ذلـك الشـيء المخفـي بـين ثنايـا الحسـن والأنوثـة، التـي تـود أبـرام صـفقتها والتوقيـع عليهـا؟. أنهـا فعـلا مسـرحية تراجيديـة بطلهـا مفكـر بـائس، وجمهورهـا أوهـام واحـزان ونكـد وحيـرة، ومـع ذلـك لابـد مـن إتمـام فصـول المسـرحية مجبـرين، لنضع النقط على الحروف ولنقطع دابر الشك باليقين.

قـد تكـون رحلـة مغـامرة، وهـي كـذلك تبـدو لـي مختلفـة، ربمـا وجـدت فـي ذاتـي طـرزان ينقـذها مـن مـأزق يحـيط بهـا، مـن الوحـوش المتربصـة بهـا.. وقـد أكـون طـرزان ولا أعلـم بقـدرات نفسـي، أو سـندباد أنقـذها مـن المتاهـة التـي تعصـف بهـا، أحيانـا الإنسـان يقلـل مـن شـأن ذاتـه دون أن يعلـم قيمتـه ومكانتـه الحقيقيـة في عيون الغير.

باختصـار يجـب علـيَّ أن اسـتمر، لا مجـال للتراجـع أو النكـوص، فعلـيَّ أن أمضـي بصـمت خلـف جنـوح الـنفس، عسـى أن أصـل لنهايـة معقولـة.. كانـت قـد ركنـت سـيارتها فـي مـرأب مسـيج، ثـم دخلنـا مطعـم راق قـابع فـي ركـن مـن أركـان الشـارع العـام الـذي يتوسط مصيف صلاح الدين.

3- الزوبعة 1/ مايس 1979

كأن المطعم لوحةٌ معماريةٌ تنبض بالحياة، واجهةٌ مشرقةٌ، براقةٌ، تجذب الزبائن بنورها، يتألف من طابقين، تغلف جدرانه الخارجية كرستالٌ أزرقٌ غامق، يوائمُ الخضرةَ الدارجةَ في بحرِ المصيف، مع ابتهاجِ زهورِ الربيعِ بألوانها الزاهية، تحت بهاءِ الشمسِ الدافئة. يسمحُ للنظرِ أن يخترقَ جدرانه من الداخل، لكنَّه يحفظُ أسراره من الخارج، كأنه فضاءٌ مفتوحٌ للخيال، حيث يمتزجُ الضوءُ بالتصميمِ في تناغمٍ ساحر.

كانت تمشي أمامي مشي القطا، تجلب الأنظار بأناقتها ورقتها، تحاصرني في ذلك المشهد، كأنها قطبٌ من الجاذبيةِ يركبها الفتن، كأنها الأنثى الوحيدة في المصيف، رغم سفرِ النساءِ وهنَّ يتمخترنَ في الشوارعِ والممرات، بعبقِ الحسنِ وفيضِ الأنوثةِ المتدفقة.

الجاذبيةُ ليست مجردَ حضورٍ، بل هي تأثيرٌ يتغلغلُ في النفس، يتركُ أثرًا لا يُمحى، كأنها قوةٌ خفيةٌ تُعيد ترتيبَ المشاعرِ واللحظات.

كأنها كانت محور المشهد، تتحرك كأميرةٍ تدخلُ بلا استئذان، وأنا أتبعُ خطاها كظلٍ لا يفارقُ قامتها، كحارسٍ شخصيٍ يترقبُ تأثيرها على محيطها. الوجوهُ حائرةُ من حولها، تتلفتُ ذاتَ اليمينِ وذاتَ الشمال، كأنها لم تعد تهتمُ بشيءٍ سوى بإطلالتها، كأنها نقطةُ الجذبِ التي لا تقاوم.

التناسقُ المنبسطُ فوقَ قامتها، ما شذبَ الساقينِ المكتنزينَ من فتنة، وما أضفى على الصدرِ والوجهِ بريقَ السحر، كأنها شعلةُ ألقٍ تحاورُ أذهانَ الرجال، فيما الغيرةُ كحلتْ عيونَ النساء، وباتتْ تهمسُ همسَ العيونِ في صمتٍ مهيب.

وهي تمشي بنسقٍ ثابت، كان حوضُ عجيزها يختضُ بانسيابية، مع تناسقِ خطواتِ القدم، لرقةِ ميلانهِ والسحرِ المبثوثِ في قامتها.

تهجسُ بالجسدِ كأنهُ من شَرَاشِرُ ورقٍ شفاف، تحركهُ نسائمُ العيونِ المبحلقةِ فيه، ما جعلني أتنهدُ شوقًا لاحتضانِها، وكأنني إلى جانبِها، ماسكٌ الناي أغني شجني. وكأنَّ حضورَها لم يكن مجردَ خطوة، بل موجةٌ تترددُ في الهواء، ألهبتْ نظراتِ العابرين، أخضعتْ العيونَ لسطوتِها، حتى بدا المشهدُ كلوحةٍ متحركةٍ، كلُّ عنصرٍ فيها متأثرٌ بجاذبيتِها التي لا تعرفُ الحدود. وهي تمشي في الرواق كأنها عاصفة أربكت حفيظة الجالسين في المطعم. تاركة خلفها بقايا فوضى تدور في صحنه، تركت العيون تنزف شوقا من فيض حسنها.

كانت تمشي مشية الواثق من أمره، ترشد ذاتها الطريق، كأنَّها على دراية تامة بأجزاء المطعم، حتما كانت زارته فيما سبق. حيث أرتقت بخطواتها الرشيقة السلم الدائري لترتقي الطابق العلوي، اتجهت لباحة الضيوف الخاصة، والمطلة على شارع المصيف.

المطعم مقسم إلى أجنحة شتى، منها عام وخاص ومنها شعبي وعائلي وسريع، في الطابق العلوي فيه ركن خاص يخص العشاق، مقسم بحواجز بلاستيكية ملونة على شكل غرف

مربعة لا يزيد حجمها عن حجم الطاولة الدائرية الوسطية إلا بمساحة الكراسي المحيطة بها، بحيث تكون تلك الحواجز سدا منيعا تحجب أنظار الآخرين عن الجالسين داخلها. أماكن خُصّتْ لأصحاب القلوب المحبة الرهيفة.

كنا قد جلسنا في مربع يطل على جزء جميل من مظهر المصيف، وكانت قائمة الطعام موضوعة أمامنا على الطاولة الدائرية الزجاجية والتي تستند على عمود معدني من الأستيل من مركزها والذي قاعدته بدورها دائرية. الطاولة مغطاة بمخمل بنفسجي شفاف واضح بريقه تحت طبق زجاجي شفاف، يحيط بالطاولة كرسيين خشبيين ذات مساند بمقعد لدن، ناعم، معبأ بالإسفنج المضغوط، فيما قائمة الطعام تشير إلى ما لذة وطاب من وجبات الأكل الشهية، إضافة لقائمة المشروبات المنوعة من غازية وروحانية.

لقد تعودنا في رحلاتنا الترفيهية أختيار الأكلات الخفيفة كالمشويات من كباب وتكة (الشقف) وكص (الشاورما) ...الخ. اتفقنا على اختيار الكباب والتكة للذتها وخفتها وبراعة أهل الشمال في توضيبه.

من حيث ابتدأنا استهوتنا لذة الطعام ورائحته الزكية التي ملئت خياشيمنا جوعا وشهوةً، ومع إطلالة سحر المنظر العائم من خضرة وتضاريس متموجة، راقت النفس وآزرت متعة النظر، إضافة لألق وسحر وجه هدى الذي بات يمنحني دفء وعطاء بما كنتُ أحلم به، حيث لها وجه يمنع العين من أن تتبجح وتنحرف لجهة أخرى.

برحنا في زقزقة الحديث ووسوسة المشاعر، أرتقت بنا لحظات الألفة درجة التناغم التي أغشت وجوهنا بالابتسام، أزفت العيون تحاكي بهرجة الفتن، قبل أن تلاطف تلك الهواجس التي بدت مستشعراتها تجس مجسات القلوب. بعد تلك العزلة التي وضعت نفسي بها، ركدت الجوارح على دكة الصمت وهي تبحر في ذلك الموج الهادر من الفتن، مأسورة بين الهوان والتأمل.

حينها لمستُ ضعفي تماما أمام جبروتها، لمستُ تجردي أمام عصفها، كان قد بدأ يطرأ ذلك الشعور على ملامح الوجه منذ أن لاحت عينيَّ سيارتها الفارهة، منذ أن لمست زينة قيادتها وتألقها، وبعد أن دعمت ذاتها بسيف الأناقة والأبهة: حينها لانت نحوي قائلة برقة ملهوفة:...

- أين سرحت يا عمر؟
- بجمالك، وبالفارق ما بيني وبينك.
- أية فوارق؟ أنا لم أرى ما يميزني عنك.
- هذا مجرد تواضع منك، فأنت فوق في القمة وأنا في القاع. شكرا لك على تواضعك.

مع أنها كانت لحظات محيرة بالنسبة لي كوني لم أتوقع ظهورها بهذا الشكل المبهرج. حيث كنت على سجيتي أتوقع رحلة عادية بين عشيقين يقضيان ساعات ألفة بعجلة أجرة، كوننا طالبان في ذات الجامعة محدودي الإمكانية...لكن الذي حصل قلب موازين فكري رأسٍ على عقب، أهجس بها رحلة أضحت خاصة وأخيرة. أظنها من وجهة نظرها رحلة تصفية حساب، بعد أن تبنت جدول المقارنة ما بيني وبينها، هكذا شعرت بها وبالحالة التي طوت أحلامي تحت أبط مآربها.

خلال الرحلة كنت أبحث عن شكل الآصرة التي تشدني إليها، عن العزم الداخلي إن بقي على حاله، فتشت عن صيغة القرار في صحف قلبي وفكري، عن توجسي الدائم وفيض مشاعري التي تجمدت في مخازنها بعد أن صُدمتُ بالمفاجأة.

أكيد كانت قد لمست ردة فعلي، لأني لا أستطيع أن أخبِئ ما يجيش في داخلي قط، حيث علامات الحيرة تظهر على وجهي بشكل ملفت للنظر. لا أستطيع مجاراة عفويتها وفيض جمالها، بإذكاء فعلها وذكائها جردتني من قواي وهوسي وأحلامي وتأملاتي المستقبلية، وأكيد لمست ذلك بفطنتها، عرفت أني قد تورطت باختياري المُلّح على الارتباط بها وتمسكي الأعمى بشاخصها. وأكيد لامست حجم التغير الحاصل في عزمي عما كنت أترجاه قبل أن تبدأ الرحلة المزعومة.

لحظة حرجة كنتُ قد مررت بها، كرهتُ ذاتي الضعيفة، الخائفة، القابعة في جحر أحلامها. بوجاهتها وسلطانها كانت قد رجرجت القناعة في داخلي، أرجعتني إلى صواب عقلي، جعلتني أفكر بالانسحاب والاعتذار مكرها قبل أن أغوص في المواجهة... حيث بفارق الإمكانات تحكمت بمشاعري.

كأن القناعة كانت واضحة في داخلي، كما كانت واثقةً من قناعتها، لكنني بقيتُ مخرسًا، عاجزًا عن البوح، لا أستطيع أن أخبرها بما يجيش في صدري، ولا أن أعتذر لها عن تخطي حدود ذاتي الأسيرة.

عمَّ السكونُ في ذهني، طغى على هواجسي، أزاحَ شكلَ الفوضى المراقةِ في أزقةِ مشاعري، لم أعد أعلم كيف أنهي المشوار، ومن أين أبدأ خطوتي القادمة، في ظلِّ ظرفٍ عجفٍ

لـم أمـرَّ بـه مـن قبـل، مـع بقـاءِ رغبـةِ تمسـكي الأعمـى بهـوى القلب.

رغـم الهـوان بقـي القلـب يرفـأ بـذلك الشـوق علـى ضـفاف الهـوى، يسـبح بنسـائم الـود وهـي تلطـف الأجـواء مـن السـموم العابثـة فـي جـوارحي، كـان قـد آذانـي، أذوانـي العطـشُ، وددت أن أشـرب غرفـة مـن فـرات نجواهـا، برحـت أزحـف خلـف السـحر المنثـور علـى وجههـا، مخاطبًـا العينـين، مـداعبٌ الشـرائط الفتنـة المهفهفـة فوق وجنتيها والشفتين.

وفـي محاولـة منهـا ودتْ أن تنـث الامـان فـي الطريـق، أن تعيـد ظنـوني وأقـداري لمرفـأ الهـوى، تبسـمت بـوجهي، جعلتنـي ابحـر فـي مـوج ابتسـامتها، بحيـث لمسـت دفقهـا ورفقهـا وطيبهـا وجلـدها وغايتهـا، مثلمـا لمسـتُ قـوة شخصـيتها ونفوذهـا وقـدرتها علـى التلاعب بأعصابي ومشاعري وهي تمسك بخيوط القرار.

كنّـا قـد تطرقنـا إلـى بعـض الأمـور الشخصـية والثانويـة، والأمنيـات التـي كنـت ارتجيتهـا قبـل اللقـاء، كنـت أسـمع منهـا أكثـر ممـا أتكلـم، بعـد أن تجـردت عـن حقيقـة أمنيـاتي، تركـتُ ذاتـي غافيـة بـين راحـة يـديها بحيـث تتصـرف بهـا كمـا تشـاء، تركتهـا فـي قعـر ذلـك الصـمت كـالحجر لأجـل غيـر مسـمى، لفصـل جديـد يكون منصف ومطابق لإرهاصاتي.

كـان الحـديث يجـري مـع رائحـة الكبـاب الزاكـي، لـذا مضـينا نقضـي لحظـات الألفـة علـى طبـق شـهي مـن الكبـاب، ممـا خفـف من توتري وارتباكي.

مـن خـلال الحـديث فهمـت بأنهـا قـد حققـت جميـع أمانيهـا، سـوى عامـل الـزواج مـن فـارس أحلامهـا، ذلـك الـذي لـم يحـن بعـد، بقـي

معلقا في عاتق الزمن، إضافة لرغبة مكبوتة في صدرها إلا وهي أن تجوب بقاع العالم لتطلع على حضارات الشعوب فيما يخصها، كأنها ودت أن تنثر حسنها على سطع كوكب الأرض لينتشي فوق البقاع برونقه والقه وبما هو عليه.

بينما أسمعها وهي تغرد بصفاء صوتها الفيروزي، برحت أغرق في دوامة الحلم، كطير لائذ بين الماء والطينِ. تائه، أعرج بسيقان أمنيات هشة لم تعد تعينني على مواجهة عصف هواها، اشعرتني بأني لازلتُ طفلا بريئا أحبو خلف حلمٌ مكبلٌ بين هواجس الظن المخيب والعقد..

أسأل نفسي وأجيب على أسئلتي بشيء من المقبولية..

يا ترى!.. لمَ ورطتُ نفسي في معمعة مع هدى وأنا لست جديرا بمقارعتها؟

... لِمَ حاميت نفسي وحملت جنون عشقي في قربة مثقوبة؟

... لِمَ تحديت الزمن بدلا من أن أشرع بحياة طبيعية مع فتاة بمستوى قامتي؟

لمَ كل ذلك وأنا لن استطيع أن أصهر الفوارق المادية والنسبية والقدرية ما بيننا.

قبل الرحلة كنت أراها حمامة جذابة تحوم حول بحيرة الوله والحب تود أن تغرف من زلاله غرفة، بذا أغشت عينيَّ بسحر إطلالتها.. أما بعد الرحلة بانت لي كنسر عقاب يحوم فوق رأسي يود أن ينتقم مني....

كيف ممكن أروض عقاب أعمى؟ كيف أجاري صاحبة الحسن والجمال وأنا بجانبها صعلوك لا أجاري سلطانها؟ كيف أقنعها بشخصيتي وأنا إلى جانبها كطائر الغراب؟... كيف؟ وأنا الفقير في كل شيء.

بقيتُ أبحثُ في جعبتها عن غايتها الحقيقة، وهي تود ملامسة نزواتي الطفيلية؟ يا ترى: أتكون هيَّ من النوع الساذج، البريء؟ أم هي ممثلة بارعة تخفي في جعبها بعبع المفاجآت بفك العقد؟، أكيد تصفحت سذاجتي وقرأت كتابي المفتوح وتذوقت بجحي المر ففكرت بطريقة التخلص من قرفي؟... هكذا أجدها تجلس في القمة وهي تنظر إليَّ نظرة استخفاف، وهكذا أشبه ذاتي بالذي أفتعل جريمة نكراء ويخجل أن يعترف بها ولا يستطع الدفاع عن نفسه.

نعم هي كذلك ينطبق عليها الوصف تماما، أشبهها بقاضي التحقيق وأشبه ذاتي بالمتهم الذي لا يعرف نوع التهمة المنسوبة إليه، كأنها جلبتني لهذا المكان لتجلدني، لتحاسبني، لتسألني سؤال واحدا فقط، لتقول لي ببساطة:....

... من أنت؟ وماذا تبغي مني؟.....

..... لمَ تلاحقني؟...

.....لم لا تدعني وشأني أعيش حياة طبيعية؟

...ماذا تعرف عني؟ .....

من أغواك وأرسلك لتتبعني؟ ....

إلى أي مدى تود أن تصل بسفالتك؟....

يـا تـرى؛ هـل تـود ان تبـين الـي بأنـك العاشـق الولهـان؛ إلا تـرى الفارق الشاسع ما بيني وبينك؟

هـل أنـت غبـي لدرجـة السـذاجة؟ أم ورائـك نيـة مـا جعلتـك تلتصـق بظلي كالأعمى؟....أم ..؟؟؟؟؟..

بقيـت تائـه فـي تلـك المعمعـة والأسـئلة المخجلـة التـي تخـر مـن نظـرات عينيهـا دون أن تبـادر بهـا، حـائر فـي صـياغة الإجابـة إذا مـا رغبـت أن تستفسـر عـن الغايـة التـي أبتغيهـا مـن وراء عنادي....

بعـد أن أتممنـا غـدائنا كانـت قـد تعرفـت علـى تـأريخي ونسـبي ومـن أكـون، لقد نفضـت كـل مـا يخصـني بحجرهـا دون أن تطلـب ذلـك منـي، وددت أن أكـون واضـح أمامهـا كالشـمس كـي لا تجهـد بتبريراتـي، لا مجـال للكـذب وهـو لـيس مـن صـفاتي، وددت أن أحتمـي بحقيقتـي بعـد أن فقـدت جـل قـدرات الصـمود أمـام فـيض بهرجتها.

لكنهـا بقيـت غامضـة بالنسـبة لـي. بمجـرد أن انتهينـا مـن فتـرة الغـداء اسـتهوتْ شـرب الجعـة، ودّت أشـاركها بتـذوق البيـرة، لكنـي اعتـذرتُ منهـا، حيـث لـم أتـوق رائحتهـا ولـم اشـربها فيمـا سـبق، كمـا أنـي أسـتحرم شـربها كونهـا مـن المحرمـات حسـب شـرع الـدين.... لكنهـا أصـرت علـى مشـاركتها، معبـرة علـى ذلـك برقـة وطرافـة، وبلـين لا يصـمد أمامهـا الحديـد، بـذلك تمكنـت مـن أن تقحمنـي بمسـلكها، أن تجبرنـي علـى تـذوقها، أقنعتنـي بلـذة البيرة مع الكباب. قالت لي...

- جربهـا، لـن تنـدم، يـا تـرى.. أتـأتي مـع أميرتـك إلـى هنـا ولا تطاوعهـا؟ أتـود أن تفضـح أمـري أمـام الـزملاء

والـزميلات فـي الجامعـة؟ كيـف سـيروق لـي الخمـر دون أن تشاركني شربه؟ أيرضيك ذلك؟

- لـن أخـذلك.. قلـت لهـا ذلـك ومـددت يـدي لأشـاركها نخبهـا.

ثم أرقتُ بيتين من الشعر في المناسبة قائلا.....

ما ذقتُ يومًا مرارةَ الكأسِ
ولأجلِ عينيكِ فقط سأشربُ
أهجسُ بالمسكرِ منثورٍ عليكِ
وأني بهِ مغلوبٌ على الأغلبْ
كأنَّكِ كأسٌ تفوحُ اشتياقًا
وكأنَّ الهوى في وجودك كوكبْ
تلكَ العيونُ حديثُ العواطفْ
تداعبُ قلبي، تجعله يلهَّبْ
إن كنتِ من السحر، فكيفَ النجاةُ؟
وفي عينِكِ الكونُ صارَ أرحبْ

- الله عليك أحسنت جميل تعبيرك...
- اشـكري ذاتـك ولا تشـكريني - الإلهـام منـك ولـيس مـن يميني.
- عجيب قابليتك فياضة، دون قصائدك وأنشرها.
- لي رغبة في ذلك.

كانـت قـد فرضـت ذاتهـا بقـوة اطلالتهـا، رضـختُ تحـت زن مطـارق السـحر والرغبـة الجامحـة فـي نفسـها. كمـا كنـت أشـعر جزافـا بضـعف شـديد اتجـاه شخصـها، خاضـع لأرادتهـا، منقـاد لرغباتهـا كالكلـب لا أسـتطيع أن أفـك حبـل القيـد عـن رقبتـي، ممسـكة بزمـام أمـري، أمشـي خلفهـا كظـلٍ مأسـورٍ بجبـروت الحسن..

سيل من الأسئلة تخضبت في فكري، الاستغرابُ لفح وجهي، ما أن تذوقت الجعة حتى تعكرتْ ملامحي... بذاتها كانت آذان صاغية لصخب هوسي، انشرحت كتويج وردة بالسحر والبهاء وهي تنظر إليَّ نظرة رضا مغلفة بابتسامة صفراء أسفرت عن بروز عاج مياسم أسنانها وهي تتلألأ في ثغرها.. حينها قالت وهي تود أن تتأكد:...

- ألم تجرب الكحول من قبل؟ أيعقل ذلك وأنت ترافق هذا الكم من أبناء الجامعة المتطفلين؟ أظنه بلسم العشاق، دواء ناجع لعلاج الهم والغم والألم، لا تستغرب! لا تنزعج! ستعرف كل شيء في حينه.

لازمتُ حبل الصمت حيال الموقف المحرج، لا أعرف بماذا أجيب عن تساؤلاتها، سوى أن أتحفها بابتسامة صفراء تشهد على صدقي، جذبتني لأعماق فكرها المنحرف.. بيد أنها أطفأت جمرة الحيرة في بؤبؤ عيني، حين فتحت حقيبتها السوداء؛ وأخرجت منها علبة سجائر نوع كنت.

قدمت لي سيجارة، فأومأت لها بعدم التدخين، وعلامات التعجب قد ملئت فاهها، فيما امتدت يدي لتلقف السيجارة من يدها خانعة، تلكأت الروح في استنشاق سمومها، فبتُ أسعل بعد كل مجة منها..

صارت تدخن بشبق وهي تشفط الدخان كشفاطة من ثم تمجها في الفضاء، فيما شجت مشاعرها آهات من لحن الصبا الحزين، بت أسمع صدى عزف ذلك الحزن وهو ينبث من أعماقها، وكنت قد لا قيت ما لاقت من أسف في أعماقي المضطربة، أسف على ما أصابها من كدر وما وصلت إليه

مـن استسـلام وانحـراف. لا شـيء فـي الواقـع مـن مـا شـاهدته يطابق الصورة التي أحببتها بها.

ضـغطت علـى زنـاد القداحـة برشـاقة الخبـرة، أوقـدت سـيجارتها وسـيجارتي، هجسـت بهـا كغانيـة متمرسـة، أضـحى الـدخان ينفـذ مـن شـدقيها كمعمـل الطـابوق وهـو يشـهق بحزنـه، لـم أشـاهدها مـن قبـل تـدخن السـجائر أبـدا؛ فيمـا شـعرت بقـرف الـدخان ورائحـة التبغ مع وضع فلتر السيجارة على شفتي.

مـع تصـاعد دخانهـا فـي الأفـق اختنقـت الرغبـة فـي أعمـاقي أسـفا علـى مـا وصـلت إليـه فـاتنتي، وعـن كـل لحظـة تألمـتُ بهـا علـى عشـق هـذه الغانيـة المنحرفـة فـي سـلوكها كمـا تبـدو لـي. لقـد تأججـت شـرر النـار فـي قلبـي المستشـيط غضـبا بانقباضـاته السـريعة، بـدأت دبـابير الشـك تـدور فـي فلـك انحـراف سـلوكها المشـين. إلا أنـي فضـلت أن لا أسـتبق الحقيقـة، لمـا لـبعض الظـن من أثم، على الرغم من أنها قد نزعت عن وجهها قناع العفة.

كانـت تمـج الـدخان بعـد كـل رشـفة مـن الجعـة، ثـم تحـاورني، فعرفـت عنـي تطلعـاتي واحلامـي وعـائلتي، فيمـا بقيـتُ أقـفُ علـى الهـامش، لا أعـرف عنهـا سـوى مـا افرطـت بـه مـن زبـد، عرفـت أنهـا أبنـة تـاجر غنـي مـن أهـل الموصـل، ولـدت فـي بغـداد وتدرس في أربيل.

كانـت ترتـدي فسـتانا ضـيقا، بحيـث حـين تضـع السـاق علـى السـاق يشـد الفسـتان علـى فخـذيها، فتبـرز مفـاتن سـاقين ألقـا وبهجة، فتزيدني لهفة ونارا واشتياقا واحتضارا.

بعد أن جرعتْ قارورتها الثانية من الجعة، استأذنت لتذهب إلى الحمام لقضاء حاجتها، تاركة حقيبتها السوداء على الطاولة التي تأوينا.

ما أن غربت عن نظري، حتى جالت في راسي فكرة سريعة مدهشة، استغليت لحظات غيابها لأفتش حقيبتها، لأبحث عن هويتها الحقيقية، عن أسرارٍها المخفية، تلك التي لا استطيع أن أصل لها بطيبتي وسذاجتي. كان يجب عليَّ أن أتحرك عن موضع البرود المتقوقع فيه لموقع الإثارة والجرأة والفعل.

كان علي تخطي حجاز الخوف الذي يفصلني عن الحقيقة الغائبة. ما حثني على التجرؤ؛ هو بعدها عني، حيث أني لا أعرف عنها سوى بعض الهوامش التي تجعل الغموض يسيطر على المشهد، والتي لا يمكن أن أتكل عليها لتحديد مصيري وسلوكي المستقبلي معها، لقد تجرأت بخطوتي بعد أن راودني الشك بحقيقة شخصها التي أعرفها.

فتحت الحقيبة على عُجالة من أمري، فوجدت في داخلها حقيبة أخرى منتفخة، دفعني الفضول لفتحها، ربما يكمن فيها سرها.

ما أن فتحت الحقيبة حتى أصبت بالفزع والمفاجأة.... يا الله!.. ماذا أرى! أنها ممتلئة بالنقود إلى جانب مسدس نوع طارق، المبلغ يزيد عن خمسة آلاف دولار، وأنا الذي لا أحمل في جيبي سوى ما يعادل 100 دولار فقط – بت أسال نفسي: من أين لها كل هذا؟ ولم تحمل مسدسا في حقيبتها وهي طالبة جامعية-- فتشت في جيب الحقيبة الجانبي من الحقيبة

الصـــغيرة، وإذ بهـــا تحتـــوي علـــى عـــدة بطاقـــات تعريفيـــة لشخصيتها، تزيد عن خمس بطاقات مختلفة.....

لالا .... هـذا غيـر معقـول! مسـتحيل! بـت أحـدث نفسـي وأنـا أقلب ببطاقات الهوية.... ترى من تكون؟ ...

كانت البطاقات معرفة كالتالي:....

الاسم : هناء محمد علي! ضابط أمن - وزارة الداخلية! واو.

الاسـم : فريـدة منصـور أحمـد! موظفـة فـي وزارة التجـارة، قسـم التنسيق يا إلاهي...

الاســم : ثنـــاء عبـــد العزيـــز حســـن طالبـــة كليـــة العلـــوم قســـم الرياضيات. يا رب أعني...

الاسم : وداد محسن صادق! طبيبة أسنان في مشفى الرحمة...

الاسم: هدى محمد سعيد استاذة في كلية الهندسة قسم الكهرباء!!

لالا هـذا غيـر معقـول ... كـل تلـك الهويـات تحمـل صـورتها وتوقيعهـا، أنهـا صـورتها الحقيقيـة .... يـا تـرى مـن تكـون؟ أيـن هيَّ الحقيقة؟ من هيَّ؟ --

أهـيّ هـدى التـي أعرفهـا، أم الضـابط هنـاء، أم الموظفـة فريـدة، أم الطالبـة ثنـاء أم الطبيبـة وداد؟... أنهـا لغـز محيـر وعقـيم، بـت أدور فـي طلاسـم شخصـياتها المـزورة.. الحيـرة صـفعتني، بـدأت أشـعر بـالخوف منهـا، لـذا أغلقـت سـحّابة الحقيبـة وأعـدت كـل شيء مكانه قبل أن تعود وتكتشف أمري.

فـي تلـك اللحظـة؛ انتـابتني فكـرة الهـرب والعـودة للقسـم الـداخلي، ولكـن سـرعان مـا أعـدلت عـن رأيـي، بعـد أن تمعنـت بحقيقـة مصـيري. أيـن سـأهرب؟ أن هربـت؛ هـل سـأهرب مـن الجامعـة؟ أيــن ســأذهب فــي خيبتــي الكبيــرة؟ حتمــا أنهــا ســتجدني، سـتلاحقني، ففـي هـذه الأمـور تكـون المواجهـة هـي انسـب الحلـول بعد أن عرفتُ شيئا عن أسرارها الدفينة.

انتـابني تـوتر وشـد عصـبي، أصـابتني رعشـة فـي أوصـالي، بـان الاضــطراب واضــحا علــى محيــاي، تلونــت حيرتــي، أضــحت حـالتي كالقشـة تتلاعـب بهـا أمـواج اللؤلـؤة، فـلا هـي غائبـة ولا هـي موجـودة، ولـولا وجبـة الغـداء التـي سـندت معـدتي الفارغـة؛ لأغشيتْ نفسي.

لـم تتـأخر كثيـرا، طلـت بنورهـا، عـادت كشـمعة تتقـد بابتسـامتها اللطيفـة. لـم أصـمد أمـام ثورتهـا، أضـحت أشـلائي قصاصـات ورق متنـاثرة أمـام عصـفها الشـديد، لـم اسـتطع جمـع شـتاتي، كـان الصـمت قـد أغلـق رتـاج الفكـر، لـم أحتمـل صـبري وسـكوتي، وكأنمـا قرقعـة مدويـة عبثـت بملامـح وجهـي فأثـارت أنتباههـا وشـكها، كمـا هجسـت بتـأثير مفعـول الخمـر الـذي أرتفـع وتيـره درجات في المخ والبدن على حين غفلة.

بمجـرد أن وصـلت، لاحظـت شـطط الاضـطراب يمـوج فـي وجهـي، وبفراسـتها قـدحت إنـارة صـمتي.. فسـألتنـي بهـدوء المتيقن قائلة...

- يـا تـرى مـا بـك يـا عمـر؟ لِـمَ أنـت مضـطرب ؟...هـل فتحت الحقيبة؟!!

لـم اسـتطع أن أنكـر فعلتـي أمـام جبروتهـا وكأنهـا كانـت تراقبنـي من خلف الستائر، فأومأت لها برأسي، ثم قلتُ لها:....

- لقـد شـككت بشخصـك طـوال الوقـت، وددت أن أعـرف حقيقـة الفتـاة التـي أحببتهـا، هجسـت مـن سـلوكك لسـتٍ بهدى التي أحببتها! بالله صارحيني.. من أنت؟؟؟؟

بابتسامة باردة ردت، وكأنها تنتظر اللحظة لتفترسني.

- أنـا هـدى، لـمَ هـذا السـؤال؟...ألسـتُ أمنيتـك الغاليـة التـي تبحث عنها، ألست قدرك المعنى؟

أومأت لها برأسي ...بلا.

- إذا لـم هـذا الحـزن موشـوم علـى وجهـك، آلاف مـن الشـباب ينتظـرون إشـارة منـي لأجالسـهم علـى مقعـدك هـذا، الكثيـر مـن الأكـابر يحسـدونك وأنـت تمشـي معـي، تحـاورني، تكلمنـي بحريـة... ألا يعجبـك كـل ذاك؟ ألا ترغب بالحصول على سيدة مجتمع؟

أعدت سؤالي بشيء من الحدة في نبرات صوتي.

- لا تلعبـي بأعصـابي، أود أن أعـرف مـع مـن أتحـدث؟ مـا هـيَّ حقيقتـك؟ مـن أنـت؟.. بـالله مـن تكـونين؟ أنـا فـي داخلـي أتعـذب وخـائف منـك-- أود أن أعلـم مـع مـن أتعامـل؟ مـاذا تبغـين منـي؟....لـمَ طاوعـتِ رغبتـي بـالمجيء إلـى هنـا؟ وأنـت تـدركين جيـدا الفـارق الشاسـع بـين إمكانـاتي البسـيطة وقـدراتكِ الهائلـة. أنـا لا أعـرف شـيئا عنـك، أنـت مجـرد وهـم بالنسـبة لـي، نـزوة، لـم أستطع مقاومة جبروت حسنكِ، فتبعتُ عاطفتي..

- تركتُ أمامك حقيبتي، وأنا اعلم بأن الفضول سيدفعك إلى فتحها. جئت بك إلى هنا لأعرفك حقيقة نفسك وحقيقة نفسي، كي تكف عن ملاحقتك العمياء لي. ربما أعجب بك وتكون فارس أحلامي، لا ضير في ذلك، أنت شاب لا عيب فيك، أو اوقفك عند حدك.

كان التوتر قد تدفق في ملامح وجهي، بات العرق يتصبب من جبيني رغم اعتدال الجو. فقلت لها:...

- أود صراحتك فقط، الحب والرفض والقبول بات عندي سيان، المهم الصدق في المعاملة، غموض شخصيتك ذبح الرغبة من الوريد إلى الوريد.

وكأنها تود امتصاص غضبي، تود فرض هيمنتها عليَّ قالت لي وبحدة واضحة في كلامها:....

- أنا الضابط هناء...جئت لأساعدك؟.. ألا ترغب أن تمتلك سيارة فارهة؟.. ومرتب شهري مغري؟
- عن أية مساعدة تتكلمين؟ وعن أي مرتب؟.. وما هو المقابل؟.. أنا لازلت طالبا في مرحلتي الأولى لا اريد عُقدا في حياتي، لا أريد التورط بمشاكلك، أرجو أن تتركينني بحال سبيلي.
- لا تخف، المقابل بعض المعلومات تنتقيها وتوصلها ألي!..

حين سمعت ذلك جفلتْ! وقفت على قدميَّ! هممت بترك المكان، لكنها تداركتْ ذلك بسرعة، أمسكت بمعصم يدي قائلة...

- لا تتهور...أهدأ.. أجلس في مكانك، عليك أن تعلم؛ دخول البار ليس كخروجه! أن لم تجلس سأدع من يعتقلك الآن. من شهور وأنا أحاول أن أبعدك عن طريقي دون جدوى، لقد تمسكت بي تمسك الأعمى... يجب أن تعلم جيدا؛ أنا من أرسل لك رسالة التهديد بيد الفتاة! وأنا منْ أرسل لك الشبان الذين ضربوك في المرأب! وأنا منْ أرسل لك من رشقك بالوحل- حاولت مرارا وبشتى الطرق أبعادك عن طريقي فلم ترعوي، لم تستوعب الدرس. أنت عمر عبدالسلام جاسم من محافظة ديالى تسكن قرية حمرين، أخوتك علي ومصطفى، اصدقائك فهد وصلاح وياسين وقتيبة، أجلس وأصغي ألي وإلا تصرفت معك تصرفا آخرا أهوجا...أجلس نتحاور يكون أفضل لي ولك، وإلا أدعك تندم طوال حياتك.

عندما سمعت ذلك وجفت جوارحي، لم أنبس بشفة، تاه الفكر وذهب العقل من رأسي، حيث تكلمت معي بنبرة حادة جدا، وبنبرة الواثق من أمره لم أعهدها من قبل، لمست في حديثها الجدية والإصرار على تجاوز منعطفات العلاقة للوصول للحقيقة، كانت تعرف كل التفاصيل عني ترى من أخبرها بذلك. أول مرة أشعر بها ليست أنثى، اختزلت رقتها وانوثتها بشخصية الضابط هناء، أو الضابط جبار للخشونة التي أبدتها معي، استرجلت بلحظة، خلعت رداء الرقة والأنوثة عن جسدها الرقيق، دخلت بمحك القرار الذي يجب أن تتوضح معالمه. جعلتني أشعر بخيفة حقيقة من القادم.

قلت لها والخوف تسلل إلى جسدي كقشعريرة البرد، دخل إلى قلبي، لامس فكري، جعلني أرتعش في اعماقي:...

- كيف عرفتي اخوتي واصدقائي والقرية التي اسكن بها، من أنتم ؟ ولمَ فعلتم بي ذلك؟
- لم نجبرك على ملاحقتنا، أنت الذي عشقت نفسك في شباكنا، تعلقت بنا دون تفكير بشكل أعمى، كان عليك أن تتأكد من مشاعري تجاهك، قبل أن أتأكد من مشاعرك، قبل أن تغوص قدمك في الوحل.
- عن أي عمل تتكلمين؟ أفصحي لي ... نَوّري طريقي، لا يوجد ضابط يحمل معه مبلغ كالذي تحملين.. لا توجد فتاة تمتلك سيارة فارهة كالتي تملكين.. أنت ما زلتِ طفلة، طالبة جامعية لم تبتدئي الحياة بعد، أنت لستِ مثلما تدعين...

فعلا جعلتينِ اتوه بين هدى وهناء وثناء و... بالله أختزلي العقد وبيني لي الحقيقة المخفية التي تبطن شخصيتك، شخصية مركبة لها عدة أوجه، أود أن أعلم؛ من أنت؟ أي وجه هو وجهك الحقيقي؟

- أنا كل ما رأيت.
- وأين موقعي من الأعراب في عالمك؟ صارحيني كي أستطع مجاراتك في الفكر...من أنت؟... أعترف لك أنا غشيم ساذج جمالك ابهرني فتيممت بك لأصلي بقلبي، تبعت ظلك، حتى أغريتني بجمالك المبهر، جعلتني عجينة صلصال بين يديك، صرت أتبع سراب عاطفتك. لم أكن أعلم خلف هذا العماد وادٍ سحيق من الشقاء والمرار، أشعر بصفاتك قد تغيرت فسيولوجيا

بلحظة غفلة، تحولت الفتن فيك من برتقالة حلوة لحنظلة مرة.

شعرت بها قد أصابتها نشوة الإطراء في الوقت الذي به كش جلدها وأصابتها قشعريرة من تلك التي أربكتني، ربما شعرت بشيء من الندم، كأنما فرطت خرز عِقدْ شخصيتها فلم تعد تستطيع تجميعها!.. حاولت أن تشد من رباط جأشها، أن تُعيدْ كيانها لزهوه، فأضحت تعزف على الوتر الحساس.

- هذا المبلغ هو رواتب الموظفين الذين يعملون معنا، سنضعك تحت التجربة لفترة، لذا نود أن تجمع لنا معلومات عن أشخاص يهموننا، المعلومات يجب أن تكون سرية جدا، هؤلاء نشك بانتمائهم للوطن، فنحن لسنا متأكدين من ولائهم الحقيقي، ولا نستطيع الوصول الى مراكزهم بطرق مباشرة، نودك أن تساعدنا في ذلك! أن تراقب حركاتهم عن بعد، ماذا يعملون وبمن يلتقون.. ثم تكتب تقريرك عنهم. هل فهمت؟
- أتعنين أتجسس لحسابك؟
- بالضبط؛ عليك أن تسجل ملاحظاتك عنهم وعن تحركاتهم الدقيقة وأماكن تواجدهم.

كان يجب مطاوعة اللؤلؤة مثلما تطاوعها الرقة، وإلا فلن يكون لي مخرج من تلك الزنقة التي وضعت نفسي بها، ذلك المصير المجهول الذي صار يلاحقني صار مخدعي... جاريتها على سجيتها بتلبية رغباتها، طلبت منها أن تمنحني فرصة التفكير بالأمر، لازلتُ تحت تأثير الصدمة التي دوت في أعماقي..

لكنهـا لـم تتـوانى كثيـرا فـي ردة فعلهـا، فتحـت حقيبتهـا، اسـتخرجت منهـا مبلـغ مـا يعـادل 300 دولار وضـعته علـى الطاولـة، ثـم اسـتخرجت ورقـة مطبوعـة مـن جيـب حقيبتهـا، لـم تدعني أن أقرأ تفاصيلها...ثم تابعت...

- وقـع هنـا..... فـي البدايـة سنضـعك تحـت التجربـة، وسـنرى جهـدك فـي متابعـة شـخص خطيـر يهمنـا كثيـرا، هـذا الشـخص أسـمه (أمجـد سـالم القريشـي) أحفـظ الأسم...
تفضـل هـذا هـو مُرَتبـك، وعليـك أن توقـع هنـا لأضـمن حقي وحقك، ثم بعد ذلك عليك أن تفكر.

كنـت مضـطربا، مضـطرا علـى مجاراتهـا، أن آخـذ المرتـب منهـا دون فضـح النوايـا، لأبعـد شـبهة تملصـي مـن الواقـع الـذي فرضته على عاتقي، والذي كبلتني به في زاوية العقد.

وقَّعـت علـى الورقـة وفـي وجهـي بسـمة هادئـة، تـنم عـن رضـا مغشوش، فقلت لها:....

- لقـد مالـت الكفـة لجانبـك، فكسـبت الرهـان بجـدارة، فمـن يسـتطع أن يقـاوم سـلطانك وجمالـك، ليتنـي فرصـة مبعثـرة فـي طرقـك، فرصـة تعتـرض قـدرك وتلهيـك عـن عالمـك الخـاص لحظـة، لكنـت قـد تعلقـت بـذوائب شخصـك كمـا هـو الحِسـن المتشـبث بقامتـك، لكنـت كـالنور المبهور بالقمر أتشبث بك وأن أدرك نهايتي.

قلـت لهـا ذلـك وانـا تائـه فـي شـتات الطـرق، الصـدمة أعمـت بصـري، الشـك والخـوف والقلـق تخلـل مفاصـل غـدي، جزلـت هيـامي وولعـي وشـغفي... ففـي الوقـت الـذي وددت أن أوهمهـا

بصدق تعاملي معها بما يخص الاتفاق المزعوم، كنت أتبع ميل المشاعر والعواطف المراغة في صحن جمالها. كنت أرابض تحت ظلها هائم بمفاتنها، خانع لسحرها، كالحمل الذي يرتعد من جبروت الذئب. حينها تمنيت أن أمتلك جزء من بأسها لأجزل واقعي ومصيري عن قيدها.

كان الخوف قد غلب العاطفة، بات يجرجرني خلف نواياها المبهمة، لذا فضلت مجاراتها على الانسحاب من المواجهة؛ لأني في واقع ذاتي مقيدٌ بقيد الخوف والحسن معا، وددت أن تتطابق رغبتي مع الغاية التي تبتغي تحقيقها قبل أن نعود أدراجنا إلى مركز مدينة أربيل، عسى أن أتمكن من ألتملص من قيد سلطانها فيما بعد، فأنا طبعي غريني؛ لا أصلح أن أكون جاسوسا أو منافقا قذرا أتبع هواجس الناس، قد أدمر أسرة ما بريئة بجرة قلم.. لالا... لا يمكن أن أدبغ جلدي الطري بتلك الخسة والخشونة، أو أجعل من براءتي شوكة في عين الغير.

أنا تربيت تربية أبن ريف، لا يعرف التنصل عن المبادئ، ولا طباع التكبر والتبجح أمام الآخرين على الرغم من أني في واقعي أعيش حياة مدنية، حيث ميزان القيم هو الذي يفصل بيني وبين الآخرين، هو الذي يصفني بما استحق، القيم متغلغلة في فكري ووجداني، لذا لن أكون قلما أو سيفا بين أنامل من يكون جلادا على رقاب الغير.

كانت قد أغاثتني بابتسامة هادئة مع لمحة من نظرة شفافة مرهفة، وهي تلوح بزهو قدرتها على صفع هواني برقة أنوثتها مرة ووبأس شخصيتها مرة أخرى.

- أنتَ فعلا فرصة تلقفها قدري، ربما أنتَ قدري دون أن أنتبه لك، أن كانت في نفسَك رغبة جنون لازالت نائمة تود أن توقظها وتصحيها، أو رغبة ود تود أن توقد شرارتها لتحرق ذاتك بها، أو وهم يختلج ظنك تود أن تريقه، فلا تخجل أو تتردد في طلبه إطلاقا، اطلقها وسوف لن أتأخر في تلبية طلبك.
- مهما كانت تلك الرغبة كبيرة أو صغيرة أو صعبة.
- مهما كانت، أن كنت أستطيع تنفذها فلن أتردد.

بعد تلك المعاناة التي مررت بها، كانت غايتي بسيطة جدا، كانت أمنيتي أن أحضنها بشوق، أن أقبل خدها بغنج، أن ألتمس شفاهها الندية بشفاهي، أن أشعرها بالشوق الذي يفيض في داخلي، خاصة وأنا أنظر لتلك العناقيد من الكروم المعلقة في شجرة الحسن بحسرة ولهفة مفرطة. ثم أن للقبلة سلطان، قد تفتح باب رغبتها بي وقد تقذفني من نافذة اسرارها.. على العموم فلن أخسر شيء في طلبي، ويجب أن أكون انتهازيا وأستغل الفرصة لأنها لن تتكرر.

- كنت قد حلمت بك قبل أيام- ثم شرحت لها تفاصيل الحلم- شرحت لها حقيقة لذة تلك القبلة التي راودت مخيلتي، حيث بقيت لذتها تجيش في داخلي وتثير في نفسي شبقي، تثير وهج عواطفي، أتمنى أن أعيد تجربتها كحقيقة فوق زبد خديك! عسى أن تطفئ ثورة شبقي وهيامي.

ردت بلطافة وهي تبتسم بتلك العذوبة التي تصفعني بها...

- قبلة فقط؟ ولمَ لا، تستطيع أن تأخذها طالما عَذّبَتَكَ، وأنت تحرث حرثك في سراب الرمل، ها أنا أمامك بكل كياني، تفضل واقتنص رغبتك- أحذر أن تتجاوزها.

بإجابتها كأنها شحنت بدني بكبسولة مخدرة، أفرغت طاقتها بصحن طاقتي وقدرتي الخاملة، أثارت في داخلي زوبعة ارتقت إلى فعل الرغبة، جعلتني أزيح وشاح الخجل جانبا، على رغم من الرجفة المتغلغلة في ساقيَّ، جردتني من قيافتي، أضحت الأطراف لا تقوى على حمل المهمة لاقف إلى جانبها. لم أكن أتوقع حجم تأثير لطافتها وسحرها على عواطفي الملتاعة لتثيرها. أضحيت لا أحتمل الشبق المراغ في صدري، استسلمت لها مثلما استسلمت لي. كأنها تنفذ رغبة كبرت في داخلها مثلما كبرت وطغت على أعماقي.

... اقتربت مني بهدوء، لانت بعطف منقطع النظير، كأنها أحست بالشلل الذي أصاب بدني، لذا انحنت نحو قدري، عطفت بمشاعرها الرقيقة على فيض مشاعري، ارشقت وجهها الباسم بعبق أنفاسي، ضاع عطر من ثناياها أغشاني، نفذ شذاها لحشاشة القلب، حرك سنابل الود عن موضعها، سرت قشعريرة بجسدي، شلال شعرها خر على وجهي. ارتعشت الروح، زادتني شبقا وهياما بها. فكت عن ذاتي الأسيرة قيدها.

- هيا قبلني...
- لا اريد أن أوسخ خدك الناصع بشفاهي.
- لا تجعلها عقدة طالما هي رغبتك. هيا....

كانت قد تغلغلت في ثنايا الروح لحظة التصاق الشفة بناصع الخد، هجستُ بها جمرة التصقت بقطعة ثلج، ما أن التحمت الشفة بالخد هجست بدخان نار شب من موضع القبلة. فيما الشوق هفا من نظرها لتصيب به روحي الهائمة، أريق الدم في وجناتها، احمرت، طغى صمت على الأجواء، أغشانا السكون، كأنها تكبلت بالخجل وكأني تكورت بنار القبلة، طرأ علينا صبح جديد، هجست بشهقة نفذت من فمها، كخنجر غرزته بفؤادي...

ما أن قبلتها؛ سال زبد الشوق على أسيل الخد، راغت الشفاه بسيل ذاك الزبد، توردت الوجنات عفة وخجلا. عانقتها، غاصت أناملي بثنايا شعرها، طغى صمت على مسرح الشوق، تمنيت أن لا أفك أنشوطة ذراعيَّ عن عنقها. تماديت في غيي، حتى استحت العيون من طول العناق، خجلت من دفق شطآن النهدين وهي تلذ بين السحر والهيام متشبثة بالفتن.

آه كم كانت تلك اللحظات قريبة من واقع الحلم، بحيث أعادتني لمجريات المشهد، للقدر الذي رسمته لذاتي وأنا كطائر الرفراف أغرد الشوق في سماء العشق.

كانت للقبلة لذة تركت أثرا بليغا في الروح وفي سويداء القلب، قبلة من ماس حلَّتْ أنشوطة العذاب، حلَّتْ برغبة العاشق، أدمت القلب الملتاع، أصبحتْ شفاهي أكثر رقة وحرارة مما كانت عليه، كأنها سرقت الحسن والألق من صفاء الخد، لترتع بلحظات الهيام قبل تجف وتشف حرارتها.

أنها لحظة فسفورية مزجت الخيال بالحقيقة، لتعيش خالدة في ذاكرتي إلى الأبد. سعادة نرجسية غطت مشاعري، أربكتني،

منحتنـي طاقـة هجينيـة، غريبـة، أنسـتني شـواظ العـذاب الـذي اكتويت به.

شـكرتها وأنـا غيـر مصـدق مـا حصـل بيننـا. فقلـت لهـا بلهفـة المشـتاق، بمحبـة الملهـوف، حينهـا كنـت لـم أزل واقـع تحـت تـأثير حرارة القبلة:...

- لا يهمنـي مـن تكـوني، سـأناديك هـدى، بـل اللؤلـؤة...لأنـي عرفتـك بهـذا الاسـم وأحببتـك بـه، لا أبغـي مـن هـذه الـدنيا سوى عطفك ورضاك.
- أرجو أن أكون قد أطفأت لهيب فؤادك.
- بل زدته نارا ولوعة.
- أنا آسفة.

أرفقـت عبارتهـا بابتسـامة خلجـة، فيمـا أومـأت لهـا بهـز رأسـي بالأسـف، فتبسـمت وكأنهـا قالـت لـي بأنـك ثعلـب مـاكر لا يشـبعك الغرور.

بعـد أن أنهينـا جلسـتنا ونحـن متفقـين علـى صـيغة العمـل؛ تركنـا المطعـم بعـد أن دفعـتْ الحسـاب كـاملا، تجولنـا لمـدة قصـيرة فـي أرجـاء المصـيف بسـيارتها، شـرحتْ لـي خلالهـا مهمتـي القادمـة، وهـي تلـح فـي مراقبـة المـدعو أمجـد سـالم، أنهـا مهمـة حساسـة تعتمـد علـى السـرية التامـة، الغـرض منهـا الحفـاظ علـى أمـن البلـد كمـا أدعـت لـي ذلـك. مـن جـانبي عَبّـرتُ لهـا عمـا يجـيش فـي داخلي من محبة خالصة وصدق المشاعر اتجاهها.

لـم نتـأخر طـويلا، أغشـانا الطقـس بسـخطه، باتـت الغيـوم تتجمـع وتـزخ رذاذا وهـي تحـذرنا مـن اشـتداد المطـر. عـدنا أدراجنـا لأربيـل برجـوع خائـب، مبعثـر بـين نكـد وغـم وشـؤم وتعثـر

الرغبة بحجر الأزمات، بصراحة كانت الرحلة أشبه بالزوبعة بحيث دمرت كل شيء، أقلعت اشجاري وداري وفكري من الجذور. كان لابد من الرجوع لترتيب الحسابات القادمة؛ عدنا وحقيقة مشاعرنا لا تتطابق مع بعضها.

ما فرضته عليَّ في الرحلة، لا ينم بصلة لمخطط رحلتنا. ما عدنا به هو كومة شقاء ووهم وفقدان ثقة واهتزاز في العلاقة، وأن كنا في الظاهر متفقين على هوامش كذابة، لكن في حقيقة الأمر كان بيننا حاجز غليظ ونوايا قبيحة، حيث كنتُ قد لمست ما بيني وبينها من بون شاسع من الفوارق أحس به. ربما حققت ما كانت ترمي إليه ونلت قطاف ما أصبو له، ولكن السر بقي مقيد في القلب والعقل، بعيدا عن التبجح والتظاهر لمراعاة مشاعر الغير، على الأقل ذلك ما كنت أشعر به.

كنت أتوجس خيفة من المجهول، وكانت تتوجس خيفة من زيف مشاعري، وقد نبهتني حيث قالت لي صراحة وبتهديد علني واضح:...

- في حالة تذمرك، أو أخلائك بالاتفاق الذي حصل بيني وبينك، ستتبعك مشاكل جمة لن تستطيع تحمل أوزارها ويمكننا الوصول اليك بسهولة.

تلك العقدة التي حوت في ثناياها أسرارا أخافتني بها، لا استطيع تحمل تبعيتها، لا أرغب بتكرر إذلالي كما فعلت بي فيما سبق، فأنا لا أملك شيء سوى كرامتي التي أعتز بها.

عدنا بعد أن تسلل الخوف لهواجسنا مع احتمال تدهور حالة الطقس، فيما أغشت نفوسنا شوائب مخلفات الرحلة، أقصد

تلــك المفاجــآت التــي فجرتهــا بكنفــي، بحيــث بقيــت الرهبــة تلاحقني، تتحفني بها، ترهقني، كنذير شؤم تتبع قدري.

تلك الشوائب جعلت لون البهجة فاقع بيننا، بقينا نترقب الآخر دون أن ننبس بشفة، مستندين على حجر اليأس، كل يود أن يمضي بهواجسه لنهاية أكيدة، تفاقم الحاجز النفسي بيننا، صار كل منا يمسد ظهر صاحبه بعاطفة مزيفة، فيما كنتُ في تيه من حل تلك المعضلة التي تورطتُ بها، ومن جهة أخرى بقيت أعاني من نقمة القبلة، فلذتها لم تفارق شفتي واحساسي.

خلال رحلة العودة سألتها عن تفاصيل حياتها الخاصة، والتي لم تتطرق إليها من قريب أو بعيد، كأنها جعلتها في مأمن من التسويف، وددت أن أزيح ذلك الوشاح والغموض عن عالمها الداخلي المكبوت، المليء بالأسرار، كأنها دفنت أسرارها في مقبرة الذاكرة، لا يطلع عليها أحدا غيرها.

لم أستطع الغوص في بحر غرورها، بقيت أراوح في مكاني دون أن أتقدم خطوة حقيقة نحو صرحها وعالمها الحقيقي. أشعر بها قد التفت على جسدي كثعبان الأناكودا، طوقت رغباتي، جعلتني أسير ظنها وهواها دون أن تكشف لي شيء عن مخزون اسرارها. حيث قالت لي:..

- أنا مطلقة منذ زمن، ولا أرغب الغوص في تفاصيل الموضوع...

فكان رد قاطع وفعلي سريع، أجبتها باستغراب....

- أي غبي يتجرأ على دعس النعمة التي بين يديه، كيف صبر على فراق هذا الوجه الملائكي المشبع بالأنوثة والحيوية، ومخ يزن أطنانا من الذهب.
- الجمال ليس كل شيء، لم يحصل توافق بيننا، ولا توازن في قدراتنا، ولا في إمكاناتنا. لذا كل ذهب لحاله.

بإجابتها كأنها قدمت لي ملخص عن حياتها على طبق من ذهب، دون أن تسمح لي بالتفاصيل، وهو ذات الفارق ما بيني وبينها، بقدر ما كنت سلسا امامها كانت جلدة في تعاملها وفكرها، جعلتني أراجع نفسي مرات ومرات، أشعرتني بصغر حجمي وضعفي، ربما جاملتني في الرحلة فقط لأني أحسستها بصدق مشاعري. فيما كنت قد زدت ولعا وهياما بها، وجدتها ارض خصبة لزرع أمنياتي بأرضها، هجست بالطريق سالكة أمام رغبتي دخول عالمها بعد أن عرفت مشاكها..

لمست بعض صدقها وصراحتها، هجست بها كالتي غصت في ورطة ولا تستطع أن تلقف ذاتها من عوارضها، لا تستطيع أن تجاري الحياة بشكلها الطبيعي ولا أن تستغني عن ماضيها، وكأنها مكبلة بسلاسل حديدية مثلما كبلتني بحبها.

في تلك الأثناء طغت الأنانية على سلوكي، فزدت شوقا ورغبة في امتلاك قلبها، كونها بريئة، جميلة، مطلقة، بحاجة لمن يسندها. لذا علقت أمالي بهذا الخيط وتأملت الغد القادم....

في الحقيقة كنت مضطربا، متذبذبا، بين قبولي العمل تحت أوامرها والتغاضي عنه وعنها، بين محبتي لها وخوفي من

قيودها. بين مجاراتها ومعارضة غايتها، حيث فكرة التجسس هي الشعرة التي قصمت ظهر البعير، وأن عدتْ ذلك وحسب ما أدعت بمتابعة شبكة تجسس ضد الوطن!! فتلك قضية تحتاج لأهل اختصاص، لتمرين وحبكة، لفن المراقبة وتسجيل الملاحظات، لفن ممارسة السلاح، للسرية التي لا أتقنها، حيث تنقصني تجارب السياسة وتجارب العمل وكل ما ذكر أنفا..

خلال الرجوع شعرت بتغير قد طرأ في مسار فكري وحالتي النفسية. كل منا غص في صمته وعقده؛ حتى لحظة الفراق قرب المرأب.

مع فراقنا بقيت عقيرتها ترن في صوان إذنيَّ " عليك أن تراقب أمجد سالم أنه شخص خطير على الوطن" حتى أني لارتباكي لم أسألها من هو وأين أجده؟.

الفصل الرابع

1- الاعتكاف

بعد أن عدنا أدراجنا، كان لزاما عليَّ أن أراجع وقائع الأحداث بما جرت وحصلت في خلال عطلة نهاية الأسبوع بتفاصيلها المملة. كان لزاما عليَّ أن أقشر صدفية السمكة قبل أن التهمها فأضيع في متاهات الأوضاع. كان عليَّ أن أجلي التراكمات الثقيلة من على الذهن، وأن أضع النقط على الحروف، قبل أن أجنح في دروب لا أعرف لها مخارج.

لذا قررت أن أسافر إلى بلدتي مباشرة ودون أن أخبر أحدا من معارفي، ولا حتى صديقي المقرب شاكر... فبلدتي لا تبعد سوى مسافة ساعتي زمن، مستغلا فرصة عطلة نهاية الأسبوع.

قررت ذلك لأعيد جدولة حساباتي وليستقر ذهني على القرار الصائب، لأغتنم فرصة الهدوء كي أعيد لذاتي توازني، بعيدا عن التأثرات خارجية. لأستطيع أن أغمس يدي في رغاء اللعبة وأكون بها لاعبا مؤثرا في الحدث بدل أن أكون شاخص تسديد، لأبين صفاة العلة أين تكون..

كان عليَّ مراجعة تفاصيل الحدث من البداية وحتى لحظة عودتنا من المصيف، كان عليَّ البحث عن البقع المسمومة في مواقع الحدث، أن أتمعن في ماهية الورطة التي تورطت بها بعيدا عن أنظار الجواسيس الذين يتجسسوا على تحركاتي، الذين عرفوا شيء عن ارتباطاتي بهدى.

رغبت بأن أصل لشاطئ القرار الذي أسعى له بمحض إرادتي، ليكون لشأني شأن وقرار يخصني، خال من الرتوش

والشوائب والتأثيرات الخارجية، بعيدا عن العواقب التي لا تحمد عقباها. وددت أن أصون ذاتي، أن أصوغ قراري بسرية تامة، أن أعيش أجواء الحدث مع نفسي، أن أغوص بثناياه وزوايا الفكرة، أن ألتمس أبعادها وعمقها وماهيتها والغاية المرادة....الخ.

من واقع طبعي؛ لا أحب تبديل جلدي أو تغيير مزاجي، دائما ما أسعى خلف الهدوء والثبات في القرار، ثم أني لا أضمن أحدا من معارفي وأصدقائي لأسره أسراري، أهجس بالغيرة والحسد موجودان في نفس كل البشر، حتى بين الأخوة والأقارب، فما بالك بالغرباء.

بمجرد أن تركت اللؤلؤة مودعا قرب دوار القلعة، استقليت عجلة تكسي لمرأب العام ومن ثم اتجهت منه لمدينتي دون مراجعة لقراري، كان هناك دافع لا أعرف مصدره يحثني على الصمت والمضي بهذا الطريق، ربما كي لا أُتبعْ شيطان نفسي أو يتبعني شيطان هدى، كي لا تهجس بقراري شلة الغوغائيين من هؤلاء المنافقين فتتبع أثري.

رغم بعد مدينتي عن الجامعة؛ إلا أني قبعت في سكني ليومين دون أن أغادر أسوار البيت ألا لغرض جلل، خوفا من المتابعة والملاحقة الغير مضمونة نتائجها، كان قد ركبني القلق، طالما تمتلك يدٍ طويلة في منظمة سرية إذا من الممكن أن تكون قد أرشدتْ من يلاحقني وإلا كيف عرفت اسماء اصدقائي واخوتي، وحتما عملت تحرياتها عني وعن منطقتي وسكني بشكل دقيق.... لقد شعرت بذلك، فهي لها القدرة لتصل بغايتها لأبعد مدى داخل حدود العراق، شعرت بأني مراقب في كل تصرفاتي، مراقب من قبل نفسي؛ لذا أحتط

بشيء من الجدية، لربما بيتنا يكون هو الآخر مراقب دون أن أدري، طالما أدخلتني في ذهنها وفي تلك المعمعة اللزجة.

أفتقد الثقة بالناس جميعا إلا أهلي، ذلك الوجس صار يحثني على تخطي المعضلات وتجنبها كيفما تكون، حيث صرت أرى شلة أصدقائي الذين تربيت معهم في الشوارع وفي مقاهي المدينة بعين أخرى غير التي تركتهم عليها. صرت أتجنب سلام وأتجبب رائد وأكف عن مسايرة تحسين وأبتعد عن مجاملته أحمد، كما كنت أنظر ناجد بشيء من الريبة والشك كونه ذا طابع بخل ممكن أن تحرفه المادة، هجست به ممكن أن يخونني ويبيعني ببخس الثمن مقابل خدمة يسديها لأفراد العصابة أو المنظمة السرية التي تنتمي لها هدى.. فيما جنح فكري بسلوك قتيبة الذي دائما ما ينتقد تصرفاتي، هجست به يكرهني، ربما يحمل في قلبه ضغينة ما تجاهي، كما خونت عثمان وكريم وعامر وحسن ومحمد، لربما يتعاونون مع من يود أن يكيل بشخصي..

هكذا بت أرى شلة أصدقائي بشيء من الريبة.. ربما نظرتي للسيد عمار تختلف قليلا، باعتباره أكثر الذين يسدون لي النصح من باب المحبة، مع ذلك لا أبعده عن دائرة الشك التي كانت تدور بذهني. ربما يُغش بخبث اساليب تلك المنظمة السرية التي لها القدرة على دخول النفوس بوجوه متعددة، لذا بلينه وضعفه ربما يكبلني بقيود تلك المنظمة.

صرت أتجبب الجميع، لقد فقدت الثقة بكل معارفي، تداخلت خطوط الصالح بالطالح، واضعا رأسي في زحمة الأفكار والعقد؛ مفضلا المكوث في الدار على ملاقاة شلة المعارف.

الصدمة جردتني من اهتماماتي الشخصية الخاصة بذاتي، فتلك الورقة التي وقعت عليها والتي لا أعرف مضمونها وماهية تأثيرها، كانت أشبه بحد السيف على رقبتي. لم يهدأ لي بال قط، كأني قد تورطت في عمل مشين لا أعرف حقيقته ولا عمقه ولا تأثيره النفسي والبدني والاجتماعي، لربما هيَّ فعلا عضوة في منظمة سرية حقيقية تريد السوء بالبلد. أشعر بها قد أغرقتني بشهد خدودها وعاطفتها فورطتني بخبث غايتها.

بفعلها القبيح كانت قد أرهقت فكري، أنستني شحنة تلك القبلة النارية وذاك الحسن الجذاب الذي غررت به، حيث في قرارة نفسي؛ كنت قد اتخذت قرارا لا رجعة فيه... ألا وهو **إبلاغ جهات الأمن عن كل ما جرى معي خلال الرحلة**؛ لأنتشل نفسي من مصيدتها، لأكون تحت حماية الأمن، وكذلك رغبة في كشف حجم الزيف من هول الحقيقة التي تحيط بي..

رغم المشاعر التي أكنها لها، وتلك اللهفة التي بقيت تأن على دكة العاطفة في محراب حسنها البهي، لم أتراجع قط عن قراري؛ رغم جدلية القُبلة العابرة التي خبطت أوضاعي النفسية ببعضها والتي مازالت تفعل فعلها المشين في خلايا الذهن والقلب؛ وعلى الرغم من أنني تمكنت من تجريد نفسي من ذاتي الخنيثة، المائعة، المتشبثة بعالم الحسن، رغم الألم والنار المضرمة بأحشائي....

كانت تلك القبلة قد تركت أثر بركانها في موضعها وفي جوفي كجمرة متقدة، لقد بقيت الشفة ملتاعة بحرارة خدودها، وبالحيرة التي تخمرت على رضابيها، والتي زادتني شغفا وهياما بها كلما شطح ذكرها على سفح الذهن. كأني قسوت

علـى نفسـي بـ مـلاواة الرغبـة الجانحـة، ومقاومـة ضـعف عاطفتي البليدة.

لقد جعلت للعقل ميزان يتحكم بمقدراتي، فلم تكن هدى سوى نـزوة عصـفت بقـلاع الفـؤاد فـدمرت مـا دمـرت مـن ثوابـت الشخصية.

لازلت بعيدا عن حرارة الموقد رغم لفحة نار الجوى، لازلت فـي مـأمن مـن شَـرَك الغـرام، لازالـت الاصـفاد لـم تكبـل قـدميَّ، يمكننـي أتحـرك فـي مجـالاتي وأطـري وحـدودي؛ رغـم تـوقيعي علـى ورقـة الاشـتراك بتلـك المنـاورة الخبيثـة، لاتنـي اقـف علـى شـاطئ الحريـة أترقـب سـفن النجـاة العـابرة لتنقلنـي لشـاطئ الأمان.

أضـحت للرحلـة نتـائج ملموسـة فـي حسـاباتي، لقـد تحطـم الحـاجز الـوهمي الـذي كـان يحيـل بينـي وبـين اللؤلـؤة، التمسـت ضـفائر بعـض أسـرارها الخفيـة التـي كنـت أرتعـب منهـا، هجسـت بجبـل الـثلج قـد أذيـب بلعقـة مـن علقـم المحبـة، فلابـد لـي مـن الانـزواء خلـف وشـاح المحبـة فتـرة زمنيـة مـا؛ حتـى تنفجـر مـرارة العلاقـة التـي تورمـت فـي تلـك الرحلـة. لابـد مـن الانـزواء قليلا حتـى تأخـذ مرارة الكاس مفعولها في الواقع.

سـيبقى رمـاد الحلـم يغشـي ثـرى الفـؤاد حتـى حـين؛ حتـى تأخـذ الحـلاءة دورهـا فـي شـفاء العـين، حتـى تسـتقر الحلـول فـي قعـر الـذاكرة، وربمـا سـتزداد حسـابات الفكـر تعقيـدا، ولكـن لابـأس ان تمكنت من فك قيدها عن رقبتي....

كتمـت ذلـك السـر عـن أقـرب النـاس، لـم أبـح عمـا يجـيش فـي خـاطري، لقـد تغيـرت كثيـرا بعـد الرحلـة، تحولـت مـن متـيم بهـا

لملهم بذاتي، من أرنب لذئب اخاطر بحياتي، لسيد أتبع انسانية الموقف، مبتعدا عن ظلال الأمن والسياسة التي اكرهها، حيث لابد من أسقاط كتل الهم من على متني، لن اتاجر بالقيم المتجذرة بذاتي مقابل عاطفة مزيفة تذوب كوغف الصابون.

على مدى يومين لم أستطع أن أعيش عيشة سوية، خامرتني الوساوس التي ما عادت تنفك عن شبكة الذهن، لاحقتني الكوابيس، تجردتُ من طابع المرح تماما، تكبلتُ بطابع الاعتكاف والتوحد، احتطتُ بشباك من الخوف، صرت أشعر بأني مهدد وملاحق حتى وأنا قاطن في بيتي..

في الحقيقة مسألة العلاقة الودية بيني وبين هدى نحت منحا آخرا اشد وطأة ودناءة من الخسة والنذالة، كبرت عن حدودها، تشعبت قيعانها، صار لها أشواك وزعانف من الحقد والخيانة تشك وتغز الهواجس، قبل أن أتحرك عن موضعي. نبتت لها أنياب ومخالب تدلس الأذى في النفس وتدس الرعب في أوصالي، أصبحتُ وحشي المزاج، ترهبني الذكرى، تعيق تفكيري، تلاحقني في ظني ويقيني.

التجرد من تلك المسالة الشائكة بشكل عبثي يعد في حسابات العقل من عالم الغباء، حيث المعضلة التي تكبلت بها لا تحل نفسها بنفسها، طالما كنتُ قد وقعت على تلك الورقة الأثيمة. التوقيع بحد ذاته شاهد زور على قبولي واشتراكي واعترافي بجرم لا أعرف أصله ونطاق حجمه وأبعاده. إذا لابد من عمل أقوم به قصاد ذلك، أو صنيعة ما أتمسك بها تفك شفرة العقدة التي صدأة في موضعها.

حين يشتدُّ الوجعُ، وتتكشفُ الحقائقُ بلا مواربة، يصبحُ الصمتُ شريكًا في الجريمة، والتردُدُ بابًا للهوان، فلا خيارَ إلا أن تُكسرَ قيودُ القلقِ بالعمل، وأن تُلملمَ الجراحُ قبل أن تستفحلَ وتُصبحَ ندوبًا لا تزول.

لقد تدحرجتُ بين منحدراتِ الظرفِ ومطباتِه، وما عادَ للانتظارِ مكانٌ في معركةِ القرار، فلا بدَّ من حلٍّ سريعٍ، يقطعُ الشكَّ باليقين، ويعيدُ للنفسِ توازنَها قبل أن تذوبَ في دوامةِ التردد.

لابد من حل رباني سريع قبل أن تغلق الأبواب - فالتأخير عن التبليغ يعني القبول والمماطلة، مما يجعلني مشتركا بتلك الجريمة من قريب أو بعيد.. كلما مر الزمن أزداد الوضع سوءا وهوانا، فلابد من حلٍ سريعٍ لتلك المعضلة.

2- ابو علي الجايجي

بعد أن منحت نفسي إجازة يوم إضافي لأستقر على واقع القرار، عدت أدراجي للجامعة بعد ثلاثة أيام من لقاء هدى وقررت أن أبصم باليقين وأخبر المعنيين بأمن الدولة عن كل صغيرة وكبيرة الصقتها بي تلك الحية اللقيطة، لأفك حبل الرعب عن عنقي.

بعد ظهر يوم الأحد خرجت من مطعم المسافر القابع في شارع القلعة، اتجهت مباشرة لدائرة الأمن الرئيسية بشكل سري وبتنكر تام، استقبلني أحد الموظفين مستفسرا عن سبب تواجدي في دائرة الأمن.. قلت له...

- أود أن أبلغ عن أمر مهم خاص...

بدوره قادني لغرفة رقم 3...

حين أطرقت الفكرة للقابع أمامي، طلب مني الانتظار لمقابلة الشخص المعني، عُلقت لنصف ساعة في غرفة 3 وحيدا دون أن أسمع أو أدرك ما كان يدور خلف الكواليس. بقيت جالسا كالمذنب على كرسي بلاستيكي مدة نصف ساعة، الرعشة والقلق طفقا يسريان في كل أعضاء الجسد.

عاد الشخص المعني ليوجهني بمراجعة غرفة رقم 7.

وبمجرد أن دخلت غرفة رقم 7، فاجأني الشخص الجالس خلف الطاولة! والذي لم أكن أتوقعه بتاتا أن يكون في ذلك المنصب...أنه ذات الشخص النادل، الطيب، الذي يعمل في نادي الجامعة متنكرا كبائع الشاي والقهوة، أنه طيب الذكر أبو علي الجايجي، ذلك الرجل الخدوم والذي يحبه ويحترمه جميع

الطلبة، لما له من كارزمة محبوبة وحسن سلوك – أعرفه جيدا وهو يعرفني حق المعرفة، ذلك ما حيرني وأزال حاجز الخجل في مواجهته.

ناداني بأسمى.

- تفضل يا عمر، هيا أجلس.
- من! أبو علي...أأنت هنا.. ماذا تفعل هنا؟

تقدمت منه وقبلته من خديه معانقا، في الوقت الذي به أحسست منه خيفة لتواجده في موقع حساس وبمنصب مسؤول كبير في أمن الدولة....ولكن حين شاهدته كأني تمسكت بالعروة الوثقى، وهو الشاهد الذي لا احتاج غيره في إنقاذ ذاتي من الورطة التي تكبلت بها، أنه دليلي، وسندي، وهو المطلع على كل شاردة وواردة فيما يخص طلبة الجامعة، قال لي:....

- يا أبني ليس من حقك طرح الأسئلة، هنا عليك أن تفضفض مشكلتك ونحن نستجيب لك... قل لي ماذا ورائك؟ وماذا تود أن تشرب؟ ولماذا أنت هنا في هذا المكان الحساس؟

وقفت على قدمي وقلت له.....

- أين القهوة، هذه المرة أنا الذي أقدمها لك.
- لا لا هناك من يأتي بها، تفضل أجلس وفضفض لي ما في جعبتك.

شرحت له تفاصيل الحدث برمته من الألف إلى الياء، من لحظة هيامي بهدى وما جرى لي من تعرض ومضايقة وما

آلت إليه الرحلة بالتفصيل الممل. أي كل ما جرى لي منذ البداية حتى دخولي غرفته، دون ذكر لقطة القبلة وشرب الخمر طبعا، لقد شعرت بالحرج منه ومن اللؤلؤة بتلك الفضيحة، فتجاوزت تلك النقطة إكراما لكرمها ووفاءً للحب الذي أكنه لها. حينها قال لي:...

- جميل منك هذا التصرف، لقد أنقذت نفسك في الوقت المناسب، كنا على علم بما يجري، كنا ننتظر الدليل فقط. خيرا فعلت.... صَمَتَ قليلا ثم أكمل.... أحذر! لا تفتح سيرة الموضع حتى مع الجن، الآن أخرج من الباب الخلفي للدائرة وتصرف بشكل طبيعي مثلما كنت سابقا ونحن سنتكفل بالموضوع ونأمن حياتك، وفي حالة احتياجنا لك سنرسل إليك، وإذا ما واجهتك معضلة ما، يمكنك أن تبلغني شخصيا فقط. كن طبيعيا في تصرفك ولا تلتفت خلفك.

وقبل أن أخرج من مخبئه، أخرجت المبلغ الذي قبضته من هدى وهو ما يعادل 300 دولار ووضعته بين يديه....

- تفضل هذا هو المرتب الذي استلمته منها.
- ضعه في جيبك وأعتبره هدية منا لك على مساعدتنا، تفضل مع السلامة.

ثم ودعته

- مع السلامة.

دلفت من اللباب الخارجي الخلفي لشارع فرعي، ثم اتجهت للشارع العام حفاظا على السرية، شعرت حينها بأني كمن

خلع ضرس مسوس من فمه، ليزح عن عاتقي الهم والغم وكل ما علق به من شوائب تلك العلاقة.

كان لزاما علي أن أخبر جهاز الأمن، فالهم ثقيلٌ جدا، لا يحتمل، وما أن فضفضت للجهة الأمنية؛ حتى شعرت بعدها براحة تسري في عروقي، شعرت براحة نفسية ونظافة، كأني ولدتُ من جديد لأبدأ حياة صافية من الأغبرة والعوالق..

على الرغم من الغصة التي لازمتني عقب ذلك، كنت قد جنيت الهدوء وراحة البال لنفسي على ما كان بيني وبين هدى من اضطراب فكري يلفنا، في ذات اللحظة شعرت بشيء من مرارة الفراق لتلك الآفة التي فيها جوانب كثيرة مضيئة.

لم تكن إلا كما وصفها شاكر، ثعبانًا يتلوى برشاقة في عتمة الشعور، يقترب من هاجسي دون أن يُرى، أفرغ سُمَّه في طبق عاطفتي بلا شفقة. لم تصفعني بيديها، لكنها جرّدتني من القوة، شلّت أوصالي بكلمة، فتّتت يقيني بنظرة. أطفأت شموع الفرحة في قلبي، وأوقدت حطب الجنون في موقد الروح. نثرت الحزن فوق يباب الفرصة. أصبحت الكآبة رفيقتي، والقافية مجرّد صدًى لصوتها، والأمان فكرة تماهت في العدم.

المسألة أعمق من الخذلان... إنها متاهة تتشابك فيها الأسئلة، وتتماهى فيها الهواجس، فلا أعلم إن كنت وقعت ضحية مكرها، أم مكمن ضعف تلبست به. لقد رغَتْ طويلاً في فكري وظنوني، تلبّست شخصي، ولم تتركني حتى التمست حافة الانهيار.

ولولا فطنة اللحظة الأخيرة، لتوارت روحي في العتمة، بلا ملامح، بلا غفران.

العقدة التي تكبلت بها، لم تعد لها صلة بي بعد أن تفككتْ خيوطها، بل كان لجهاز الأمن الدور في فل العقدة... لقد تم اعتقال المجموعة بكامل عناصرها، تم وضع اللؤلؤة تحت الإقامة الجبرية لمعرفة بقية العصابة....

ذاك ما أوضحه لي العم أبو علي فيما بعد في نادي الجامعة.

كم كان عددهم؟ من هم؟ ما غايتهم؟ تلك الأسئلة الغامضة لا استطيع الاجابة عنها، بقيت قيد الكتمان والسرية في جعبة جهاز الأمن. لكن فضولي دفعني في أحد الأيام من الاستفسار عن خيوط المعضلة من قبل العم أبو علي، كان ذلك في نهاية يوم من أيام العمل في باحة النادي... حيث شرح لي تفاصيل حياة هدى وذلك بعد مرور فترة شهر من تاريخ البلاغ الذي اخطرت به دائرة الأمن..... شرح لي جانب من حياتها بعد أن طلب مني الكتمان والسرية، وعدم العودة إليه مرة أخرى في أي حال من الأحوال، لا أدري لم وضع ذلك الشرط. حيث قال لي:...

- أنها ليست هدى كما أوهمتك، فهي تدعى (ليلى محمد خليل)!...وهي طالبة في المرحلة الثالثة في قسم البيولوجي من كلية العلوم، كانت تقضي في كل مرحلة من مراحل الدراسة سنتان قبل أن تجتازها، وهي في الأصل من التبعية الفارسية، تسكن مدينة بغداد. الحالة الاقتصادية ضعيفة، الوالد متوفى.... تعرضت ليلى للاغتصاب! من قبل ذوات النفوس الضعيفة من ضابط الشرطة الداخلية، تأملته أن يتزوجها بعد علاقة حب مزيفة، لكنه لم يكن جديرا بعلاقته، لم يكن سويا بها ولا وفيا لها. غدر بها الوغد

ولم يقدر وضعها وضعفها، أخذ منها بهجتها، وتركها عرضة للكلاب تصارع الحياة بروح مريضة. أغاضها فعلته القبيحة والدنيئة والمشينة، فاستفحل شعور الانتقام في داخلها، أضحى يغلبها الغيظ والكراهية.

بفعلته الحقيرة كان قد جردها من سر الحياة(من بكارتها)، نمت تلك العقدة في داخلها، صارت تحتقر نفسها وتحتقر الضباط بشكل عام، فكانت ضحية نفس أمارة بالسوء....

هذه الحقيقة أوصلتها لحالة مزرية، عقيمة، شحذت فكرها بفيض الانتقام، وهي بذلك وضبت ذاتها بشكل مدروس لتنتقم من كل الضابط بما يتاح لها من وسائل، حتى قادها حقدها لتنتقم من البلد بأكمله..

تلك هي القسمة الضيزى، بعد أن كرهت زيف الحياة والفقر المدقع الذي التف عليها، رغم ما تملك من فتنة وجمال يؤهلها لتكون نجمة ساطعة في المجتمع... نتيجة لتلك الحالة المتقلبة في حياتها، ونتيجة الغدر والجور الذي وقع عليها من شخص كانت تتأمله زوجا لها، استفحل الحقد في صدرها، تحول دافع الانتقام إلى التخريب والانتقام من البلد، إلى العمل ضد الوطن كجاسوسة لبلد أجنبي مقابل أن تغني نفسها بسرعة وتحتقر من أهانها بمغريات الحياة من لباس ومال وعجلة فارهة وو...الخ.

- إلى هذه الدرجة وصل بها الحال، أنها بذلك باعت نفسها.

- ظنَّت أن طريق استرداد كرامتها سيكون سهلًا، كمَن يلتقط ظلّه من الماء، بعد أن استُبيحت مشاعرها وذُبحت من الوريد إلى الوريد. لم تكره شخصًا بعينه، بل كرهت الحياة كلّها، لأنها سمحت بانكسارها. وهكذا بدأت تنتقم من نفسها ولنفسها ومن الجميع، كأنها تسعى لإعادة توازن كوني اختلّ في داخلها.

العقدة لم تكن وليدة لحظة، بل كانت تراكمًا لنزيفٍ نفسيّ خفي، ضغط على كيانها حتى انفرط. وفي خضمّ هذا الانفلات، صبّت محتوى ألمها في وعاءٍ من الانتقام البارد، ساعدها عليه ضياعها الروحي بعد الطعنة الغادرة، وساعدها أكثر سحر جمالها الغجري، الذي تحول من نعمةٍ إلى أداة تستدرج به الضحايا، وتنتقي ملامحها حسب ما يستدعيه مشهد المواجهة - يتكوّر حيث يستدرج، وتبرز حيث يضعف الخصم. كانت تُتقن التمويه كانعكاسات المرايا: تُخفي ما لا يُحتمَل، وتُظهر ما يُراد له أن يُرى.

- وما هو مصير الضابط الذي تسبب بانحرافها، أتُرِك حرا طليقا؟
- جرد من وظيفته. وأحيل للسجن.

بعد تلك الجلسة التي دامت قرابة ساعة زمن؛ تركت أبو علي ولم أعد إليه مرة ثانية، حسب شرطه، وخوفا من التبعية التي ربما أتكبل بها، لما للقصة من طابع سياسي قذر يخص أمن الدولة.

لـذا وجـدت فـي البعـد راحـة وأمـان، حيـث تجنـب المخـاطر هـو أسـلم الطـرق للحفـاظ علـى كرامـة الأنسـان، وبالـذات تجنـب عبـث الأجهزة الأمنية.

أذا جنـت علـى نفسـها بـراقش، لـم تصـن نفسـها، فجرفهـا التيـار نحو واحة الخيانة....

يقول الشريف قتادة أبو عزيز بن إدريس :

بلادي وأن هانت عليَّ عزيزة

ولو أنني أعرى بها وأجوعُ

منـذ تلـك اللحظـة كنـت قـد اسـتخرجت شـوكة ليلـى (هـدى) مـن قـدمي وأن أدميـت بهـا، نسـيت صـورتها، أو بـالأحرى تناسـيتها، لأنهـا لا يمكـن أن تنسـى، كانـت قـد عبثـت بـأحلامي، فتركـت صـورها علـى جداريـة العمـر، كمـا تركـت بصـمتها فـي الـذاكرة، تلـك الهالـة مـن السـواد التـي شـطت فـي حدقـة العـين لـن يجليهـا الـزمن مهمـا حييـت. سـتبقى عالقـة فـي الـذاكرة تعيـد الـي المشـهد لأتجنـب الفـخ فـي المسـتقبل. ذهبـت مـع الـريح، ركبـت مـوج البحـر تلـك التـي ودت أن تجرفنـي معهـا لحتميـة أكيـدة خـارج حـدود المنطق والوطنية.

يَقولونَ كَم تَجري مَدامِعُ عَينِهِ = لَها الدَهرَ دَمعٌ واكِفٌ يَتَحَدَّرُ

وَلَيسَ الَّذي يَجري مِنَ العَينِ ماؤُها = وَلَكِنَّها نَفسٌ تَذوبُ وَتَقطُرُ

قيس بن الملوح

3- لقاء الفتاة الكورية في المكتبة

بعد تلك الجلسة الغريبة التي جمعتني بأبي علي، خرجت من المكان كأنني ألقيت بنفسي في مهبّ عاصفة فكرية لا تهدأ. لم يكن اللقاء مجرد نقاش عابر، بل حفرة عميقة سقطتُ فيها، وخرجت منها وأنا لا أشبه نفسي. ، كان قد شحن ذهني بكم هائل من التناقضات، شتت أفكاري، جعلني في تيه من أمري، في الوقت الذي به تمكنَ من فك رموز العقدة لي، لقد بعثر الرجل أفكاري كما تُبعثر أوراق الخريف، ثم أعاد ترتيبها على طريقته، فتركني في حالة غريبة من الرضا المشوب بالحيرة.

قراري تجاه ليلى ـ أو هدى كما نُقلت لي حقيقتها، بدا وكأنه اكتسب تبريره، لكنها تبريرات لا تخلو من مرارة: كأنك تشرب ترياقًا فيه بعض السم، فتشفى وتتوتر في آنٍ معًا. صرتُ أتحرك بعد ذلك كمن يسير داخل حلم كثيف الضباب، كأني كنت أمشي بطاقة خفية تسير خطواتي كما تريد، هي التي تمشي بي لا أنا بها، ذهني يتقلب بتفاصيل لم أعد متيقنًا من حقيقتها. وصلتُ إلى غرفتي في سكن الطلاب دون أن أشعر، كأن المسافة طُويت في غفلة من الزمان، وكأن جسدي سبقني إليها.

هناك، في عزلتي المؤقتة، انكمشتُ على ذاتي الجديدة. لم يكن التعب بدنيًا بقدر ما كان إرهاقًا ذهنيًا هائلًا، كما لو أن عقلي خاض حربًا دون سلاح سوى التساؤل، ودون راية سوى محاولة فهم الحقائق.

جلست على سريري بصمتٍ، أتأمل الشقوق في سقف الغرفة كأنها خارطة لذهني الممزّق. لا شيء ثابت. كل فكرة تمرّ مثل شرارةٍ لا تلبث أن تنطفئ قبل أن أقبض عليها. بدا رأسي كمخزن مغلق يتردد فيه صوت أبي علي بوضوحٍ مرعب، يكرر كلماته عن ليلى — عن هدى — بصيغٍ متغيرة، وأحيانًا بنبرتي أنا، لا نبرته.

كنت أظن أنني خرجت من عنده ببعض اليقين، لكن في خلوتي، اتضح أنه قد فتح بابًا دون أن يدلني على المخرج. حوّل تساؤلاتي إلى متاهةٍ جديدة، فيها كل شيء قابل للشك، حتى قراراتي.

لم أشعر بتعبٍ في الجسد، لكنني كنت ثقيلًا... ثقيلًا كأنني أحمل حقيبتي القديمة محمّلة بكل ما مررت به من اضطراب وارتباك، وأضيف إليها الآن حقيقةً مبتورة لا أعرف إن كانت تقيني العطب أم تضاعفه. أردت أن أرتب أفكاري، لكنني عجزت عن اللحاق بها. كأنها غادرَتْني حين خرجتُ من عنده، وتركتني خلفها كجسدٍ بلا توجيه.

ما إن أغلقت باب الغرفة خلفي، حتى ارتميت على سريري المبعثر كأنني أهرب من ضجيج رأسي لا من العالم. كان حديث العم أبو علي لا يزال يتردد في ذهني، كصدى لا يعرف الصمت. حاولت أن أستخرج من كلماته قناعةً تُصالحني مع نفسي، تُخفف من وطأة الاتهامات التي أُلقيها على ليلى، لكنني لم أفلح.

كنت أعيش تقلبات الحالة بكل تفاصيلها، كأنني أُعيد تمثيلها على خشبة ذهني، مشهدًا بعد مشهد. الحيرة كانت قيدي، والقرار المنتظر أراه ولا أشعر به كضوءٍ بعيد لا أصل إليه.

وأنا ممدد على فراشي، بدأت المشاهد تتكرر أمامي: رحلة المصيف، النظرات، الصمت، التفاصيل الصغيرة التي لم أكن أراها ذات يوم، صارت الآن تحمل دلالات جديدة، كأن حديث أبو علي أضاء زوايا كانت معتمة.

شعرت بشيء من الوضوح، أو هكذا خُيّل إليّ. شكرت الله على تلك الفطنة التي أنقذتني من الغرق، أو ربما دفعتني إلى شاطئ آخر لا أعرفه بعد. كنت أسترجع كل كلمة قالها أبو علي، أُفككها، أُعيد تركيبها، وأربطها بما حدث. لم أكن أبحث عن الحقيقة فقط، بل عن نفسي وسط كل هذا الركام.

في محاولتي تلك، لم أكن أبحث سوى عن مخرجٍ واحد: تبرير فعلي، وتخفيف وطأة التبليغ الذي قمت به بحقّ ليلى. كنت أرجو أن أُنصف ذاتي الأسيرة، أن أربط الأحداث ببعضها لأقنع نفسي أن ما فعلته كان من أجل الوطن، لا من أجل الانتقام أو الخوف أو الضعف.

منذ لقاء المصيف، خف صوتها في الجامعة، لم أعد أسمع لاسمها صدى، ولا في الممرات همسًا. شهرٌ كامل مرّ، صامتًا، كأنها اختفت من الوجود. وكان ذلك متسقًا مع ما أخبرني به أبو علي، وكأن الزمن قرر أن يطوي صفحتها دون أن يمنحني فرصة أخيرة لمعرفة مصيرها.

وكنت، في قرارة نفسي، أتمنى أن يكون هذا الغياب هو ما يُجردني من عقدة الذنب إن كنت قد أذنبت، أن يُعيد إليّ شيئًا

مـن التـوازن، لكـن الحقيقـة أن الغيـاب لا يُنهـي الأسـئلة، بـل يضاعفها، وكأني جنيت عليها.

فـي الحقيقـة، لـم أسـتطع أن أقسـو علـى ليلـى - أو هـدى - رغـم كل مـا عرفتْ من تفاصيل، حيث لم يكن لدي دليلٌ مادي يقطع الشك باليقين. صحيح أنني كنت أستند إلى مصدر موثوق، إلى رجل بحجم أبي علي الجايجي ممثلا لجهاز أمن الدولة، لكن قلبي... لم يكن جهة تحقيق. حيث بقيت تلك الدمية غالية على قلب طفل تولع بها. شيءٌ من الحلم القديم كان لا يزال حيًّا بداخلي، يحاول أن يستعيد ظلاله في حضنها، رغم كل ما تكسّر. لا تزال نفسي تسعى خلف براءتها، كأنها تُفتّش عن عذرٍ ينقذها من التهمةٍ، لأن القلب لا يقوى على تجريم من أحب.

أهجس بصوت هدى يدور في خلدي كأنها تبرر لذاتها فعلتها اسمعها تقول:...

لم أطلب شيئًا من العالم سوى أن يتركني أنجو... أن أحِب وأُحَب دون أن أُضطر لارتداء أقنعةٍ لا تشبهني. ظنّ أنهم عرفوني، لكن لا أحد رأى ليلى الحقيقية، تلك التي تخاف الوحدة، وتكسرها الخيانة، وتبحث في كل حوار عن دفء لا يُقال. كنت أعرف أنه سيرتبك... أن تصله الحقيقة مبتورة، أن يتبع حدسه ثم يشك فيه. لكني ما كنت قادرة على كشف كل شيء. الخوف أقسى من الذنب أحيانًا، والوجع حين يُفصح يُصبح سلاحًا ضد صاحبه.

هو لا يعلم كم مرة بكيتُ بصمت، وأنا أراه يبتعد، وأنا أقرأ في عينيه شيئًا يشبه الاتهام. لم يكن ذنبي أن الحياة ألقت بي

فـي متاهتهـا، ولا أن الشـك أسـرع مـن التفسـير. لـو سـألني حينها... لو انتظر أياما... لكان كل شيء تغيّر.

لا زلـتُ رغـم كـل مـا قيـل - أجـد لهـا أعـذارًا، أو أخلقهـا إن لـزم الأمـر. شـهادتها علـى نفسـها لـم تكـن كافيـة لإقنـاعي بانهيارهـا الكامـل، فمـا زلـت أهجـس أن ذلـك الجمـال لا يُمكـن أن ينحـدر إلـى وهـدة الخيانـة، ولا أن ينزلـق إلـى وحـل التجسـس والجريمـة. وأن كـل مـا أصـابها مـن شـر وحسـد لـم يكـن سـوى لعنـةً حلـت عليهـا، أو جنونًـا خاطفًـا اجتـاح عقلهـا بعـد صـدمةٍ عاطفيـة. ربمـا لـم تحتمـل مـا فُجعـت بـه، فانكسـرت سـارية مركبهـا وسـط بحـرٍ هـائجٍ مـن العاطفـة، وتاهـت بعـد ذلـك فـي حقـول التجـارب وممرات حياةٍ لم ترحم هشاشتها.

علمـا تفسـيراتي قـد لا تُغيـر الحقيقـة، لكنهـا تُهـدّئ قلبـي... ولـو قليلًا.

لا أدري كيـف أقنـع نفسـي بعـد أن تمـادت فـي تخبطهـا بسـلوكياتها العرجـاء حتـى اسـتكان ضـعفها فـي مرفـئ الخيانـة. ربمـا لـم تجـد يـد العـون، لـم تحظـى بقـارب نجـاة ينتشـلها مـن بحرهـا الطـامي. لـم تلـتمس رعايـة مـن أبنـاء المجتمـع المحيطـين بهـا، مثلمـا لـم يصـفح القـانون المتزمـت ولا المجتمـع عـن سـلوكياتها المنحرفـة فشـطت بنواياهـا. أهجـس بهـا قـد تورطـت بعقـد جرتهـا إلـى مـا أصـبحت عليـه، كأنهـا عاشـت حياتهـا عيشـة الغـراب، الكـل يشمت به ويشمئز من شكله القبيح رغم أنه بريء من لونه.

صـحيح المجتمـع لا يبـرر للمـرأة خطئهـا وانكسـارها، ولا يسـامحها علـى هفواتهـا، ولكـن ذلـك لا يبـرر حقيقـة عقابهـا، أنـه عـرف الغـاب حـين يحاسـب المـرأة علـى جرمهـا ولا يحاسـب

الرجل على فعل الاغتصاب، تهجس في حيثيات المسألة ظلم منحاز إلى الرجل. كان من الأجدر أن يعاقب المفترس وليست الفريسة. المرأة حين تزل، تُجلد مرتين: مرة بفعلها، ومرة بنظرة المجتمع إليها. في حين يُمرَّر فعل الرجل بسطورٍ من التبرير أو التهوين، وكأن جرمه يُقاس بثقله الذكوري لا بخطورته الأخلاقية.

بعد مضي شهر وبضعة أيام على لقائي بالعم أبو علي الجايجي، كانت الامور تمضي على سريرتها وهدوئها، لم يطرأ شيء جديد في الأفق، خلال تلك الفترة، كنت حريصا على الاحتفاظ بالمبلغ الذي استلمته من ليلى كما هو، كنت قد تعرضت لحالة نفسية لا أفهم تفسيرها، قيدت سلوكي وتصرفاتي، كأني أحسست بأنه ليس من حقي التصرف بذلك المبلغ، ربما كان لعامل الخوف من المجهول الذي يتبعني هو الحافز الذي قيد سلوكي..

مثلما اختفت تماما من عالمي شرارة ليلى أو(هدى)، كذلك اختفت من الأفق أنوار الفتاة الكورية، لم أرى لهن أو لهؤلاء الشلة الذين جردوني من كرامتي أثرا لهم في طرقي. كما اني بقيت صامتا، مخرسا، بحيث خِيطَ فاهي بمخيط العقم؛ فلم أبح لأي مخلوق بأسرار القضية، ولا همست بها لأنس أو جان، مثلما طلب ذلك مني ضابط الأمن أو النادل - أبو علي - الطيب..

مثلما تهت بشخصية هدى؛ تهت بشخصية أبو علي بعد أن عرفت بأنه ضابط أمن، صرت أتجنب الدخول إلى المقصف، أو المرور من أمام نادي الجامعة، كما أني صرت أتجنب

صديقي شاكر، كي لا يثير زوبعة هدى أمامي، كي لا تفلت زمام الأمور من يدي..

منذ لقائي الأول بأبو علي؛ صرت أكثر جبنا مما سبق، حيث الأمر تعلق بجهاز الأمن الذي لا يرحم، وهؤلاء الذين تعقبوني حتما هم من عناصر شبكة التجسس، كانوا يتحركون حولي حسب إشارة هدى أو قيادة هدى التي كانت تدير اللعبة بريموت كونترول عن بعد. هكذا هيأت لي الأوضاع فيما يخص القضية المعقدة.

لذا كان أن أستخدم أسلم الطرق هو كتم أنفاسي، فلم أبح بشيء مما أود أن أفضفض به، متحملا سم الإرهاصات الدائرة في أحشائي، لأن الخطأ له عواقب جسيمة، ويلات تتعقب الذنب لا أستطع تحمل وزرها. على الرغم من أن شاكر كان قد طرح عليَّ أسئلته المعهودة عدت مرات لكني لم أوضح له حقيقة النهاية الدراماتيكية التي وصلت لها، حيث في آخر لقاء لي معه، دار الحديث بيننا كالتالي:...

- أين وصلت يا دون، هل من جديد في سماء الحب؟
- أنسى الموضوع؛ أخذت بنصحك، أعطيت لنفسي إجازة دائمية من شرك الغرام، رضخت لرأيك، انسحبت من المنازلة التي لا جدوى منها نهائيا، وجدت نفسي أشبه بالذي ينطح جدارا صلبا، ضائع، تائه في مشواري.
- حسنا فعلت، لهذا السبب لم ينعموا جلدك مرة أخرى، لم يتعرضوا لك بالضرب المبرح، هههههههه، أدبوك.
- أعتقد ذلك. فعلا ادبوني.. هي فعلا تشبه اللؤلؤة الراكدة في قاع البحر، تراها قريبة وهي في الحقيقة

أبعد ما يكون، غائرة في أعماق المدى، بعيدة المنال، تحتاج لغواص ماهر ونفس طويل لا قبل لي بمتابعتها.

- أهتم بدروسك ومستقبلك، لا زال المشوار طويلا أمامنا.
- وهو كذلك.

توالت الأيام والسكينة على حالها، لم ترتقي لدرجة الهيصة قط، كدت أنسى الموضوع برمته تماما لولا بزوغ هلال الفتاة الكورية مرة أخرى في حياتي على حين غفلة، حين وجدتها بذات المكتبة التي أراودها بين الأحايين. في الحقيقة أني في داخلي كنت أبحث عن أجوبة لأسئلة بقيت عالقة في ذهني تخص مصير ليلى(هدى) بعد أن اعتقلتْ من قبل جهاز الأمن، كأن الفتاة الكورية قد أحينت الفرصة لتداول مصير ليلى (هدى) أن كانت لها فكرة عن الموضوع. في داخلي كنت أشعر بالندم، أهجس بأني قد آذيتها، عاقبتها، أشعر بتأنيب الضمير تجاهها، لا استطيع إيذاء من أحببت.

حين شاهدتني متجها نحوها، ودت أن تحمل ذاتها وتفلت من المكتبة، لكني ترجيتها لبضع دقائق، أن تحل العقدة الأخيرة المعلقة في ذهني أن تفسر ما بقي عالقا في البال، فرضخت وجلست قبالتي، ومن ثم جلبت لها كوبا من الكبجينو وجلست أحاورها وأستمع لكلماتها.....

- كيف الحال صديقتي؟ دعني أسميك صديقتي لأن فعلا أشعر تجاهك بذلك، صدقيني لن أطيل جلوسي معكِ، فقط أود أن أسألك سؤالا أخيرا عن مصير ليلى؟ ما أخبارها؟.

ابتسمت ابتسامة عريضة لي وأدارت وجهها لتثبت عينيها في عينيَّ باندهاش..

- نعم.!!!!!.... ومن تكون ليلى هي الأخرى؟ ماذا تراني مختار نساء؟ عرافة، فتاة أخرى تود أن تورطني بها؟ إلا تكف عن مغامراتك يا دون جوان هههههههههه.
- هههه، على مهلك على مهلك.... أنت تسميني دون جوان وصاحبي يسميني دون جوان، ألهذا الحد أنا ضليع في النساء ولا اعرف نفسي..هههههه ..لالا أنا اسأل عن صديقتك ليلى محمد خليل أو تلك التي كنت تدعين اسمها هدى.
- هههه، أولا يا عمر أسمها هدى محمد وليس ليلى محمد؟ وهي بخير وسلام، اليوم كنت في زيارتها، وهي على وشك أن تعار إلى جامعة بغداد، حيث تم انتدابها لثلاثة أشهر، ولأن حالي من حالها فهي صديقتي وحبيبتي أعرف عنها كل شيء.... قل لي ماذا تريد منها؟

جعلتني أتوه في دوامة فكري، أشبه بالدولاب الدائر، تائه في ظني، ترى من تكون تلك الفتاة... ليلى أم هدى؟ ولم قال لي العم أبو علي بأن أسمها ليلى، وقد تم اعتقالها؟ يا ترى من الذي يكذب عليَّ... الفتاة الكورية أم جهاز الأمن المتمثل بالعم أبو علي؟.. وما هو دوري الحقيقي في إطار هذه المشكلة لأكون هكذا في موضع سخرية؟ أأصدق الفتاة الكورية وهيَّ صديقتها المقربة أم رجل الأمن أبو علي الذي قابلني ووضح لي قصتها وحقيقة اعتقالها؟

أصبحت كمن غص في لقمته، مخنوقا، لم أجد من يفك الحبل عن رقبتي.

- يا عزيزتي، أبو علي قال لي....
- أي أبو علي تقصد؟...هههههه. الجايجي (الذي يبيع الشاي والقهوة في نادي الجامعة). هذا هو عمها الحقيقي. ماذا قال لك؟
- نعم...ماذا؟.... عمها؟ أنتِ صادقة معي...
- أنا لا أكذب، هذه هي الحقيقة، أين ألتقيته وماذا قال لك؟
- بعد عودتنا من المصيف مباشرة، وبعد أن وقعتني هدى على أوراق عمل طلبت مني أن أراقب أشخاص خطرين حسب ما ادعتْ، كونها تشك بوطنيتهم خفت من أن أغوص في متاهة التجسس، فذهبت لدائرة الأمن وأخبرتهم بما جرى معي لأنقذ نفسي، فذكرت لهم تفاصيل ما جرى في المصيف. كان أبو علي هو الذي دار جلسة المقابلة معي في دائرة الأمن، هو الذي حقق معي، عرفني بنفسه كضابط أمن وليس مجرد جايجي. أنه مسؤول كبير في جهاز الأمن، كان قد ذكر لي أنها جاسوسة وتم اعتقالها.
- هههههههههههه...
- على ماذا تضحكين، هذه هي الحقيقة..
- أضحك على خيبتك.. أتذكر أسم الشخص الذي طلبت هدى منك أن تراقبه ومتابعته؟
- نعم ....طلبت مني أن أراقب رجل لا أعرفه، أسمه أمجد سالم ووصفته لي بالخطير.

كركـرت مـن الضـحك، بـت أسـمع نـبض قلبهـا لمـا أصـابها مـن مفاجئــة غيــر متوقعــة هههههههههــه، كــادت العــين تــذرف دموعها، ثم أردفت قائلة:...

- جعلـتْ منـك فلـم هنـدي، هههههـه، حسـنا فعلـت وذهبـت للأمـن وتطرقـت بكـل مـا تعرف......هههههـه.... أتـدري من هذا الشخص؟.
- لالالالا ...ولا يعنيني؟
- هـذا الـذي تـود مراقبتـه هـو زوجهـا، وهـو ضـابط أمـن منطقة أربيل.
- نعم !!

عبـرت بانـدهاش وقلـق وحيـرة، كأنهـا صـفعتني علـى وجهـي، شـتت ذهنـي، بحيـث اختلطـت الأمـور الحابـل بالنابـل، كأنهـا عصـرت السـم فـي كـأس خمـرا، كأنهـا برشـت قشـور الخيبـة بظنـي لتبـان الحقيقـة، لتسـقيني مـرارة الصـبر واليقـين.. قلـت لهـا باستغراب...

- مـاذا تقولين؟ ولـم حاولـت تـوريطي بهـا؟ لِمَ لـمْ تـذكري لـي بأنها متزوجة؟
- :فـي الحقيقـة أنهـا ودت أن تعـرف نوايـاك كونهـا زوجـة رجـل مهـم فـي الدولـة، وكـامرأة ودت أن تتعـرف بـذاتك علـى قامـة زوجهـا كـي تبتعـد عـن طريقهـا، لقـد زدتَ مـن الإلحـاح معهـا كثـور لا ينظـر لجوانبـه.. فـي نفـس الوقـت ودتْ أن تعـرف تصـرفاتك أن كـان ورائـك شـيء خبيـث. كمـا ودت أن تعـرف تصـرفات زوجهـا إن كـان لـه ميـول لامرأة أخرى. تلك هي طبيعة المرأة...

ثم أني لم اذكر لك أنها متزوجة، لأني أعلم بأنك ستلح عليَّ وتود معرفة صاحب الحظ السعيد الذي تزوج بها، ولأنَّها زوجة ضابط أمن فلم أجرء أن أقول لك الحقيقة، كي لا أكشف سره، وقد أعرض حياته وحياتها للخطر دون قصد.

- لالالا مستحيل، أنت تكذبين عليَّ، وكيف تجرأ أبو علي أن يذكر لي تلك المعلومات المغلوطة وهو ضابط أمن.
- أنه مجرد جايجي هنا في الجامعة وكذلك جايجي في دائرة الأمن، ليس له علاقة بطبيعة الأمن نهائيا، وقد طُلب منه تمثيل الدور عليك وكان قد أجاد.. أنسيت هي أبنة أخوه يعرف كل اسرارها، هو في محاولته تلك ود إيهامك وأبعادك عن طريق هدى نهائيا... تأكد بأني لا أكذب عليك وسأعطيك دليل آخر...أتذكر يوم ذهبت لأبو علي وسألته عن سر اختفائها.....أنه نقل ذلك لها وكنت حينها برفقتها.
- أن كان كذلك أليس من الأجدر أنت بذاتك تذكرين لي تلك الحقائق قبل أن أتورط بقضية تفوق طاقتي؟ لم غلستِ عن الموضوع وقلت لي أنها طالبة في كلية الهندسة؟

التفتت إلي نافخة أوداجها كديك الرومي، وفي عينيها قدحة غضب...

- قلت لك لا تصفني بالكاذبة....أولا: ليس من حقي أن أبوح لك بأسرار الغير...ثانيا: الموضوع لا يخصني بالشكل المباشر أنما يخص حياة صديقتي. وها أنت

عرفت الآن منصب زوجها، وقد أخطئ وأحاسب على كل هفوة تصدر من قبلي، ثم أني لا أود أن أخسرها مقابل أن أسدي لك خدمة جليلة وأنت لا تمت لي بصلة، من تكون لأضحي بها من أجلك؟... من أنت؟ لأذكر لك تفاصيل حياتها... ألست غريبا عني؟ أنا حين ذكرت لك بأنها طالبة في كلية الهندسة، كان غرضي أن أبعدك عنها وأبعدها عن دائرة الأحراج... لو ذكرت لك بأنها معيدة في كلية العلوم، كان ممكن أن يهفو بك الشوق للكلية وتذهب كسيرا لملاقاتها في غرفة المدرسين.. كيف يكون شكلك وشكلها في حينه؟ كيف يكون شكلي أنا أمامها؟ ألا تفكر بذلك؟ أصحى يا نائم، لا تكن طفيليا في تصرفاتك؛ ولا تكن أنانيا.

- صدقتِ أنا آسف، أرجو أن تتحمليني، لأني مضطرب، ومشوش، أنا فقط أود أن أصل لقناعة تذهب عني شكوك العم أبو علي الطيب. ثم أني أحس بتأنيب الضمير كوني ذهبت لدائرة الأمن اشكيها... ممكن أن تفسري لي ما تلك الهويات المزيفة التي تحملها؟
- قلت لك أنها زوجة ضابط أمن المنطقة، وهذه هي جزء من عملية الغش، تلك هي شهادات أمن وسلامة تستخدمها في أيهام نقاط التفتيش في الطرق، كونها امرأة مسؤول كبير في الأمن لا تود أحدا يتعرف عليها، ربما تتعرض للاختطاف أو الغدر من الذين يتصيدون في المياه العكرة، تلك الهويات تحفظها من شر الأعداء... ربما هناك من يكيل لها النقمة أو يترصد زوجها في كمائن.
- سؤال أخير...لم طاوعتني في رحلة المصيف؟

- كان عليك أن تفهم منذ البداية، الحوادث التي تعرضت لها هي مقصودة، وكان زوجها من يدبر لك تلك الحوادث عن طريق بعض المنتسبين الذين يعملون تحت أمرته، كل ذلك كان ذلك بعلم هدى، على الرغم الخلاف الدائر بين الأزواج في تلك الفترة، فلا يوجد بيت بلا مشاكل وعقد. فهم لم يرغبوا بإيذائك لانهم لا يودون الفضيحة من جهة ويعلمون بأنك ساذج وغبي من جهة أخرى. ثم أنك متورط بجمالها وهو أمر خارج عن أرادتك، وهيَّ لا تريد أن تفضح أمر زوجها وتخبرك بكل التفاصيل. أنت كنت عنيدا لا تريد أن تفهم! لو كانت حقا تحبك لكانت أعطتك رقم هاتف ما، أو عنوان ما في أقل تقدير لتتواصل معك. أنها طاوعتك في الرحلة لغرض يخصها هيَّ لا اعرفه أو أرادت أن تكشف المستور كي تبتعد عن طريقها. ربما تود أن تغيض زوجها بك والله اعلم، فهي مراقبة من قبل زوجها على الرغم من قوة شخصيتها.

كما زوجها لا يريد أن يخسرها من هفوة عابرة تحدث بين الازواج، فهما لم يتزوجا إلا عن علاقة حب.... وأكيد كل بيت له أسراره ومشاكله.. وكون الجمال هبة ونعمة من الله للفرد؛ إلا أنه يصبح نقمة حين يتعثر صاحبه بحجر يشبهك (عفوا عن التجريح)، هههه (باتت تبتسم بلطافة).. شخص جلد عنيد يجلب الوبال لنفسه.

- انا لا ازعل منك، في الحقيقة انا غبي جدا كما وصفتني بسلوكي الاهوج، أو أن الحب أعماني وتلك هي الحقيقة.

- الحمـدلله عرفـت نفسـك، هكـذا تجـد المشـاكل تتـبعهم وتصـب فـي حجـرهم دون أن يكـون لهـم ذنـب، هـم متفهمـون لمـا تحـيط بهـم مـن وقـائع. وفـي المقـام الثـاني أرادت أن تستكشـف حقيقـة شخصـيتك، وهـل حبـك نـزوة أم هيـام بهـا، أم مـدفوع مـن قبـل جماعـة تريـد الإيقـاع بزوجهـا؟.. حيـث الأمـان واجـب، والنسـاء بطـبعهنَّ يشـعرنَّ بفخـر بمحبـة الآخـرين لهـنَّ... ثـم أنهـا أرادت أن تغيـر شـيئا مـن روتـين حياتهـا، وخاصـة حينهـا كانـت تمـر بأزمـة نفسـية، حينهـا كانـت تشـعر بالوحـدة بسـبب خلافـات زوجيـة....ثـم عليـك أن تعلـم، هـيَّ مـن منعـت زوجهـا مـن أن ينـتقم منـك ويمحيـك مـن الوجـود لغيرتـه عليهـا، هـي التـي فرضـت رأيهـا لتسـوي الأمـر معـك بالهداوة دون تدخل زوجها.
- صدقت، وأنا أشكرك على تحملك لي وبيان الحقيقة.

بعـد سـماعي لتلـك الوقـائع أخرجـت المبلـغ 300 دولار مـن جيبـي وقلت لها:...

- أرجـو منـك أن توصـليها لهـدى، فأنـا لا أود صـدقة مـن أحـد، وخاصـة مـن التـي أرهقتنـي ولعبـت بمشـاعري وكوت فؤادي بنارها.
- وهـل أنـت واثـق مـن أمـانتي لأوصـلها، ثـم هـذا المبلـغ دفعتـه لـك مقابـل البـدلات التـي تلطخـت بـالطين (قالـت ذلك مبتسمة).

وقبل أن أودعها ودعتني تاركة المبلغ على الطاولة، قائلة:....

- فـي المـرة القادمـة لا تسـتعجل باختيـارك، تمعـن جيـدا قبـل أن تقـدم، لا تنسـى أن تحـافظ علـى السـرية التامـة لمـا دار بيننـا، كـن كتومـا لصـالحك واحترامـا للفتـاة التـي احببتها. مع السلامة
- أكيد ستبقى في مكانتها، وشكرا لك على إنارتي فلولاك لكنت تائه في ديجور الظلمة...شكرا للطفك وطيبتك... مع ألف السلامة

حينهـا وجـدت نفسـي فـي تيـه لا أعـرف حقيقـة هـدى ولا أعـرف حقيقة الفتاة الكورية ولا حقيقة أبو علي.

مـن يكونـوا هـؤلاء؟ هـل مـن المعقـول كـانوا مشـتركين فـي تمثيـل جريمـة إيهـامي؟ هـل هـؤلاء هـم جـزء مـن العصـابة؟ ولكـن قـدر صـراحة أبـو علـي وطيبتـه، كانـت الفتـاة الكوريـة أكثـر جديـة وواقعيـة وقناعـة، وخاصـة أنهـا تعـرف كـل صـغيرة وكبيـرة مـن تلك الأحداث التي تعلقتُ بها أو تعلقتْ بي...

أحيانـا الأنسـان يمـر فـي مواقـف تزيـده قـوة وصـلابة فـي مجابهـة الحيـاة، لكنهـا زادتنـي ضـعفا وهوانـا، وخاصـة حـين أقـارن نفسـي كصـعلوك مقابـل جبـروت شخصـية زوج هـدى وشخصـية هـدى والفتـاة الكوريـة.. ثـم أنهـا علمتنـي درسـا بـان لا أثـق بكـائن مـن يكـون، ولا أعتمـد علـى هـاجس الظـن فـي اختيـاراتي.. يجـب أن ادرس الموضـوع مـن كـل الجوانـب قبـل أن اقـدم علـى أي مشـروع فـي الحيـاة يخصـني، وخاصـة موضـوع الارتبـاط بامرأة.

بعـد تلـك المقابلـة لـم أجـرأ أن أنظـر بوجـه أي فتـاة فـي الجامعـة، حتـى أتممـت السـنة الدراسـية، كمـا لـم تصـل قـدمي جنـاح كليـة

العلوم أو الهندسة بتاتا، ولم أجلس على الرصيف منتظرا قدوم اللؤلؤة، كما حرمت على نفسي دخول نادي الجامعة ومواجهة العم أبو علي.

وقبل أن أنهي السنة الدراسية بأسبوع واحد فقط؛ تقدمت مني تلك الفتاة السمراء التي كانت قد قدمت لي فيما سبق رسالة التهديد ومن ثم اختفت عن ناظري بين زحمة الطلبة، حاملة في يدها علبة صغيرة مغلفة بأحكام. قالت لي:....

- مرحبا يا عمر..... تفضل يا أخي هذه هدية لك!

حينها تذكرت ملامح وجهها وكأنها أعادت لي سيناريوا الأحداث مرة أخرى...

- أأنتِ مرة أخرى؟

تجنبتها ووقفت على قدميَّ رافضا أستلام الهدية.

ابتسمت لي قائلة:....

- هذه المرة تختلف عن المرة السابقة، هذه المرة جدية ومن السيدة هدى.

ثم أشارت لي إلى موضع وقوفها، نظرت لها بذات الشوق فلمحت تلك الحمامة وفي وجهها ابتسامة مشرقة، جعلت الفؤاد يرق لها. لوحت لي بإشارة وداع براحة يدها، ثم أنزوت خلف البناية ماضية في طريقها.

شكرت الفتاة وأخذت الهدية منها ...فتحت العلبة على عجالة وإذ بي أجد فيها رسالة ومبلغ من المال يعادل الف دولار،

وعطر رجالي فاخر. فتحت الرسالة على عجالة والتي كتبتها هدى بخط يدها قائلة...

أخي العزيز عمر....

أنا أسفة على كل ما جرى لك وما أصابك من أذى، أنا أحترمك كثيرا كأخ عزيز، أتمنى لك الموفقية في حياتك المستقبلية، لا تسألني عن شيء كان قد مضى وأنكسر، وشكرا لك على تكريمك لي ونعتي باللؤلؤة، وهذا المبلغ ما هو إلا هدية نجاحك من أختك الفاضلة. تقبل تحياتي وأمنياتي الصادقة....

اللؤلؤة

لم أعد أبحث عنها، ولا عن حقيقة تريحني، ما عاد هناك ستار... فقط أنا، وذاكرتي التي تعرّفت أخيرًا على نفسها. كان يمكن أن تكون شيئًا جميلاً... لكنها اختارت أن تبقى عطرًا عابرًا، وأنا اخترت أن أبقى ظلًا لا يسأل.

عباس مدحت البياتي

النهاية

للكاتب ستة عشرة كتابا بين
رواية ومجموعات قصصية

مجموعات قصصية:-

1- فرصة هدف
2- عصير الرمان
3- لغة العود والحجر
4- زيارة طبيب
5- كرستال
6- الأنتقام
7- المجموعة الكاملة الجزء الاول
8- المجموعة الكاملة الجزء الثانى

مجموعة الروايات:-

1- لغز اللؤلؤة
2- فتاة الكاظمية
3- جنوح النفس
4- عبير
5- شذرة العقد
6- طريق الجحيم
7- غراب البين
8- الإقدام المتكسرة
9- عواصف الجنين
10- الفراغ
11- القمة
12- عقاب الذات

دارت نصف دورة نحوي وعلامات الاستغراب استقطبت ملامحها! حيث قالت وهي تضحك بعد أن بدت للعيان تلمع اسنانها العاجية في ثغرها المتورد، فبان وجهها متوهج كالقمر...

- أية لؤلؤة تقصد؟ كل زميلاتي لألئ..

- عفوا عن صديقتك الجميلة ذات الشعر الكستنائي، تلك التي لا تفارقينها، فأنا لا أعرف أسمها، لذا وصفتها باللؤلؤة؟

حين إذ ابتسمت ابتسامة صفراء ثم قالت....

- اللؤلؤة؟ ...شكرا لك على قارورة البيبسي وأرجوك أن تتركني الآن لأني مشغولة بالمذاكرة حيث أستعد لاختبار قادم بعد هذه المحاضر. أود أن اركز على بعض المفاهيم الخاصة والمهمة... إذا سمحت يا عمر! أجل موضوعك لفرصة قادمة سانحة، تكون أفضل وأجدى لي ولك.

- وعد منك؟

- بأذنه تعالى.

- شكرا لتفهمك، إذا أستأذنك. مع السلامة..